

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري



من أوراق الشاعر
إبراهيم طوقان

المتوكل طه



من أوراق الشاعر

إبراهيم طوقان

المتوكل طه

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بفلسطين عام ١٩٩٨ بعنوان : «الكنوز... ما لم يعرف عن إبراهيم طوقان» بعدد محدود من النسخ



أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعه الباحثان
بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

عدنان بلبل الجابر
و
ماجد الحكواتي

الصف والإخراج والتنفيذ:

محمد العلي

أحمد متولي **أحمد جاسم**

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة



مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

تلفون: 2430514 **فاكس:** 2455039 (00965)

E-mail < babtainprize@hotmail.com >

2002

تصدير..

استعادة إبراهيم طوقان

في هذه الأيام المربكة حيث تُعتقل الأرض الفلسطينية بكاملها، ويُطَلّ الدم الفلسطيني، ويتطوع البعض لإلغاء الذاكرة العربية، وقصّ أجنحة المستقبل، وتدجين الإنسان العربي ليتحول إلى مجرد مخلوق بيولوجي، وحيث يلتقي الغضب والعجز، والقديسون والفريسيون، تصبح فلسطين هي الساحة التي يتقرّر فيها مستقبل العرب، وتفترق فيها الطرق، إلى طريق سهل يرى في الموت إلغاء للحياة، وطريق صعب يرى الموت الطريق الوحيد إلى ولادة جديدة.

وفي هذه الأيام الصعبة - أيام الرماد والجمر - حيث يُراد لنا أن نعدّ الشهادة إرهاباً، والإصرار على الحق غباء، والرضا بما تيسّر حكمة، فإن استدعاء إبراهيم طوقان إلى الذاكرة العربية يصبح ضرورة ماسّة لمن يتطلّعون إلى إيقاف هذا الانهيار في الرؤية، والعجز في الإرادة. لم يكن إبراهيم طوقان شاعراً محترفاً غايته المثلى اقتناص الكلمة الجميلة في فضاء منعزل، بل كان - وقد ولد في رحم مأساة فلسطين - الابن الشرعي لهذه المأساة بكل أبعادها، لقد حمل منذ تفتح وعيه الجرح الفلسطيني، وغدا الناطق باسم هذا الجرح بكل حرارته وألمه الممضّ، وتحولت الكلمات لديه إلى رصاصات تنطلق بكل غضب المقهور، وصلابة الفدائي إلى صدور الأعداء في الداخل والخارج.

لم يجد إبراهيم أمامه - بجسمه المنهك بالأمراض - سوى الكلمة ليشارك بها في معركة شعبه، ولم يكن إبراهيم، والمعركة هي معركة وجود، يؤمن بأنصاف الحلول، أو بالكلمات الخجولة، بل كان حاداً كالسيف، وواضحاً كضوء الشمس، كل شيء أو لا شيء، المقاومة هي الرد الوحيد على الاغتصاب، الشهادة هي أعلى درجات المقاومة، بطاقة الانتماء إلى الوطن هي التضحية في سبيله، هذا ما نتعلّمه من قصائد إبراهيم طوقان التي عاش على وقع أناشيدها

جيل كامل، يتسلّح بها في مواجهة القمع والإحباط والتخاذل، ونحن ما نزال بحاجة إلى صوتها الصارخ في هذه المرحلة التي يُطلب منا فيها الصمت على جريمة العصر، وإلى لهبها المحرق في الوقت الذي توضع فيه الأرض - ببرودة قاتلة - على طاولة المساومة، ولكن إبراهيم طوقان الذي سقط في عنفوان شبابه لم يكن لديه الوقت الكافي ليجمع نتاجه الثري واكتفى قبل وفاته باختيار بعض القصائد التي أعدّها للنشر في ديوان لم ير النور إلا بعد وفاته. هذا الديوان وإن احتوى أهم قصائده، فقد أغفل الكثير من شعره الذي نشر في الدوريات العربية أو بقي ضمن أوراقه المخطوطة، وهناك جانب مهم آخر من نتاج طوقان الأدبي هو الجانب النثري، فقد كان إبراهيم بالإضافة إلى كونه شاعراً كبيراً ناثراً مبدعاً، نشر الكثير من المقالات في الدوريات العربية، وأذاع الكثير من الأحاديث من إذاعة القدس، وخطّ المئات من الرسائل إلى أقربائه وأصدقائه، وبقي هذا التراث الخصب حبيساً في خزائن المكتبات العربية، أو في الأدراج لدى الأهل والأصدقاء، لا يعرف عنه الجيل الجديد شيئاً.

وقد قيّض الله لهذه النتاج المجهول من تراث طوقان ، الشاعر «المتوكل طه» الذي وجد أن من واجبه الوطني والقومي أن يبرز للنورهذه الفرائد التي أبدعها إبراهيم طوقان، والتي تكمل ملامح شخصية طوقان الفنية والإنسانية.

وقد بذل المتوكل مجهوداً كبيراً لاستخلاص هذه النصوص المجهولة من مظانها، فأخرج من أوراق الشاعر الخاصة لدى شقيقته الشاعرة فدوى طوقان نصوصاً شعرية جديدة، ورسائل شخصية بعث بها الشاعر إلى شقيقته وإلى بعض أقربائه، وحصل من الدوريات الفلسطينية والسورية والمصرية على كثير من المقالات التي نشرت للشاعر وبعض النصوص الشعرية، كما حصل على عدد من أحاديثه التي كان يلقيها من إذاعة القدس، وقد نشر المتوكل طه هذه النصوص المجهولة في كتاب بعنوان «الكنوز: مالم يعرف عن إبراهيم طوقان» صدر عن مؤسسة الأسوار في عكا عام ١٩٩٨ ونظراً لأهمية هذا الكشف الأدبي، فقد ارتأت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري إعادة نشر هذا الكتاب - بإذن من مؤلفه - تحت عنوان جديد هو «من أوراق إبراهيم طوقان» وبهذه الخطوة يتمكن القارئ العربي - لأول مرة - أن

يحيط بمعظم نتاج إبراهيم طوقان الأدبي، وأن تتبدّى له شخصيته كاملة في جوانبها المختلفة، شخصية الشاعر الساخر الذي يهوى الدعابة والمرح، وشخصية الأخ الودود والصديق المخلص الذي يسدي نصحه وإرشاده لمن يحيط به، وشخصية المثقف الذي يتابع ما تنشره المطابع أولاً بأول، وشخصية الناقد الذي يتعامل مع التراث الشعري العربي بحساسية مرهفة، وبصيرة نافذة.

إن استعادة إبراهيم طوقان إلى الذاكرة العربية بفضاءاته الإبداعية المتنوعة، وبشخصيته الفنية الرحبة في هذه الظروف بالذات هو واجب قومي تقوم به مؤسستنا تجاه شعب فلسطين الذي يصر على المقاومة وهو لا يملك إلا دمه، وتجاه الأمة العربية التي تجد في خوض هذه الملحمة طريقها إلى امتلاك مصيرها ومستقبلها. وإني إذ أشكر الأستاذ المتوكل طه على جهده الكبير فإني أشيد أيضاً بالأستاذين عدنان جابر وماجد الحكواتي الباحثين في الأمانة العامة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري على جهدهما المتميز في إعداده للطبع على هذه الصورة.

والحمد لله.

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في ٢٠٠٢/٨/١٢

كلمة لا بُدّ منها

مرةً أخرى، أعود مفتوناً بهذا الشاعر الممتلئ سخرية ومعرفة، بعد أن أتيت في دراسة أكاديمية على دراسة شعر إبراهيم طوقان - رحمه الله - سنة ١٩٩٢.

أعود لأضع بين يدي التاريخ والدارسين ما لم يعرف عن إبراهيم الشاعر الكاتب المعلم ، الناقد، والإنسان، في محاولة لإنصاف هذا العبقري من خلال إضاءة ما خفي من نتاجه، الذي لم ير النور لغير سبب.

أقدّم هذه الكنوز، كما هي، دون تدخّل منّي، وليس لي فضل سوى جمعها وتحقيقها وتبويبها، فالفضل الأول والآخر لله - عز وجل - ومن ثم لأُمّ روحنا الشاعرة التي لا تعرف إلاّ أن تحب وتعطي فدوى طوقان شقيقة الشاعر، التي فتحت لي بوابات مكتبتها ومكتبة شقيقها ومعلمها إبراهيم. والفضل كذلك، لأُستاذي الدكتور إبراهيم السعافين الذي أشرف على دراستي لإبراهيم وعلى هذه الملاحق/ الكنوز، وعبّر عن مدى ثرائها وأهميتها الشديدة.

إنني أقدم إغراءات بمنتهى الأناقة لكل باحث ودارس، من خلال هذا الكتاب، ليطلّ على ما لم يعرف عن إبراهيم من قصائد ورسائل ومداخلات ومقالات وأحاديث، وعلى ما تركه إبراهيم من أثر واضح في محيطه بدءاً من فدوى، وانتهاءً بالمتلقين من قرّاء ومستمعين، رغم أن ثمة نصوصاً شعرية ماجنة وقاسية نُقِلَتْ بالمشافهة، عن إبراهيم، لم استطع تثبيتها!! على غناها وأهميتها البالغة.

وربما لم يكن في خاطر شاعرنا إبراهيم أن هذه الكنوز سيطلع عليها أحد، سوى الذين وُجهت اليهم الرسائل، وهم لشدة قربهم منه لم يتأنق ولم يفتعل في كتابتها، بمعنى لم يوصلّها ليدفعها إلى النشر في هذه الصحيفة أو تلك، ومن هنا تكتسب هذه المواد

أهمية خاصة جداً، لأنها نتاج خرج من دواخل إبراهيم دون أن يخضع لرقابة القارئ المفترض، ودون أن تمر تحت سيف الوعي الذي يحيط بالنص جيداً قبل أن يعممه في الصحافة أو يلقيه على المستمعين، وإلا لكانت، هذه الكنوز، قد نشرت أو أعدها المرحوم للنشر. إنها صفحات تشفّ عن شخصية شاعرنا دون حجاب أو طلاء، إنها المرآة الأكثر قدرة على توضيح إبراهيم كما هو دون قناع أو مكياج. ولعل هذا ينطبق أشد الانطباق على أشعاره الماجنة تلك، لأنها، بالتأكيد، لم تكتب لتُنشر(!!) وربما يرفع أحدهم عقيرته ويعلن احتجاجه عن حجب تلك القصائد الفاضحة، ويقول: لماذا لا تنشر، وقد امتلأ تراثنا وأمهات كتبنا بمثل تلك القصائد والحكايات الساخنة؟! بل أفرد عدد من الكُتّاب والمبدعين الموسوعيين العظام كتباً ومقامات تعالج أو تصف بفنتازيا أو بفكاهة ما عرف بالإيروتيكا. ولعلي أجيب عن هذا السؤال بأننا كأُمّة، نرهب ونخاف، في حالات الجزر والضعف، من أن نبسط كل نتاجنا، لأن الضعيف لا يجرؤ أن يقول كل ما يريد، في حين أنه وفي حالة القوة والمدّ، فإن هذه القوة تجد تعبيراً لها في اللغة والسلوك وطرائق التعبير عن المشاعر والحالات. وثمة رأي يقول إنه يجب حجب تلك النصوص بحجة تنقية التراث واللغة من الابتذال والإسفاف، لكن هذا الرأي غفل عن أن الانتقائية في التراث ستقودنا إلى التعصب واختلاف المرجعيات وتضارب الآراء، وأن التراث وحدة واحدة يجب تناولها كما هي، بشرط واحد ووحيد هو أن يكون قلب وعقل الباحث على هذه الأمة يريد خيرها ويبتغي قوتها ويبني سؤددها.

إن الانتقائية التي دعا اليها بعض المفكرين العرب أدت في النهاية إلى تغييب بعض عناصر القوة، أو إظهار بعض عناصر التردّي، أو في بعض الأحيان الأخرى، أدى ذلك إلى أن يُنظَر الى هذا التراث نظرة استهزائية تماماً.

الانتقاء الوحيد هو أن يكون عقلك وقلبك على هذه الأمة، هذا هو الشرط الذي نؤكده، ومن هنا فإنني اعتقد أن الظرف الموضوعي الحالي لا يسمح بنشر تلك القصائد التي اجترحها إبراهيم.

وهل أبالغ إذا قلت إن هذه الكنوز تشكل مفاتيح إضافية، لكنها حقيقية، لفهم الشاعر من جهة وتاريخه الشخصي والعام من جهة أخرى، لأن التاريخ هو شخصي أيضاً، والأشخاص، في بعض الاحيان، لا يشكلون إلا غبار طريق في مسيرة تاريخ أكثر قوة وسطوة منهم. واعتقد، جازماً، ان إبراهيم طوقان، رغم موهبته وصوته المميز، كان شخصاً عادياً - ولم يكن غبار طريق - له ملذاته وشطحاته وعبقريته.. وعالمه الصغير الريان.

واخيراً، ارى من المعقول بل المفيد ذكر ما قاله توفيق الحكيم في مقدمة كتابه «زهرة العمر»: و«الرسائل الحقيقية ليست عملاً مؤلفاً حتى يستباح فيها التنقيح والحذف والتهذيب، فإن ميزتها الوحيدة هي التشجع على نشرها بخيرها وشرها، وإني - توخياً للصدق - لم احذف حتى ما كان يحسن حذفه من عبارات أو فقرات أو حوادث، قد يعتبر نشرها ماساً بشخص المرسل أو المرسل إليه».

إنني، بهذا الكتاب، اشكر الله تعالى الذي اعانني على إنجازه، كما أشكر كل من ساهم في إخراجه إلى النور، مع التحية.

المتوكل طه

رام الله ١٩٩٨

****

قصـــائـــد وتعليقات

من آثار الشاعر إبراهيم طوقان وجدتها بخط يده
في منزل شقيقته فدوى بين أوراقه وأشيائه وصوره

قصيدة بلا عنوان

انتَ يا استاذُ ادهشتَ الأناما
انت يا استاذ طوّقتَ الحَماما
إيهِ نهرَ الكلب يا برْد الحشا
إيه نهر الكلب يا نهر اليتامى
وقفةُ عندكَ تشفي كبدي
وقفة عندك تشفي المستهاما
لستُ انساكَ خطيباً قاصفاً
فتذكّر إن للذكرى مقاما
يا لذكراكَ وما ابردَها
نزلتْ في القلب برداً وسلاما
حفلةُ بالشكر زانوها وقد
جعلوا من «جنة العِلْمِ» ختاما
انت قد علّمْتَني عشرين عاما
انت قد فرّحتَ لي بابا وماما
قعدوا لمّا الأغاني قعدتْ
ثمّ قاموا عندما الاستاذ قاما
ومشَوْا ثمّ اتَوْا وانصرفوا
عندما الساعة قد دقّت تماما
ركبوا التكسياتِ لمّا علموا
انهم لن يجدوا ثَمّ تراما

كـيـف لـم يُعطِ بطاقـات لنا
عَـمّيَ الأسـتـاذُ عنا أم تَعَـامى

سـامحَ اللـهُ ذوي العلم الأُلـى
مـلأوا القـاعـةَ لغـواً وكـلامـا

قـد تسلّقنا على شـبّـاكـهـا
فـرأينا أكـثـرَ الناسِ نيـامـا

وشـربنا (لِمُنادا) نفْـحُـهـا
زَهَرُ الليـمـونِ أو نفْحُ الخُـزامى

وهربنـا بـعـدمـا طاردنا
نفـرُ البـوليسِ خلفـاً وأمـامـا

واحـدٌ غـاب فلمـا سُـئلوا
عنه قـالوا: إنّه مـات غـرامـا

والـذي مـات أتتْ أقـوالـه
فـرَوَوها مـثلمـا جـاءت تمامـا

نسـمـةَ النيلِ سـلامـاً عـاطراً
من تُهـيـر الكلبِ نثـراً ونظامـا

ملاحظة للمؤلف : في البيت العاشر كلمة (لمّا) مكتوبة في ورقة إبراهيم طوقان الأصلية (لمّ).

****

مسودة مشروع قصيدة غزلية، لم نستطع استخلاص غير هذه الأبيات منها، وهي بدون عنوان:

إنّ التي عانقتُها

اخذتْ عن الروض الشمائلْ

الِفتْ منادمةَ الغديـ

ـرِ، وحاورتْ ظلّ الخمائِل

وتعلمتْ من طيرها

لحنَ العنادلِ والبلابل

تاللهِ لم تترك غرا

ئبُ حُسنها قولاً لقائل

****

وثمة مشروع قصيدة، بعض الأبيات مكرر، وبعضه الآخر مشطوب، نستخلص منها الأبيات الواضحة التالية (القصيدة تبدو هزلية وهي بدون عنوان):

مرحباً بالرئيس بعد الغيابِ
مرحباً بالرئيس شيخِ الشبابِ
منشئِ التفتزان ذي المجد والشا
نِ مليكِ الزمان والأحقاب
صاحبِ التاج ، ضارب الخصم بالكُرْ
باجِ، مثلَ النعاجِ يوم الضراب
ومبيدِ الألوف لا بسيوفٍ
بل كفوفٍ ترنّ فوق الرقاب
قد دعاه الأعداءُ راسمُ أفندي
ذاك شانُ المعاندِ الكذّاب
لُعِنوا، إنه لَبِيكٌ وباشا
الكريمُ الأحساب والأنساب
وَهْو خالي وتاجُ راسي وروحي
وحبيبي ونعمتي وعذابي
انا محسوبه ومحسوبُ محسو
بِ رئيسي هذا ليوم الحساب
ذاب شوقاً إليه لُبّي وقلبي
ويحَ لُبّي وويحَ قلبي المذاب
إنَّ ما بي يكاد يُزهق روحي
وقليلٌ واللهِ نحوكَ ما بي
كلُّ خصمٍ بغى عليكَ فكسِّرْ
راسَه بالكلوش والقِبقاب

****

نشيد الربيع

نظم إبراهيم عبدالفتاح طوقان.

قد بدا الربيعْ

وصفا الزمانْ

هيّا يا إخوانْ

نجمعُ الأزهارَ والأثمارَ في الوِدْيانْ

طابتِ النفوسْ

عَمّتِ الأفراحْ

زالتِ الأتراحْ

كلُّ طيرٍ فوق غصنٍ - يَنشُدُ الألحانْ

كلُّ لحنٍ بعدَ لحنٍ - يبعثُ الأشجانْ

فلتُغنِّ أعذبَ الألحانْ

بهجةُ القلوبْ

بلبلٌ شادِ

هامَ بالوادي

ذو حنينٍ - كغريبٍ - حنَّ للأوطانْ

والأغاني - كالأماني - تُؤنس الولهانْ

يا له من بلبلٍ حيرانْ

وذلكَ الغديرُ

ماؤهُ صافي (صافٍ)

ورِدُهُ شافي (شافٍ)

من أتاهْ – يا هناهْ – ردّه نَشْوانْ
طافَ يجري ، بينَ زَهْرِ ناعِسِ الأجْفانْ
وَتَدلّت فوقَه الأغْصانْ

هَيا يا إخوانْ
إنه الربيعْ
بهجةُ الجميعْ
فاض نوراً وسروراً، فاتنَ الألوانْ
قُم لصفوٍ ، فُزْ بلهوٍ ، واطرحِ الأحزانْ
ولْنُحيِّ سيّدَ الأزمانْ.

****

توكيد الذكرى

هذه نفــحـــةُ (البــحــيـــرة) هبّتْ
سَــحَــراً ام هناك نفــثــةُ ســاحــرْ
تلك ذكـــرى ســـويعـــةٍ شـــملَتْني
فـــارتني شـــمـــائلَ الشـــيخ طاهر
قـــد حـــبـــاني بمدحِـــهِ وَهْو اهلٌ
أن يُغنّي بمدحِـــهِ كلُّ شـــاعـــر
لـيَ طَوْقـــــانِ منكَ رحتُ أباهي
بهـــمـــا الدهرَ ســـيـــدي وأفـــاخـــر
حـــول عنقي من جـــوهر الشكرِ طوقٌ
ولـقـلـبـي طـوقٌ مـن الـودّ آســـــر

القدس

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

١٩٤٠/٨/٢٠

****

«أكل الهوى»

ذهب الشاعر إبراهيم طوقان لزيارة صديقه أبي سلمى في المدرسة «البكرية»!!!
فدخل الصف في الوقت الذي كان أبو سلمى يملي على أحد التلاميذ البيت الآتي:

يا خـافـقـاً لو كـان يشـعـر خِلتُـهُ

قلبـاً يميل به الـهـوى فـيـمـيلُ

فكتب التلميذ الهوى بالألف الممدودة بدلاً من الف مقصورة، فطلب الأستاذ من تلميذ آخر أن يصلح الغلط فأصلحه ، فقال إبراهيم طوقان:

من العجيب أن يعرف التلميذ في عمره هذا أكل الهوى.

****

عن طالبة مصرية كانت معه في الجامعة الاميركية في بيروت:

يا مَنْ راها في العروسَة(*)
مثلَ الصنوبرِ في الهريسَةْ
سفرتْ فكانت سُفْرةً
تحوي الأُكَيْلاتِ النفيسه
من اجلها رخص المدا
مُ، فاهرقَ السوّاسُ سُوسه
فطعامُها وشرابها
فولٌ وبفتاك وكوسه
وكانها لما بدتْ
شمعٌ تلألأ في الكنيسه
نظّارتان ومُقلتا
نِ، كدرجهار عليه دوسه
ولها فمٌ مُستقبَحٌ
ما ينبغي لك انْ تبوسه
هي ساعةٌ رقّاصةٌ
دقّتْ مدى سنةٍ كبيسه
هي في المواطن جِثّةٌ
تُنسي حميدَ الدين طوسه
هي فتنة يعني إذا
طلعتْ نَسِيْ الراجلْ دروسَه
هي غادة عربيّةٌ
إزّايْ صارتْ لي جَسوسه
قامت كده واتتْ كِدهْ
ومشتْ كده زيَّ العروسه
قد ألّفتْ بالفلفسا
تِ فمرحباً بالفيلفوسه

(*) العروسة: مجلة مصرية.

عـــــاشــــرتُـهـــا سنتـين مــــا
الفـــيـــثُـــهـــا إلا عَـــبــوســـه
فَلَوَ انـهـــــا نـفـــــخـتْ علـى
لـبنـانَ كـــادت أن تميـــســـه
وإذا اتُـمـــبـــيلٌ مــــشـى
خـــفنـا عليـــه ان تـدوســـه
فـــحـــذارِ منهـــا يا شُـــفِــيـ
ـرُ إذا مـــشتْ بطريق شـــوســه
يـا ويـحَـــهـــا ســـرّاقـــةً
ســـرقتْ من المفـــتي عطوســه
نسـي البـــبـــرجي عنـدهـا
ســـروالَ صنعـــتــه وكِـــيْـسَــه
يـا لـلخـــــلاعـــــة والشـنـا
عـــةِ والخـــديعـــة والدســيــســه
وتـبـصّ تـلـقـى زوجَــــهـــا
قـــد خلُصتْ منه فلوســـه
وتـــبـــصّ تــلـــقـــى بَـــهْـــنَـــسـيْ
قـــد قلُعت منـه ضُـــروســـه
وتـبـصّ تـلـقـى الـسي «بـشـــا
يَ» ، غـــدا بمخلبـــهـــا فـــريســه
وتبصّ تلقى جـــســـمَـــهـــا
يعـني كـــده جِـــثّـــةُ جَـــمـــوســـه
وتـخـــاف بطشَ الأنبـــيـــا
ءِ ، ســـوى كليمِ اللهِ مـــوسى

****

قصيدة بلا عنوان

قُم للجهاد ونبّهْ راقدَ الهممِ
وسيِّرِ الجيش تُرهِبْ عصبةَ الأممِ
اعصبةٌ تتولّى الامرَ في زمنٍ
اصبحتَ فيه رئيسَ العُرْبِ والعجم
اللهُ اكبر هذا لا يطاق ولا
يرضاه إلا مليكٌ غيرُ محترم
وانتَ اعلى مقاماً انْ تنام على
ضيمٍ وحولكَ هذا الشعبُ لم ينم
عجبتُ من عصبةٍ قامت وما طلبتْ
إذناً، ولو شئتَ لم توجد ولَم تَقُم
تَدبِّرِ الحكمَ لا تخشَ عواقبَهُ
بدون راي الرئيسِ الفرد والحكم
التفتزانيّةُ الغرّاء غاضبةٌ
حقوقُها بين مغصوبٍ ومهتضم
قامت فذلّلتِ التيجانَ قاطبةً
وصَيّرتْ دولَ الدنيا من الخدم
مستعمراتٌ لها في الكون عامرةٌ
فازت بها عنوةً بالسيف والقلم
نبتونُ والمشتري في كفّها كرةٌ
وهذه الارض والمرّيخ كاللُّقم

فكيف نُغضي ونرضى عن إهانتها
فلْنعلنِ الحربَ شعواءً وننتقم
لا يسلم المُلْكُ في ايدي العدوّ إذا
لم نغمدِ المرهفاتِ البيضَ في القمم
ولا يدوم لنا مُلْكٌ نعزّه
ما لم نُخضّبْ ديارَ المعْتدي بدم
فسارِعوا لجهادٍ او يحلّ بنا
ما حَلّ بالمُلْك من عادٍ ومن إرم

☆☆☆☆

اميرةُ الحجِّ ما احلى ملابسَها
بَراّقةٌ تُشْغل العينين في الظُلَم
الوانُها فتحتْ غصْباً منافسَنا
وانعشَتْ كلّ ذي همٍّ وذي سقم
فلستَ تنظر في اثناء طلعتها
إلا عيوناً تجاريها بلا سأم
انظرْ تجدْ كم محبٍّ في الطريق وكم
شخصٍ على الباب والطاقات مُزدحِمِ
تمرّ مثلَ غزالِ الرمل نافرةً
وجهٌ عبوس وثغر غيرُ مبتسم
للعين منها نعيمٌ غيرُ منقطعٍ
وللفؤاد جحيمٌ جِدُّ مضطرم
لا سيّما شَعرُها لما ترفّعه
بمشطها او باطرافٍ من الضمم
وتلفت الجيدَ دفعاً كي ترفّعَه
فيخفق القلبُ مذعوراً من الالم

☆☆☆☆

مـــــولايَ لا زلتَ في عــــزّ ومكرمـــــةٍ

مـــاذا يقـــولون عن شـــعبٍ بلا علمِ

والامـــرُ امـــركَ لكنْ جـئـتُ مـقـتـرحـــاً

فـاسـمـعْ وسـمـعُكَ قـولي أكـبـرُ النعم

اجـــعلْ لنا عَلَمـــاً يحكي مـــلابسَـــهـــا

واجــــعلْه ذا طرفٍ كــــالسنّ مُنثلم

****

ثقلاء الثقلين
صقعاء الخافقين

باسم آل الخياط ابدا شكوا
يَ وذكرى جمعيّةِ الشبّانِ
باسم عكّاءَ، باسم صورٍ وصيدا
وضهورِ الشويرِ من لبنان
وإذا ما وزنتَهم، خلّفتُهم
صَنفَدُ شائلين في الميزان
أوَ ليس البرادعيُّ فتاها
ذاك من فضلها على البلدان
أوَ ما انجبتْ سميرَ بن شمّا
لتُباري به ذُرى كنعان
و«نصوحاً»، ومن درى من نصوحٌ
لا تسلني واصحبْه بضعَ ثوان
وفتًى ينتمي إلى النحو كالنَّحْـ
ـوِ بغيضٌ لمعشر الصبيان
والذين ادّعَوْا اميّةَ والعَبْـ
ـباسَ فيها وسائر الإخوان
واحدٌ مُبْرَمٌ فكيف بجمعٍ
بل تأمّلْ إذا التقى الجمعان

✡✡✡✡

باسم «خُرْشيدَ» والجليدِ المقفّى
منذ قحطانِه إلى عدنان
كلُّ بيتٍ من شعره بيتُ ماءٍ
لم يُعزَلْ مَجراه منذ زمان
وعزيزٌ عليَّ الا ارى البيـ
ـكَ «نعيماً» في زمرة الاقران
وابا رزقٍ الخضراءَ المصفّى
فَهْو لا ريبَ ذو مقامٍ وشان
وتذكّرْ بان آلَ كمالٍ
نقباءُ في كل حالٍ وآن
والحسيبُ النسيب فيهم جميعاً
«اكرمٌ» وَهْو سيّد العرسان
يومَ قالوا زُفَّتْ إليه ثُريّا
قلتُ أرِّخْ تَناكحَ الفرقدان
لا تطيق النفوسُ من جمعَ الدّا
عَيْنِ داعَيْ غلاظةٍ وامّحان
إن في القدس اغلظَ الناسِ طراً!!!

ملاحظة للمؤلف : القصيدة غير كاملة كما وردت من المصدر.

****

بلا عنوان

يا ضفافَ القويقِ في الشهباءِ
حدّثينا بطيّب الأنباءِ
ذكّرينا باحمدِ المتنبّي
ذكّرينا بسيّد الشعراء
ذكّرينا بآل حمدانَ بالفَضْـ
ـلِ، باهل الندى، باهل الوفاء
بالملوك الكرام بالأنجم الزُّهْـ
ـرِ على الأرض بالشموس الوضاء
كلُّ مدحٍ لولاهُمُ لم اجده
وُصِلتْ ميمُه بدالٍ وحاء
يا لذكرى العُلى وذكرى المآتي
تتراءى على ضفاف الماء
طاطئِ الراسَ باحترامٍ وطالعْ
صفحاتِ التاريخ عند المساء
وكان القويقَ منها بخيعٌ
يا لتلك المناظرِ الحمراء
ايها القومُ خلِّدوا خيرَ ذكرى
لأبي الطيّب العظيم الإباء
خلّدوه بالشعر والنثر والنَّحْـ
ـتِ ولوح التصوير بل بالغناء
خَلدوه في مصرَ والشامِ وبَيْـ
ـروتَ وارضِ الحجازِ والزوراء

وفلسطينَ والجزائرِ ايضاً
ثم في تونسٍ وفي صنعاء
وكأني به قد احتجَّ غيظاً
حين سَمُّوْا به دروبَ البغاء
الفُ عامٍ مرّتْ على المتنبي
كان فيها الشعرُ رمزَ البقاء

✡✡✡✡

الفُ عامٍ ولا ارى الفَ عامٍ
غيرَ يومٍ في العالم اللانهائي
الفُ عامٍ ولم يزل شعركَ السا
ئِرُ فينا للعقل خيرَ غذاء

****

ملاحظة: محاولة شعرية لإبراهيم طوقان وبدون عنوان:

مُـــــرْ عـلـى مُـــــسلِمٍ وسَلِّمِ

وقـل لــه عـــــــــلامَ لـم تَـكـلَّـمِ

وقل لـه اصـــبـــحتَ يا مـــعلّمي

تلمـــيـــذَ صـــوّافِ الخليلِ المكرم

يُقـــدِّرُ الإنـســـانُ بـالـتــــقــــدّمِ

لا بـالـنـزول عـن اعــــــالـي الـسُلَّـم

لا تَـعـبـسنْ في الفـحص بل تَـبـسَّم

من كـان عـبّـاســاً فـذاك اعـجـمي

وانـظرْ إلـى الأشــــيــــاء باردَ الدمِ

مـــثلَ ابـي ســعـــيـــدِ المُعظَّم

وانـظرْ ابـي[1] الـرضـى المفـــخَّمِ

يدفـع خـــيـــرَ المال لـلمـــقـــدّم

شـــــاردةً مـن الـكـلام المبــــهَـم

فـــعشْ منيــعـــاً في عـــلاكَ واسْلم

مـــشـــقلح، ممقـــرع، مـــبــرطمِ

شنشنةٌ نـعـــرفـــهـــا من اخـــزم

****

(١) هكذا وردت في الأصل .

كلام، كلام، كلام!!

ما أكثره مكتوباً، وما أكثره مطبوعاً!!

الكلام هو عملة الأدب المتداول تهبط قيمتها بتضخمها، وقد هبطت قيمة المارك والروبل بعد الحرب لكثرة ما أخرجت مطابع ألمانيا وروسيا منهما.

وقبل أن تعمل المطبعة على تضخّم عملة الأدب كان للأدب شيء أشبه بالتداول على قاعدة الذهب.

لقد أضاع الكتاب فن الإيجاز القديم وأصبحوا يخشونه، وبسبب هذا التضخم في عملة المطبوعات لم يعد في إمكان كاتب - مهما عظم شأنه - أن يؤثر اليوم على قارئه تأثير من تقدموه بمئة وخمسين سنة.

النابغون الحقيقيون، إلى هؤلاء الذين يجب أن يتكلموا هم وحدهم يستقبلون العمل الشاق ويحيون، سيضطر هؤلاء إلى حذف الفضول، سوف لا نرى تلك الروايات اللامتناهية فيخبرنا الكاتب عن أثاث الغرفة وملابس أهل المنزل ومظاهرهم الخارجية وكيف قضوا أيام دراستهم وفتوتهم، وما هي حوادثهم الغرامية وكيف بذلوا فيها آخر قطرة من عواطفهم.

قل : من يتحمل منا تلك الدقائق التي يوردونها عن بعض «المردة» أمثال نابليون، وهل هي إلا تلال من الألفاظ تتراكم حول شخصية خيالية عادية؟ وماذا وراء هذه الكتب اللهم إلا أن نعثر فيها أحياناً على فكرة قد نأتي نحن بمثلها.

هيهات أن يكون في قولي ما يُرجع التداول الأدبي إلى مجراه، ولكن سيأتي ذلك عفواً بحكم الضرورة، إن الغابات التي يُصنع الورق من أخشابها لا تزال تُحتطب بسرعة ولا يمضي مئة سنة حتى يصبح الورق قيماً فلا يُستخدم إلا لحفظ الأفكار القيّمة.

بودي لو أعيش إلى المستقبل الذي تنبأتُ عنه لعلّي أضع مقالي هذا في جملةٍ واحدة.

****

صفحة نثر بدون عنوان

كان الشاعر العباسي محمد بن مناذر إذا سُئل: «أي الشعراء أحب إليك؟» يقول: «أحبهم إليّ الشاعر الذي أنا فيه!» ولا أزال منذ اطلعتُ على قول ابن مناذر أجد حقيقته راهنة وصدقه ماثلاً ، ولعلّ في بيان ذلك جواباً على سؤال مجلة الحديث الغراء: «أي شاعر استهوتك دراسة شعره وحياته أكثر من غيره ؟ ولماذا»؟ فأقول:

اتفق لي في أيام الدراسة – عصر الصبا الذهبي – أن عثرت على ديوان الشاعر العباسي ابن الأحنف صاحب «فوز» ، فوجدت ديوانه بالنسبة لما كنت أقاسيه يومئذٍ..! أشبه بسجل الجلسات القانونية قد نُظمت فيه وقائع الهوى شعراً رقيقاً ساحراً، تفيض به عاطفة لم يعرف الرياء إليها سبيلاً.

وخُيل إليّ أن الشاعر إنما توكّل بمكنون امري وأقام على أمانة سرّي.... وكأنما أفضى إلى قلبي فما خفي عليه منه شيء، وأخذتْ قصائده ومقطّعاته تعكسُ صوراً هنّ طبق الأصل عما كنت فيه يومئذٍ من لواعج الوجد وما أكابده من تباريح الهوى، ذلك هو معنى جواب ابن مناذر وحقيقته، وهكذا استهوتني دراسة شعر ابن الأحنف وفتنتني سيرة حياته التي وقفها على الوفاء لحبيبته «فوز»، وكان وفاؤه هذا والبقاء طول حياته على حب واحد من أصعب ما يلاقيه الشاب في بغداد الفاتنة بجواريها وغلمانها ، الماجنة بشعرائها: كأبي نواس، والحسين الخليع ، ومطيع بن إياس ، وغيرهم، وكلهم معاصر لابن الأحنف، فتمكّنتُ من الحصول على طبعتين فوتوغرافيتين لنسختين مختلفتين من ديوانه محفوظتين في إستامبول، ولا أزال أرجو أن يكون لدي متسع من الوقت أتقدم فيه بالخدمة

لهذا الشاعر البارع في تصوير خوالج النفس الهائمة، القادر على تسجيل خفقات القلب الواله بأجلى المعاني وأكرم المباني، ولعمري ليس هيّناً على المرء أن ينظر في زوايا نفسه، فيصور ما اشتملت عليه، وليس سهلاً أن يصغي إلى قلبه فيترجم عما فيه، وحقيق بمن يقدر على ذلك أن يكون شاعراً عبقرياً، يستحق التفرغ لدراسته والعمل على بعثه وإشهار ذكره.

وبعد ، عفا الله عن الأستاذ صاحب مجلة الحديث ما كان أنكاه بسؤاله للجروح!!.

وأستغفر الله لي وله وللعباس بن الأحنف.

****

٦ مارس ، سنة ١٩٣٦

اخانا احمد واختنا فدوى:

امس يا سيد ويا سيدة وصلت راجعاً من القاهرة بعد إقامة ١٤ يوماً، وها أنا اليوم في نابلس أُعيّد على أهل الدار وكلهم مبسوطون، وكلّهم كالعادة أول ما يتحدثوا للراجع من السفر يتحدثون عن اللي ماتوا، فأول الاخبار كانت أن (شَنْصَفا) ماتت وأظن أنها ماتت من بشاعة اسمها ، عليها رحمة الله، أقول لفدوى إنني في مصر تعرفت على سهير القلماوي وأبلا زوزو وكلتاهما من فضيلات السيدات الراقيات علماً وأدباً وأخلاقاً.

مصر في هذه الأيام جميلة جداً طقساً ومعرضاً وعيداً.

فلم «وداد»الذي بطلته أم كلثوم هو بشهادة كل من رآه أحسن من «الوردة البيضاء» لعبدالوهاب....

(إلى هنا انقطعت الرسالة).

****

أبيات لإبراهيم كتبها على ظهر صورة فوتوغرافية له، وبجانبه صديقه «إبراهيم مطر» وكانا زميلين في مدرسة المطران في القدس ومع الأبيات هذه المقدمة:

«نظم هذه الأبيات قلب مملوء بالإخلاص والمحبة الطاهرة»:

لعمركَ إنْ جار الزمانُ وفرّقا
وهذا زمانٌ غدرُه ليس يُتّقى
فيا رسمُ كن ضدَّ الزمان وغدرِهِ
بضمّك جسمَيْنا فإنَّ لكَ البقا
كلانا صديقٌ والفؤادان واحدٌ
ولو كان دَيْنٌ عن اخيه تَفرّقا
وأُدعى كما يُدعى، واشقى شقاءه
ويشقى شقائي إنْ المّ بيَ الشُّقا
ستجمعنا هذي الوريقةُ إن قضتْ
علينا النوى في الأرض ان نتفرّقا

إبراهيم طوقان

١٩٢٣م

****

ملاحظة: وجدت هذه الوريقات مع بعضها البعض بخط إبراهيم:

«رأي في أدباء ذلك العصر»

أدباء ذلك العصر طائفتان، طائفة أقبلت على الكتب العلمية والفلسفية فكان لهذه الكتب أثر وأي أثر في أشعارهم، وهم إلى الجد والنظر في بواطن الأمور أمْيَل منهم إلى أي شيء آخر.

أما الطائفة الثانية فهي زمرة من هؤلاء الذي وصلت إليهم أخبار العهد العباسي الأول ومجالس شعرائه وعبثهم فتناقلوها وتحدثوا بها ، وأحيوا تلك المجالس فشربوا الخمر وانقطعوا إلى الغناء والندمان والغلمان والجواري، وتمموا ذلك بتدوين إحساساتهم في قصائد كما كان يفعل أبو نواس ورهطه، وأرسلوا الدعوات الشعرية إلى أصدقائهم وأغروهم بالإقبال بوصف غرف اللهو ومن فيها وما فيها.

علاقة الشاعر بزملائه :

كان الشاعر كما يظهر محسوداً، فقد هجا كثيراً من زملائه وشكا أمره منهم إلى رؤسائه.

أما الذين نالهم منه الأذى فاثنان كانا أخوين هما:

أبو بكر وأبو عثمان الخالديان.

نماذج من شعره في هجائهما وهجاء غيرهما، وشكواه على الشعراء

بينه وبين المتنبي :

حاول صاحب اليتيمة أن يقارن بين الشاعر وبين المتنبي، فعمد إلى أبيات للسريّ ذكرها تحت عنوان (سرقاته من الشعراء) وجعل يقول تحت كل بيت: «وهذا مأخوذ من فلان ، وهذا مأخوذ من فلان» وعندي أن هذه الطريقة في المقارنة غير مضمونة، لأن

الاتفاق في الموضوع الواحد لا يبعد أن يؤدي إلى استخراج معنىً واحد، فمعاني الجود التي يطرقها الشاعر وما إليها من التشابيه والاستعارات والكنايات، كل ذلك قد أصبح كالأرض المشاع يرسل فيها كل راعٍ أنعامه دون أن يدّعي أقل حق في ملكية تلك الأرض، ولكن هناك شيئاً واحداً يميز شاعراً عن شاعر هو جمال التركيب وأداء المعنى على أحسن وجه، وخير ما يعمد إليه في المقارنة هو رأي ابن الأثير حين قال.

....

البحتري والرفاء:

قال ابن رشيق في كتاب العمدة :

«وجاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس» وهذه كلمة حق يدل عليها العدد الكبير من الشعراء الذين ظلّلهم المتنبي فأخفاهم ومنهم من كان جليل القدر كالسريّ الرفّاء وأبي فراس والخالديين والببغا والنامي والزاهي، إلا أن المتنبي كان من قوة الشاعرية وبروز الشخصية ما حقق قوله:

أنا الطائر المحكيّ والآخر الصدى ....

والآن أرجو من القارئ الأديب أن يسعني بحلمه وليتأمل ما سأقول:

انتقلْ بالمتنبي شاعريته وشخصيته إلى زمن البحتري ، أتراه يملأ الدنيا ويشغل الناس عن البحتري في جملة من شغل الناس عنهم من الشعراء؟.

****

ملاحظات إبراهيم – رحمه الله – على كتاب الروضتين في أخبار الدولتين:

ما برح المسلمون في كل أدوارهم، حاكمين ومحكومين، علتهم واحدة لم تغيّرها الأيام، ولم تهذب أخلاقهم غِيَر الدهر وعبر الزمان، وهذه العلة هي فقدان الهدف الأسمى، أو المبدأ العام الذي تحيا الأمم بالمحافظة عليه والذود عنه، الإسلام مبدأ وبحفظه حفظهم، ولكنهم كثيراً ما أهملوه في سبيل التافه من الأمور، وشدّما أغفلوه في التوصّل إلى هدف زائل، وفي هذا الكتاب أمثلة عديدة على ذلك، وما عليك إلا أن تقرأ الصفحات التالية لفتح القدس وترى الفتور في العزائم، والتفكك عند العظائم وعدم المبالاة بالخطر الداهم.

وإنك اليوم، والحكم للإفرنج في هذا العصر، لتستفيد من قراءة هذا الكتاب أشياء تدلك على أن القوم هم الآن كما كانوا في سالف الزمان: صليبيون بالأمس وصليبيون اليوم، يخفرون العهد ولا يرعون الذمام، يغدرون عند الأمان وينقضون الميثاق عند الصلح، والمعروف عندهم ضائع والمعونة منسيّة، والمماطلة خلق والطمع سجيّة، كما أن اليد القوية عندهم مرهوبة والشدة عليهم تقودهم إلى الخضوع والإذعان، ولا وطن ولا مروءة ولا حميّة، ناهيك بأمةٍ تفضل الإفرنجي الكافر على المسلم فتخطب وده وتطلب حكمه وتمنحه الامتيازات في بلادها – في ذلك العهد كاليوم – وتُمكّن جنوده من احتلال البلاد (ج١ ص ١٤٣) وناهيك بأمةٍ تقوم بفتنةٍ ضد الحكم الإسلامي في حالة ائتلاف قلوب المسلمين في العالم أجمع واحتشادهم لفتح القدس وخلاصها من الإفرنج، في هذه الفترة يقوم المصريون بفتنة!! فسبحان الله العظيم.

مات نور الدين وصلاح الدين فرجعت الفوضى إلى ما كانت عليه، وتفرقت القلوب، واندفعت المطامع في الصدور، ولا يزال المسلمون يقومون بواحد ويقعدون بموته، ولا يزال مجدهم القومي رهن تمخّض الزمان عن القوي العظيم، وميلاد الحدثان للمنقذ الأمين ، قرّب الله عهده ونصرَ جنده آمين.

إبراهيم

٢٤ آب ، ١٩٣٥م

****

«رسائل» من آثار الشاعر
إبراهيم عبدالفتاح طوقـــان

كل هذه الرسائل وجدتها بين أوراق الشاعرة فدوى طوقان، شقيقة الشاعر وأكدت لي أن هذه الرسائل بخط يد الشاعر، وقد احتفظت بها كما هي.. للتاريخ!

هذه المجموعة تضم رسائل «الشاعر» إلى شقيقته الشاعرة فدوى طوقان مرتبة حسب التسلسل التاريخي - مكان إقامة الشاعر «بيروت» -.

بيروت

١٤ تشرين اول، سنة ١٩٣٠

أختي العزيزة والدرة المكنونة، القايمة من الجونة، القاعدة على أذنيها.

بعد تقبيل وجنتيك الخضراوين، اخذت تحريرك الذي كتبته بمداد الشوق، وقد نزلتُ إلى السوق وسألت عن هذا الحبر لأكتب لك به ايضاً ولكن لم أجده أبداً، فأرجوك إذا كان موجوداً منه عند الحجاوي أن ترسلي إليّ زجاجة وأنا ادفع ثمنها.

يوجد في مكتوبك أغلاط يجب أن تتجنبيها في المكتوب التالي.

١ - (مضى زمناً طويلاً) غلط.

(مضى زمنٌ طويلٌ) صح. لأن الذي (مضى) هو الزمن فهو فاعل، والزمن هذا وَصْفُهُ أنه طويل، والوصف يكون مثل ما قبله في الإعراب.

٢ - (ولكن القريحة لم تجود) غلط.

(ولكن القريحة لم تَجُدْ) صح بدون واو، مثل قولك (ذكرى تلك الأيام لم تُمْحَ)، فحذفت الألف المقصورة وهذا صح، لأن «لم» تجزم الفعل المضارع.

٣ - (احتاج إلى كثير من التفكر لأن احفظه) غلط.

(أحتاج إلى كثير من التفكير «حتى» أحفظه أو لكي احفظَه أو كَيْ احفظَه).

لا يوجد غير هذه الأغلاط وهذا جيّدٌ جداً ، وأنا مسرور كلّ السرور بإنشائِك وأعتقد أنّ في الصف الثاني العلمي شبّاناً يغلطون أكثر منك في أقل من صحيفة.

بَسْ شُوفي مِشْ يكبرْ راسك؟ يجب أن تقرأي في الكتب الطيّبة دائماً، ويجب أن تواظبي على حفظ القرآن الكريم والشعر، وفوق هذا كلّه يجب أن تكتبي نثراً وشعراً حتى تتمرني على الكتابة، وإيّاك أن تهملي القواعد النحوية فهي مهمة.

إذا كان لم يُساعدك أحدٌ في كتابة المكتوب فأنا أهنئك على إنشائك الجميل، اكتبي وأنا دائماً مستعدٌ لأُصلح لك الأغلاط ولكي تدرسي هذا التصليح يجب أن تحفظي نسخة من التحرير الذي ترسلينه لتقابلي فيها الأغلاط، أنا الآن أعطيك موضوعاً لتكتبي عنه وترسليه في التحرير القادم وهو: (ما هي فكاهات نبيهة ونزيهة وحنان في يوم).

هذا هو الموضوع فراقبيهنّ جيداً، واحفظي فكاهاتهنّ ثم رتّبيها للإنشاء، وأرسليها في تحرير.

أهنئكم على الفونغراف، أنا منذ سافرت إلى هذا اليوم لم أسمع شيئاً، قولي: «الله يصبّرك ويدبّرك» ولكن أنا أرقى منكم اليوم، أنا أحضر السينما الناطقة كل يوم سبت، وقد حضرت (موريس شوفاليه) وسمعته يُغنّي أغنية إنكليزية أسطوانتها موجودة عندكم وهي جميلة جداً جداً . عندي مئة وتسعون تلميذاً كلهم صاروا يحبون الشعر كثيراً، مئة وثلاثون منهم يدرسون الشعر القديم كامرئ القيس وعنترة والخنساء، والستون الباقون بينهم خمس بنات يدرسون الشعر العبّاسي ، هؤلاء البنات هنّ: ماري ديب، سلوى خوري، وداد خوري، صبيحة مقدادي، ميليا مالك. وإنشاء الله بعد كم سنة نصير نذكر بينهنّ فدوة طوقان ، قولي «الله كريم».

سألتيني عن أجنَتْ لك الوردَ وأجْنَيْنَك الوردَ، الاثنتان صحيحتان والبيت:

اجنَتْ لك الوردُ اغصانٌ وكثبانُ
فيهنّ نوعان: تفّاحٌ ورمّانُ

معناه: إن النساء الجميلات اللواتي قاماتهن كالأغصان والسمينات اللينات كتلال الرمل جعلنك تجني الوردَ (أي تقطفه) من التفاح (وهو الخدود) ومن الرمان (وهو النهود). المرة القادمة اكتبي لي الأبيات التي لم تفهمي معناها، وإذا كان عندك قصيدة جديدة أرسليها، يلزم لك قاموس وإنشاء الله سأرسل لك واحداً، الآن مشغول ،انتظري حتىّ أتفضّى فأنزل إلى السوق واشتريه، وصيّتي لك: احفظي، اقراي ، تمرّني على الكتابة نثراً وشعراً.

قولي للوالدة إنني مشتاق لها كثيراً، اشكري «نجله» على لساني لأنها تعلمك، قولي لرحمي إنني ساكتب لأحمد عن مسألته، لأنه لا يوجد في بيروت ولا مطبعة يشتغل فيها ناس أوادم، كيف أخبار نمر؟ خبريني عنه.

سلامات: تقبيل أيادي العمّة المحترمة الشيخة «كريمة»، السيدة المحترمة أم داود، الخالة العزيزة أم عبدالله ، أم علي، أم موسى، سعادة الوالدة المحترمة، تقبيل وجنات اديبة، نبيهة، حنان، نزيهة، سلامات إلى آسية، ونجلاء ، وبندر، وفتايا، يخرب بيتكم ما اكثركم ، لا أدري كم واحدة نسيت منكم، وبالختام وفقك الله ودمت لأخيك المشتاق.

إبراهيم

ملاحظة للمؤلف: لا ادري كيف أخطأ شاعرنا في كتابة (إن شاء الله) حيث جاءت في الرسالة بهذا الشكل (إنشاء الله)!؟.

****

٢٦ أكتوبر، ١٩٣٠

بيروت – الجامعة الأميركية

اختي العزيزة المجتهدة النشيطة فدوى دام بقاؤها.

سلام وتحية، وقبلات واشواق، نهار امس اخذت تحريرك الجميل فسررت به جداً ولا سيما عندما أكدتِ لي فيه انك تكتبين بدون مساعدة أحد، وسُررتُ جداً فوق ذلك بنشاطك واجتهادك ومواظبتك على الدروس والحفظ.

منذ ثلاثة أيام وأنا في شغل مستمّر متعب، كنت أصلح دفاتر الإنشاء للتلاميذ وعددها مئة وأربعون دفتراً فتأمّلي ما أكبر هذه الكمية، ثم تفكّري بصعوبة هذا العمل ومشقته عندما يكون اكثر التلاميذ ضعافاً، كانت أعلى علامة ثلاثة وثمانين من مئة، وأقل علامة سبعة وخمسين، أي أن اللذين أخذوا هذه العلامة الأخيرة سقطوا، وسأكتب لك بعض جمل منها لتُصلّحيها انت وترسليها إليّ في التحرير القادم، (الجملة الآتية لفتاةٍ اسمها كُزين نشأت): (ولما ذهب نابليون إلى مصر امر أن لجنة من الإفرنسيون تذهب وترى أرض السويس لأن يجب حفر قناط هناك).

وكتب أحد التلاميذ هذه الجملة: «إن الأخَوان رايْت الإنكليزيان اخترعا أوّل بالون الذي ظهر للعالم، فكان اول تجربة التي جربها الناس في الطيران».

صلّحي هاتين الجملتين وأرسليهما إليّ في التحرير القادم.

في تحريرك هذا غلطات بسيطة وهي أخفّ من غلطات التحرير السابق، فانتبهي لتصليحها الآن:

قلت: ولكن طالما يوجد من يساعدني فأنا بلا شك..... إلخ!

(طالما) لا تدخل على الفعل المضارع بل على الفعل الماضي، فالأضبط أن تقولي: ولكن طالما وجدتُ من يساعدني.. إلخ، وهذه أيضاً غلط من جهة المعنى في المضارع وفي الماضي لأن معناها: «وجدت كثيراً» وباللغة العامية «يالطيف قدّيش وجدت» كأنك تتعجبين

من كثرة الذين وجدتهم، مع أنك تريدين أن تقولي: «مادام يوجد من يساعدني» أو «ما دمتُ قد وجدتُ من يساعدني»، فهل عرفتِ الفرق الآن؟

قلتِ: «هذه هي الأبيات الغير مفهومة» ويجب أن تقولي : «هذه هي الأبيات غير المفهومة» أعني خذي (الْ) من (غير) وضعيها على (مفهومة) فتصبح الجملة صحيحة، وهذه غلطة شائعة كثيراً حتى بين الذين يكتبون في الجرائد والمجلات وبين المعروفين من الكتاب والأدباء.

قلتِ: «سخسخ المعلم من الضحك» لا تستعملي (سخسخ) لأنها عامية وقولي: «وقهقه المعلمُ ضاحكاً وكاد يستلقي ..... إلخ».

قلتِ: «وقالت (أي نبيهة) أريد كرسي» كرسيّاً، لماذا؟ جاوبيني على سؤالي في التحرير القادم.

قلت: «فاشترت لها بندر ما طلبته وثمنه قرشاً»، وثمنُهُ قرشٌ، لماذا؟ تذكري المبتدأ والخبر، التفاح ناضجٌ، حنان جميلةٌ، عمتي دلوعةٌ، ثمنُه قرشٌ.

قلت: «ودقّت عليه مسماراً» و«دقّت فيه مسماراً»، ومثل هذه أيضاً: «هذا كرسيّي وعليه مسماراً وفيه مسمارٌ ، ومثل: «ثمنُه قرشٌ» يجب أن تكون فيه «مسمارٌ» بالرفع.

«أين إبراهيم؟ فتؤشر على غرفتك» فتشيرُ إليّ ....

«بواسطة لبانها الصغير» كيف تشير بلبانها؟ اللّبَان هو الصدر أليس كذلك؟ ولكن الكلمة التي تعني إصبع هي (بنان) ثمّ لا تقولي (بواسطة) بل (ببنانها)، الباء وحدها تكفي.

(فكاهتها ليست لنيذةٌ) (لنيذةً) (ليس) مثل: كان ، ومازال ، وأضحى ، وأمسى، وأصبح ، وبات ، مثلاً: الجوّ معتكرٌ، كان الجو معتكراً، وأمسى معتكراً، وأصبح مُعتكراً....الخ.

وكذلك ليس الجوُ معتكراً، وكذلك قولك: «فليس مفهوم»، يجب أن تكون «مفهوماً»، انتبهي لهذه الأغلاط، وأرجو ألا تعودي لمثلها.

الأبيات الصعبة: «مستظهرات براي.. إلخ»، صعوبة البيت في أسماء الأشخاص، وكل واحد منهم له قصة قديمة مآلها أنّه كان ينصحُ قومه بالآراء الطيبة فلا يسمعون منه فتُصيبهم المصائب، فابن الرومي يقول: إنّ النساء يتمسكنَ براي لا يشبه آراء (قصير عمرو) ولا (عمرو) ولا (وردان)، وبعبارة مختصرة إن آراء النساء غير صائبة.

(صَدّقنَ ما شئنَ.... إلخ) معناه: نقول لهنّ فيصدّقنَ ما نقول، ولكن مع هذه السلطة التي لنا (نحن الرجال) عليهنّ لا نزال تصطادنا (تقنّصنا) عيونهنّ ويصير حبهنّ فينا إدْماناً.

(أنكى وأزكى...) أي أشد نكايةً واشتعالاً من النار في قلوبنا، هؤلاء النساء المخلوقات من ماء للطفهنّ واللواتي ألوانهنّ كالنيران (الخدود والشفاه الحمراء).

(إذا ترقرقنَ)... عندما يتلطّفنَ معنا وتكون وجوههن مشتعلة بالشباب والنضارة لا يستطيع الإنسان إلا أن يبوح بسرّ حبه لهنّ، (ماءٌ ونارٌ) مثل البيت الثاني، أي أن الإنسان يتعذب ويبكي من لطفهنّ واشتعال شبابهنّ، حَرّان معناها (مُشوّب) كثير الحرارة، (نعيم كل نهار) معناه أن الواحدة منهن تشعل عود الطيب في مجامرها لكي تتعطّر فيصعد الدخان فيصير النهار مملوءاً بالغيوم (نعيم من الغيم)، وهي من جمالها تجعل الليل ضحيان أي كالضحى.

(كأنها وَعُثان النّدّ...)، العُثان = الدخان، أي عندما تفعل ما تفعله بالبيت السابق فينعقد فوقها دخان عود الندّ تصبح شمساً فوقها ضبابات (غيوم) وأدجان (ظلمات).

لما قلتُ لك في تحريري السابق عن القصائد الجديدة كنتُ أعني قصائدك التي نظمتها أنت، وأما التمرين على الكتابة نثراً وشعراً، فأعني به أن تلاحظي ما حولك من الأمور التي تحدث أو الأشياء التي تقرأين عنها المجلات والجرائد والكتب فتكتبي عنها ما يخطر في بالك، مثال ذلك: الأشياء التي تلاحظينها: الآن نحن في فصل الخريف، لاحظي كيف كانت الدنيا قبل شهر ثم تغيّرت من السماء الصافية إلى السماء المتلبدة بالغيوم، وبعدما كانت الأشجار خضراء ناضرة، صارت أوراقها تصفرّ وتسقط، هذه

اشياء تحرك العاطفة فافتكري في وصفها بقصيدة أو إنشاء، أما الأشياء التي تقرأينها فكثيرة ومنها ما هو مؤثر فانتبهي إلى التي تتأثرين بها واكتبي عن هذا التأثير شعراً أو نثراً، هل فهمتِ قصدي؟

اكتبي شعراً أو نثراً عن الفتياني مثلاً.

هذا ما لزم وسلامي لكل واحد وواحدة من اللذين(*) سمّيتهم ومن اللواتي سمّيتهنّ في تحريري السابق.

وفي الختام يلعن صفّارك يا صفراء.

اخوك المشتاق

إبراهيم طوقان

(*) ملاحظة للمؤلف : لا ادري لماذا جاءت كلمة (الذين) في رسالة ابراهيم بهذا الشكل (اللذين)؟!.

****

الجامعة الأميركية في بيروت

بيروت – سوريا

٢٥ نيسان ، ١٩٣١

أختي العزيزة والشاعرة الماهرة:

اهديك اشواقي الكثيرة وبعد فإنني أرسلتُ إليك في البريد الجزء الأول من ديوان ابي تمام وهو مشروح شرحاً وافياً ومشكّل تشكيلاً تاماً، واريد منك أن تقراي فيه وتنظري القصائد التي تعجبك (والتي تفهمينها أكثر من سواها) وتحفظينها.

ثم ارجو أن تكوني حفظت مختارات رواية «مجنون ليلى» جيّداً.

اكتبي لي عن أحوالك وأحوال البيت ، وخصوصاً عن نزيهة لأنني رأيتُ منها في فرصتي القصيرة عجائب وغرائب وصارت ينطبق عليها بيت شوقي:

تركتُكِ ليلى فانفجرتِ لياليا

مؤلّفةَ الأشكالِ جِدَّ حِسانِ

وإذا رايتِ احمد مثلاً فقولي لنزيهة: «مين هَدا؟» فتقول: «أمَد» الكلمة الجديدة التي اعجبتني كثيراً منها، هذا ما لزم وقولي للوالدة ترسل إليّ جكيت البدلة الصيفية أحسن ما ادور بالقميص والبنطلون مثل الشفيريّة.

سلامي للجميع فرداً فرداً من نزيهة إلى عمتك كريمة.

إبراهيم طوقان

****

١٢ نوفمبر، ١٩٣٠م

بيروت - الجامعة الأميركية

أختي العزيزة فدوة:

ليست ساعةٌ عندي أجملَ من ساعةٍ اتناول فيها كتابك لأنني أجد فيه أخبار البيت والأطفال فأشعر كأنني بينكم، وكأن نبيهة ونزيهة وحنان قريبات مني الاعبهنّ واقضي معهنّ وقتاً جميلاً أُنشّط فيه عقلي بفكاهاتهنّ الحلوة، وقد تأخرتُ عليك وعلى غيرك في الجواب لأن عندي أشغالاً كان يجب ان افرغ منها، فلمّا انتهت واسترحت أخذت أجاوب على الرسائل واحدة فواحدة.

عندك هذه المرة غلطات قليلة بالنسبة للأوّل وبسيطة أولها: «كم تأثرت عندما قرأت بأن التلاميذ ضعافاً» (غلط) ضعافٌ: صحيح.

الثانية: «ولكنها جرّة قلم لا اعد (غلط) لمثلها» (لا أعود) صحيح.

الثالثة: «انّ أول بالون.... هو من اختراع (الشقيقان) غلط (الإنكليزيان) غلط (الشقيقين الإنكليزيين) صح.

سرني كثيراً إعجابُ الناس بقصيدتك، ولكن يا فدوة اسمعي مني هذه النصحية وهي:

إيّاك أن تظنّي نفسك أنك أصبحت قادرة، افتكري دائماً بالاستفادة والازدياد من العلم، واعلمي ان تقدّمك لا يكون مستمراً إلا إذا قلت عن شغلك: (أستطيع أن أعمل احسن) اما إذا افتكرتِ أن عملك صار كاملاً فإنك تعرّضين نفسك للتقهقر بدلاً من التقدّم، فاحذري.

لا يوجد عندي إلا قصيدة رباب الكاظمي من أشعارك فأرسلي إليّ قصيدة (لقد زادَ في قلبي اشتياقي من البعد). لم اتمكن بعد من شراء القاموس الذي وعدتك به ولكن

يمكنك (إذا كنت في حاجة إلى قاموس) أن تسألي ابن عمك خليل أو داود لأنني أتذكر أنّ (قاموس المنجد) عند أحدهما، فاستقرضيه إلى أن أبعث لك بواحد.

هل حفظت كل قصائد ابن الرومي التي علّمتُ لكِ عليها؟

خبّريني حتى أحضرّ لك قصائد جديدة، وأتأمّل أن تكوني مداومة على قراءة القرآن والحفظ منه.

لماذا لا تجرّبين نظم قصيدة جديدة؟ جرّبي في أي موضوع تريدين.

قلتِ إن غلطاتك الماضية كانت ناشئة عن (غضب شديد لأسباب عائلية) يجب الا تغضبي يا فدوة، طوّلي بالك.

هذا ما لزم ، وسلامي إلى جميع اهل الدار فرداً فرداً، ودمتِ لأخيك المشتاق.

إبراهيم طوقان

****

الجامعة الأميركية في بيروت

بيروت – سوريا

١٩ أيار، عام ١٩٣١

أختي الشاعرة الماهرة فدوى دام بقاؤها:

أشواقي إليك كثيرة، وكنت على وشك أن أجيبك على تحريرك الأوّل وإذا بتحريرك الثاني قد اتى، فسررتُ به جداً وها انا أجاوبك على التحريرين معاً.

سرني جداً أنك حفظتِ ما عليك من رواية «مجنون ليلى»، وسرني أكثر بشارتك بحافظ داود طوقان، جعله الله مولود خير وسعادة لوالديه، وللعائلة جميعاً.

إعرابك للبيت مضبوط، والفاء حرف عطف، لا بأس من إعرابها حرف عطف، على كل حال يجب أن تعلمي أن النحو والإعراب غير ضروريين بعد أن يتعلمها الإنسان، لأنهما واسطة لضبط الجمل، ومتى تعوّد الإنسان على الكتابة يصبح لا يفكر في الفاعل ولا المفعول، بل يكتب الجملة رأساً بلا توقف ولا غلط، ومثال ذلك أن تنظري إلى نفسك وكيف انك لم تتعبي في كتابة مكتوبك اليوم كما كنت تتعبين به قبلاً.

أنا أشعر معك بالملل من حفظ الشعر والقواعد، ولذلك يجب أن تقرأي قليلاً من النثر مع الشعر، أظن أن قدري وابن عمك داود عندهما عددٌ من روايات المنفلوطي، استقرضي هذه الروايات واحدة واحدة واقرأيها فإنها لذيذة جداً ومفيدة، وفي الوقت ذاته احفظي ما يعجبك من الجمل الحلوة في هذه الروايات، ولا تنسي أن تداومي على حفظ شعر أبي تمام.

قصيدة الشيخ كلّها اغلاط من أولها إلى آخرها، قصيدة أبرد من ذقنه ، يخرب بيته ما أثقل دمه.

هل تتذكرين ماذا انتقدنا في القصيدة التي نظمتها في رثاء مولانا محمد علي؟ القافية قلنا: لا يجوز أن تكون قافية مساعد وماجد وحامد (مثلاً) مع مهنّد ومحمد وسعد

لأن الألف قبل الآخر معدودة مع القافية، ارجعي الآن إلى قصيدة الشيخ وانظري أنه وقع في الغلطة وإليك قوافيه:

مطلعه، طلائعه، ترفعه، منابعه، ترضعه، مراتعه، منافعه، طالعه، نجمعه، منزعه، صنائعه.

الكلمات المعلّمة بخطين قافية تختلف عن الكلمات غير المعلّمة، راجعي قصيدة:

لا تعــــذليــــهِ فــــإن العــــذلَ يُولعـــهُ

قــد قلتِ حــقّــاً ولكنْ ليس يســمــعُــهُ

القصيدة كلّها مع «طولها» لا يوجد فيها ولا قافية من نوع (طلائعه) وما أشبه ذلك.

ثم ننتقل إلى أبيات القصيدة:

اهدي امـــيــــرَ العــــلا داودَ تـهنئــــتي

بخـــيــــر نجلٍ بشــــهـــر الحجّ مطلعُــــهُ

كلمة (نجل) هنا لا تصلح، ولو قال (بَدْرٍ) لكان وافق بين بدر وشهر ومطلعه لأن البدر يطلع كل شهر، تعلّمي يا شاطرة هذا السّر في جمال الشّعر، ولاحظي هذه الموافقة في القصائد المشهورة التي تحفظينها، وها أنا أعطيك مثالاً آخر عليه، من الشعر الذي تحفظينه، قال ابن الرومي:

اجنَتْ لكَ الوردَ اغــصـــانٌ وكــثـــبـــانُ

فـــيــــهنّ نوعــــان تفــــاحٌ ورمّــــانُ

تأملي في البيت قليلاً تجديه كله موافق الكلمات:

أجنت: من جنى الثمر والزهر، اغصان: للثمر والزهر، كثبان: الأرض التي ينبت فيها الثمر والزهر، الورد: زهر، التفاح: ثمر، الرمّان: ثمر.

كل كلمة لها موافقة مع الثانية، كلها يتعلق بعضها ببعض، وتأمّلي وحدك في أبيات قصيدة البحتري التي يصف فيها الربيع وخذي منها امثلة لنفسك كما أفهمتك.

بيت الشيخ الثاني:

من آل طوقانَ ساداتِ الزمانِ إلخ....)

هذا البيت لا معنى له أبداً.

والبيت الذي يُضحك هو هذا:

بالجَـدِّ والخـال والأعـمـام طاب كـمـا
في روضـة العلمِ كم تحلو مـراتعُـهُ

جد «واحد» وخال «واحد» وأعمام «جمع» كثيرون.

انتبهي الآن إلى (التلزيق): المولود له عمّان فقط هما: خليل ، وقدري، إذن فالجمع فاسد، ولكن له خمسة أخوال: أحمد، إبراهيم، يوسف، رحمي، نمر، فجعل الاثنين جملة أعمام ، وجعل الخمسة خالاً واحداً، ولو قال بالجدّ والعمّ والأخوال يكون اقرب قليلاً إلى الحقيقة.

ثم ما هي علاقة «روضة العلم»؟ نرجع إلى الموضوع الأوّل: لا يوجد موافقة بين ذكر الأقارب والعلم، كان الأصح أن يذكر مع (الجد والخال والعم) (الأب والأم) ولكن الشيخ طفيليّ على الطبيخ كما انه طفيليّ على الشعر.

الحاصل قصيدة مسقّعة، قولي لبندر تحرقها لئلا يبرد الصبي.

وأخيراً هذه الأعداد التي تسألينني عنها، هذا هو تاريخ السنة التي وُلِدَ فيها حافظ، وهي طريقة مخصوصة في جمع الكلمات خُلِقت للمشايخ والشعراء المفلسين، حروف الهجاء القديمة كانت هكذا:

(ا ب ج د) (هـ و ز) (ح ط ي) (ك ل م ن) (س ع ف ص) (ق ر ش ت) (ث خ ذ) (ض ظ غ).

وكنّا نحفظها بهذه الكلمات؟:

أَبْجَدْ، هَوَزْ، حطّي، كَلَمُن، سَعْفَصْ، قُرِشَتْ، ثَخَذٌ، ضَظَغٌ.

وكل حرف له عدد.

من (١) إلى (١٠):

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي

ثم عشرين ثلاثين ... إلخ

من (٢٠) إلى (١٠٠):

ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق
٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠

ثم مئتين ثلاثمئة ... إلخ

من (٢٠٠) إلى (١٠٠٠)

ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

ماذا فعل الشيخ؟ قعد طول النهار، وسهر طول الليل، وهو يجمع ويحسب بهذه الحروف حتى دبّر الكلمات التي عليها الأعداد، مثلاً ناداك = (ن ا د ا ك) انظري القائمة: (النون = ٥٠. الألف = ١. الدال = ٤. الألف = ١. الكاف = ٢٠.) اجمعي الأعداد الآن = ٧٦، وهو العدد الذي تحت ناداك، وهكذا في كل كلمة، ثم جمع كلّ الأعداد فطلعت بعد الجمع ١٣٤٩ وهي السنة الهجرية التي وُلِدَ فيها حافظ، هل فهمت معنى الأعداد الآن؟ إذا لم تفهميها لا تتعبي نفسك بها لأنها سقاعات، وكلام بسرّك، حساب الشيخ (مش مظبوط) لأنه ترك بعض الحروف بلا حساب.

كنتُ أحب أن أرى نزيهة وحنان مُحصّبتين، وخصوصاً ززوهة لأنها لا تستطيع أن تقعد بلا حركة، أخبار ززوهة التي في مكتوبك الأول كلها حلوة، قبّليها واسأليها عني.

سلامات إلى كلّ من افراد العائلة:

قَبّلي عني أيدي العمة، وأم داود والوالدة، والخالة، وسلّمي على يوسف ورحمي وقدري وفتايا وأم حافظ وأسية ونجلة وأديبة.

وقبلي عني حنان ونبيهة ونزيهة.

وقبلة من حافظ، وقولي لبندر: الحمد لله اللي قمت سالمة، بَسْ راحت علينا الكراوية.

اخوك

إبراهيم طوقان

****

١٦ شباط، ١٩٣٢م

بيروت - الجامعة الأميركية

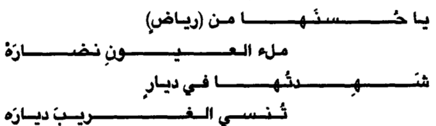
اختي العزيزة الشاعرة فدوى:

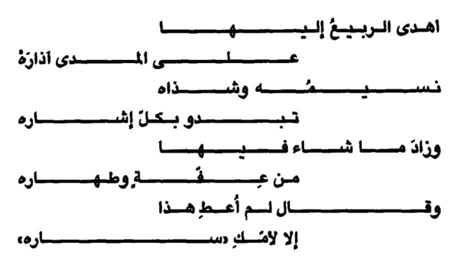
أُقبّل وجنتيك الصفراوين وبعد فإنني اعتذر إليك اولاً عن تأخري كل هذه المدة عن مكاتبتك، وليس هذا قصوراً مني ولكن اشغالي في هذه السنة اكثر من أشغال السنة الماضية، ويكفيني عذراً انني لم انظم في هذه السنة شيئاً يذكر اللهم إلا بعض أبيات استحي أن أنشرها.

وأما أنت فعندك الكتب وعندك الوقت الواسع فتستطيعين أن تراجعي وتدرسي وتنظمي، وليس لكِ اي عذر إذا قصرتِ في ذلك، كان الوالد عندي واليوم سافر وأخبرني أن صحتك جيدة، وأخبرني أيضاً أن عدداً من كتب الروائع (٢٤) قد ضاع، وها انا أبعث لك به مع العدد الجديد (٣٠) فاقرايهما وافهميهما جيداً واحفظي ما تحبينه نثراً او شعراً.

خبّرني الوالد ايضاً انك نظمتِ ابياتاً للآنسة المرضة «فرجيني» أخت «فاني خميس» فلماذا لم ترسليها إليّ، يجب أن ترسليها مهما كانت حتّى أقرأها وانبسط بتقدّمك.

يوجد بنت صغيرة اسمها رياض الخطيب عمرها عشر سنوات، وهي بنت أخت سعاد الخطيب التي نظمتُ لها السنة الماضية قصيدة (هواك جبّار على القلب جار..)، وهي بنت جميلة جداً ذكية خفيفة الروح لدرجة لا توصف، وامها اسمها سارة اجمل منها وأذكى واخف روحاً، وتعرّفت على هذه العائلة في جبل لبنان هذا الصيف ولما نزلوا إلى بيروت صرت أزورهم انا ووجيه وامرأة وجيه (وهم سفوريون)، وقالت لي هذه البنت الصغيرة ذات ليلة أنت شاعر بالكذب، فضحكت وقلت لها متى اصير شاعر بالصدق، فقالت متى نظمت لي قصيدة، فقلت لها الحق معك يا عفريتة ثم نظمت لها أبياتاً فكادت تطير من الفرح، وهي:


يا حُسنَها من (رياض)
ملء العيونِ نضارَهْ
شَهِدتُها في ديارٍ
تُنسي الغريبَ ديارَه

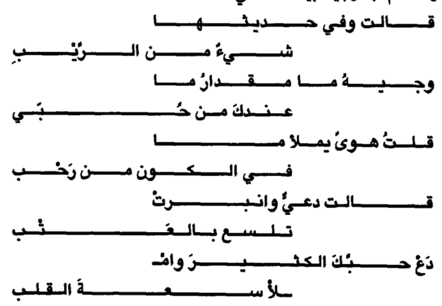


اهدى الربيعُ إليها
على المدى أذارَهْ
نسيمَهُ وشذاه
تبدو بكلّ إشاره
وزادَ ما شاء فيها
من عِفّةٍ وطهاره
وقال لم أعطِ هذا
إلا لأمّكِ «ساره»

هذه هي رياض أعطاها الربيع كل شيء ثم قال لها ما أعطيت هذه الأشياء قبلك إلا لأمك، وهذه تذكرني بحكاية عمتك وسيلة (إنْ كان هذا خدكا، اشْ حال خدّ امكا، إن كان هذي عينكا ، إشْ حال عين أمكا).

وهذه القصيدة أريد منك أن تنظمي قصيدة على شكلها لرياض وترسليها إليّ لأنني قلت لهم عنك وقرأت لهم قصائدك فتعجبوا واندهشوا وقالوا ما شاء الله هذه ستكون شاعرة كبيرة، وسارة تفهم بالشعر جيّداً وتقدره، وهي خطيبة معروفة في اجتماعات بيروت النسائية، فلا تنسي يا فدوى ولا تهملي، انظمي القصيدة على خاطرك.

زوجة وجيه البارودي عمرها (١٧) سنة وهي على بساطتها خفيفة الروح تفقّع من الضحك ، وقد نظم لها وجيه أبياتاً هذه هي:



قالت وفي حديثها
شيءٌ من الرِّيَبِ
وجيهُ ما مقدارُ ما
عندكَ من حُبّي
قلتُ هوىً يملأ ما
في الكون من رَحْبِ
قالت دعيٌّ وانبرتْ
تلسع بالعَتْبِ
دَعْ حبّكَ الكثيرَ وامْـ
ـلأ سعةَ القلب

فـــــــإن مـــــــــلاتـه فـــــــذَ
لِكَ الـهــــــوى حـــــــسْـــــبي

واسم امرأة وجيه (مسرّة)، وقد وضعتُ لكِ صورتها في هذا التحرير لعلها تعجبك فتنظمي لها قصيدة أيضاً ، وعندئذٍ يشكرك وجيه بقصيدة، يَلّه يا شاطرة.

أريد أن تجاوبيني على تحريري وتخبريني الأخبار عن البعلة نبيهة وقمر الدار نزيهة وعن حافظ، وقولي لبندر لا تزعل مني لأن غايتي مع الحلوة نزيهة دائماً.

طلع لأم كلثوم اسطوانة جديدة (ياما أمرّ الفراق) فهل اشتريتموها ، ولعبد الوهاب أيضاً «ردت الروح على المضنى معك» و«ليلة الوداع طال السهر» و«بلبل حيران»، وكلها مدهشة، قولي لأم حسين إنني مشتاق لها كثيراً وإنني زعلان من أحمد لأنه لم يأخذها لتسمع أم كلثوم، ولكن أحمد لا يعتب عليه لأنه لا يفهم في الغناء شيئاً.

طلعت الرواية الثالثة لشوقي واسمها (قمبيز) وسأرسلها إليك في المكتوب الثاني وهي رواية جميلة جداً، وستطلع له عن قريب رواية (عنترة) وهذه أيضاً سأرسلها لك.

هذا ما لزم، وبالختام أُقبّل أيدي الوالدة والعمة (احسن ما تزعل) ويدي أم داود والخالة أم عبدالله ، وسلامي لآسية ونجلة وبندر وتشاشا رفيق نايفة بنت حسن آغا في الخياطة اللي ما أنا عارف كيف بتفهم عليها وهي بتحاكيها، وسلام لأديبة ويوسف ورحمي ومش عارف مين ومين؟

وقَبّلي عني نبيهة مرة واحدة ونزيهة عشر مرات وحافظ مثل نزيهة، وإذا بندر زعلت قولي لها هاتي حلوين مثل نزيهة حتى نحبهم مثل بعض ، اجتهدي وانظمي يا عروس.

أخوك المشتاق

إبراهيم طوقان

ملاحظة للمؤلف: نلفت الانتباه إلى أن إبراهيم يكتب اسم شقيقته مرة (فدوة) وأخرى (فدوى).

****

٢٢ شباط، سنة ١٩٣٢

الجامعة الأميركية - بيروت

أختنا العزيزة الشاعرة فدوى حرسها الله:

سررت جداً بوصول تحريرك المملوء بالأخبار اللذيذة عنك وعن البيت ولا أدري من أي شيء أتعجب أكثر، من نثرك الجميل أم من شعرك المتين، واعلمي يا فدوى أن انقطاعك هذه المدة عن الدرس والنظم هي التي افادتك كثيراً وجعلت الأشياء التي درستها تتخمّر في فكرك وهذه حقيقة مجرّبة، إن العجين مثلاً لا يمكن ان يختمر إلا عندما يُترك وإذا بقينا (نخُوسُ) فيه فإنه يظل عويصاً، وهذا مثلٌ لا اقصد منه الهزل، بل الحقيقة والجد وانت وحدك تشعرين بهذه الفائدة وكفى، قبل ان اتكلم لك عن القصيدة أريد أن أخبرك انني لم أجد في التحرير غير قصيدة واحدة فقط وهي الغزلية أما قصيدة (خليني اشوف) (فرجيني) فإنني لم أجدها فلماذا لم ترسليها، انا لا أزال انتظر هذه القصيدة فأسرعي بإرسالها.

القصيدة = (أولاً): البحر هو بحر الرمل وكلها موزونة وزناً مضبوطاً لا كسر فيها.

(ثانياً): التراكيب قوية وجميلة والألفاظ متلائمة بعضها مع بعض تماماً.

(ثالثاً): النحو والإعراب مضبوط أيضاً ولكن يوجد غلطة واحدة في البيت الآتي:

غَنِّ لي إن شئتِ غَنّي إنّما

انتِ غِرّيدٌ هَفَا نحو الغصونْ

شدا بين : أحسن.

القصيدة خطاب لفتاة، والمؤنث في (غَنِّ) يجب أن يكون (غني بالياء) ولا يجوز لكِ أن تجعلي المذكر مؤنثاً فدبّريها بمعرفتك، وقريب من هذه الغلطة قولك: (فتعالي جارتي إني حزين) ويجب ان تكون (حَزينة) لأنك تتكلمين عن نفسك يا بنت، ومع ذلك فتصليح هذا الشطر هيّن فتقولين مثلاً:

(إنّما انتِ شفاءٌ للأسى

وفؤادي ذو اسىً لو تعلمينْ)

واحببتُ أن اغير لك لفظة (حزين) لأنها قد وردت في البيت الثالث (من أغانٍ تُمْثِلُ الصبّ الحزين). ويوجد عندك غلطة أُخرى وهي هذه : (إيه يا جارةُ صوني القَسَما لا تكوني...) فان الوقف على القَسَما هكذا لا يجوز إلا في الموشحات ولذلك فيلزم التنوين وحذف (ال) منها، احسن قُولي (قَسَمي) فيصير الشطر: (إيهِ يا جارةُ صوني قَسَمي) وأخيراً قولك: (وتناجين – ترى زاد اليقين) غير واضح كثيراً فلم افهم معناه، هذه هي الانتقادات وبتصليحها تكون القصيدة لا غبار عليها.

انتبهي ، المعاني في الشعر دائماً يجب ان تكون واضحة ويجب الا تتضايقي إذا كان البيت لا يأتي معك بسرعة ، وظلّي وراءه حتى يكتمل من كل ناحية – أعني تركيباً ولفظاً ومعنى – وجيه البارودي في بعض الأحيان يأخذ نهاراً كاملاً في شطرة واحدة ، وأنا أحياناً أرمي القصيدة الخالصة لأجل كلمة واحدة لا تعجبني، فتأمّلي لا ازال انتظر القصائد الجديدة، وسأذهب إلى بيت الخطيب في اقرب وقت وأخبّر السيدة سارة وبنتها (رياض) أن فدوى وعدت بنظم قصيدة، كما ان وجيه سُرّ كثيراً بما كتبته عن مُسِرّة في النثر، فكيف لو رأى شعراً عن مُسِرّة.

بعد مدة قليلة تطلع رواية (عنترة) وعندئذٍ ارسل الروايتين لك معاً.

سلامات للجميع الصغار والكبار والعجائز.

(هذه الرسالة مطبوعة)

طابعها إبراهيم طوقان.

ملاحظة : (فرجيني خميس) كانت ممرضة في مستشفى نابلس كتب فيها إبراهيم طوقان قصيدة (ذهبت في رياح النسيان).

فدوى

****

الجامعة الأميركية

١٥ آذار، ١٩٣٢م

بيروت – سوريا

أختي فدوى

هذا كتاب مختصر مفيد تجدين طيّه جواب أم رياض السيدة سارة عن ابنتها رداً على قصيدتك، وهذا دليل على إعجابهم بالقصيدة. لم أعرف قبل اليوم أن سارة شاعرة وأنها تردّ على القصيدة بمثلها فانظري في أبياتها وتأمّلي في لطافتها وخفّتها ففي روحها كأنها نسخة عنها، وقد أرسلت لي القصيدة حتى أرسلها إليك وتردي عليها (طبعاً)، وبما أنها مدحتني فيها فإنني ابتدأت بقصيدة جديدة لها وخصوصاً لأنها أظهرت رغبة في أنها تريد قصيدة لنفسها، وقد قالت لي ذلك بطريقة لطيفة جداً ، قالت: (جاءتني بنتي رياض تقول إن الأستاذ إبراهيم سَمّعني قصيدة من أخته فدوى وأنا ما فهمت منها شيء إلا أنها كلها آخرها (سارة)، فضحكت منها وقلت لها يا بنتي لا تخافي القصيدة كلها عنك وقصيدة الأستاذ كلها عنك أيضاً ولكن أنا جئت بالمرقة وجرّتني القافية، فقلت لها أنت الأصل يا مولاتي والوردة من الوردة وإذا أردتُ أن أقول فيك شيئاً أخاف أن أُقصّر، ولذلك سأنظم لسارة قصيدة وأنتظر أن تنظمي أنت لها قصيدة تليق بها).

يوجد في أبيات سارة بعض أغلاط بسيطة ولكن (طبعاً) لا يليق أن ننتقدها لأنها مدح فينا، اسمعي، يجب أن نغيّر الوزن والقافية في جوانب والأفضل أن تكون القصيدة على بحر أكبر لتكون رسمية أكثر وتكون أيضاً عادية (غير موشحة) فاهمة؟؟

رواية عنترة لم تنزل إلى البيع بعد، سأرسل لك رواية قمبيز فقط.

من سوء حظي أنني لا أحضر في هذه الفرصة لأنني مشغول ولكن لا بأس فالصيفية قريبة وإن شاء الله نقضيها معاً . سلامي للجميع.

أخوك إبراهيم

قصيدة سارة:

اشـــتــــاق نابلســـأ واهوى قـــربَهـــا
كـــيـــمـــا أرى فـــدوايَ دون ســـواها

لي شــاغلٌ عن غــيــرها فــيــهــا فــلا
اهــتـمَ فـي جـنّـاتـهــــــــا وربُـاهـا

لا يطّبــيـني غــيـــرُ رؤيا وجـــهـــهـــا
ولـوَ انّه بـاريـسُ في مـلـهــــــاهـا

هـذا انـا لـكنَ فــــدوى غـــــيـــــرُ ذا
تشــتـــاق بيـــروتاً لحُـــسن بناها

إن قـــيـل لا هذي فـــريدتُهـــا مـــعي
تحكي الـذي قـــد قـلتُ فـلـنـقـــراها

او قـــيل لا ها إن حـــيــفـــا اصـــبـــحت
مـــثـــوايَ وَهْو مـــجـــاورٌ مـــثـــواها

فـلـتـــــاتِ ولـتــــمـنْ عـلـيَّ بـزورةٍ
أمـــسي وأصـــبح شـــاكـــراً نُـعـمـــاها

واقــــــــول يـا ربُّ الـورى سَـلّمْ لـنـا
فـــدوى فـــريدةَ عـــصـــرها بـذكـــاها

وبـفــضلـهـــا وبلطفـــهـــا وبظرفـــهـــا
وبحـــسنهـــا وكـــمـــالـهـــا وبَـهـــاها

١٨ مارس، ١٩٣٢م

لا أشك في انك رأيت الأغلاط في القصيدة، ولكن القصيدة على علاتها جميلة كما قلت لك في التحرير، البيت الثالث يبتدئ بلفظة ليس هنا موضعها اعني (يطبيني) لأن معناها (يدعوني) وأصل الفعل (طبى) قال المتنبي.

طبتْ فـــرســـانُنا والخـــيلُ حـــتى
خـــشـــيـتُ وإنْ كـــرمنَ من الحـــرانِ

راجعي قصيدة: مغاني الشعب طيباً في المغاني ، والذي ارادت أن تقوله سارة هو (يستبيني)... البيت الذي قافيته (فلنقراها) مش مليح... والبيت الذي فيه (شاكرة نعماها) مكسور طبعاً، اما بقية الأبيات فهي جميلة مبنى ومعنى. لفظة (رؤيا) في البيت الثالث ايضاً غلط، يجب أن يقال (مرآي) الرؤيا للنوم وهي الحلم، جاء في سورة يوسف (مش اخوك) «وقال يا ابتِ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً».

ملاحظة للمؤلف : التوقيع جاء قبل قصيدة سارة.

****

الجامعة الأميركية في بيروت

٢٢ مارس ، ١٩٣٢م

بيروت - سوريا

أختي العزيزة فدوى:

أشواقي إليك كثيرة، كان من الواجب عليّ أن أكتب إليك قبل اليوم ولكن عرضت لي موانع كثيرة حالت دون الكتابة، قبل كل شيء القصيدة بعد تصليحها صارت جيدة جداً، ولكن مع الأسف وصلت بعد سفر سارة إلى فلسطين ببضعة أيام، ولكنني أعطيتها إلى والدها حتى يرسلها إليها فأرسلها وأتى الجواب، وها هو ضمن هذا التحرير، سأعرف لك عنوانها وأبعث إليك به لتكاتبيها إذا شئتِ، القصيدة جميلة يا فدوى ولعلّها أحسن قصائدها.

صورة فرجيني جميلة ولكن هي أجمل من الصورة، ويا ليت عندي وقتاً حتى أنظم لها بعض أبيات لأنها تستحق.

سألتني عن اللغة الإنكليزية وأنك ترغبين في تعلمّها، الجواب أنني افتكرت في ذلك قبل أن تكتبي لي عنه، انتظري مجيئي بعد شهر إن شاء الله وستبدأين معي، اللغة الأجنبية ضرورية جداً لك ونافعة، وكل شيء يكون بالتدريج فطوّلي بالك، إذا وصلك هذا التحرير وأنت لا تزالين في القدس عند أحمد فَسلِّمي لي على أحمد ووجدان، ثم إنني انتظر أن أرى لك قصيدة عن وجدان، وعن أحمد أيضاً، هذا موضوع جميل ويستحق القصيدة.

شو بدّي أقول تاني، مشْ عارف.

خلّصْ سلامات للجميع.

أخوك المشتاق كثيراً

إبراهيم

****

بيروت - الجامعة الأميركية

٢٤ آذار، ١٩٣٢م

يا عروس الشاعرات:

اشتياقي إليك كثير ولكن حالت الضرورة دون المجيء إلى نابلس في هذه الفرصة فحرمت من مشاهدتكم جميعاً والتمتع بصفرتك التي تُزري بصفرة الليمون. واكثر ما أشعر به من الشوق ناشئ عن سفر التلاميذ كل إلى أهله وأنا وحدي هنا، ولولا أن ابن العم بهاء الدين بن علاء الدين بن عبدالرحمن بن عبدالرزاق طوقان موجود هنا ولم يسافر لهربتُ من الشغل وجئتُ إلى نابلس سعياً على الأقدام، فهذا يسلّيني واقضي أوقات فراغي معه.

انتقادك على قصيدة سارة كان في موضعه، ولا أظن أنه يوجد أظهر من هذه الانتقادات سوى بعض الضعف الشامل على القصيدة عموماً، وهذا يزول بكثرة المطالعة والنظم والتفرغ للعمل والتفكير به دائماً، ولا أظن أن السيدة سارة قادرة على ذلك. (مليح منها).

قصيدتك في مسرّة جميلة، وقد أعجبتني فيها أشياء كثيرة أذكر لك منها قولك:

قبسُ الآمالِ يهدي اليائسينْ

فكأنّ الليلَ والفجرَ المبينْ

فهذا تشبيه جميل جدّاً وتركيبه قوي لأنك جمعت في بيت واحد بين الليل وما يلائمه وهو اليأس وبين الفجر وما يلائمه وهو قبس الأمل (وهذا يسمونه التشبيه المركّب)، وفيه شيء آخر يسمونه (الطيّ والنشر) ولكي أدلك عليه وضعت الخطين بقلم الرصاص وسأقدم لك مثالاً آخر، قال أبو نواس:

يُميتُ ويُحيي بالوصال وبالهجرِ

لاحظي الموت مع الهجر، والحياة مع الوصال، فكأنه وكأنك أخذتما البقجة التي تذهب بها أمك إلى حمام الجديدة ووضعتما فيها قميص ولباس وطويتماها ثم فَتَحْتُماها وإذا فيها تنورة وبلوز، الأولى للقميص والثاني للباس، وتلاحظين أنني عكستُ فيجب أن

تكون التنورة مع اللباس والبلوز مع القميص، حتى يكون الطي والنشر من النوع التام، ولكن هذا ما جرى مع أبي نواس ومعك وهو النوع المعكوس، ومن الأبيات الجميلة قولك:

شـــادنٌ لو رمتُ إمـــلاءَ البــــصـــرْ

منه لاســـتـــعطفَ كي تغـــضي النظرْ

وقولك:

إنّــه ريمُ بــلـــبـــنـــانَ اقـــــــــــامْ

يا كناسَ الريمِ حــيّــاك الغــمــامْ... إلخ

انتقادات ، وهي قليلة، أولاً: سارة لها خطيّة عند الله بدليل أنك وقعت في غلطتها عند قولك: «ونضت عنها ثياب الكسل» فوقفتِ على هذه الكلمة (الكسل) بحركة مع أنك قلتِ في غيرها، (خجلاً عاطراً ساعد) ولم تجعلي هذه الكلمات على وزن «الكسل»، بعبارة أوضح يجب أن تتّبعي طريقة واحدة، إما عدم التقيد بقافية الشطر مثل الكلمات الثلاثة أو تتقيدي بقافية الشطر وهي اللام في (الكسل)، هذه هي العادة في الموشحات فانتبهي.

ثم إن هنالك البيت الذي ترين أنه ضعيف وهو (تعلمي شوقي العظيم وتبتلي) وهذا ليس ضعيفاً فقط وإنما هو مكسور، ويصحّ حين تقولين (تعلّمي شوقي وحبي تبتلي)، لديك غلطة في النثر وهي تنوين كلمة (قصائد) فإنها لا يجوز أن تنون، فيقال: قرأتُ قصائدَ بفتحة واحدة فقط، وكذلك كل اسم مجموع على وزنها أعني على وزن (فواعل ومفاعل) وكذلك (مفاعيل) أمثلة: (قصائد، جرائد، ضمائر، جآذر) (محاكم، مكاتب، مساجد، مراجع) (مصابيح، مفاتيح، مساكين، معاميد) الأحسن أن تراجعي في كتب النحو والصرف باب الممنوع من الصرف، تقول لك سارة في قصيدتها: (بيروتُ مثوايَ فيها والحيُّ حيُّ المناره) فهذا عنوانها فاكتبي إليها رأساً. (بيروت – المنارة)

حضرة الفاضلة الأديبة السيدة سارة الخطيب دام بقاؤها، وستكون مسرورة جداً بمكاتبتك كما أنك ستسرّين بمكاتبتها وتكون لك صديقة ترتاحين إلى محادثتها ومناجاتها بالتحارير عندما تسأمين من حكايات دار حسن آغا البايخة وخرطات بنات البيك.

كنت كتبت إليك أنني ابتدأت بنظم قصيدة لسارة شكراً لها على مديحي في أبياتك

وقد كتبت بضعة أبيات (مش عاطلين) وقدمتها لها وجاوبتني عليها وهذه هي أبياتي:

يا كـوثرَ الظرفِ النميـر ومـصـدرَ الطُـ

طَـيْـفِ الـغـــــزيـر واهـلَ كـلّ ثـنـاءِ

هل يسـتـحقّ المدحَ منكِ شـويعـرٌ

مـثلي وانتِ امـيـرةُ الشـعـراء

القـربُ منكِ إمـارة وكـفى بهِ

شـرفـاً اتيـه به على الأمـراء

مـا زرتُكم إلا وفـزتُ بغـبطةٍ

ورجـعتُ احـملُ اجـملَ النعـمـاء

فـالسـمعُ من سـحـر الحـديث بمعـزلٍ

عـن كـل ذات صـوادحٍ غـنّـاء

والعينُ من بِشـر الوجـوه غنيّـةٌ

عـن كل بدرٍ مـشـرقٍ وذُكـاء[1]

والقلبُ اطربُ مـا يكون خـفـوقُـهُ

لـزيـارةٍ فـي اهـلـه ولـقـاء

فلكلّ جـارحـةٍ لديَّ نصـيـبُـهـا

فـي داركـم مـن هـذه الآلاء[2]

وشـمـائلٌ لـو كنتُ ابلغ غـايةً

من عـدّهـا لـعُـددتُ في البُلَغـاء

جُـمعَ التليـدُ إلى الطريف بهـا فـمـا

زان الـبـنـينَ تـراه فـي الأبـاء

المجـدُ منهـا والمروءة والندى

وغـريبُ حـسنٍ في عـجـيبِ ذكـاء

(١) ذكاء: الشمس.

(٢) الآلاء: النعم.

وكان جواب سارة هذه الأبيات:

يا واصفي بأميرة الشعراءِ
عفواً فإني لستُ بالخنساءِ

وتقول عنك شويعرٌ هذا كما
لو قيل عن سَحْبانَ بالفأفاء

إنّي وحقِّكَ لا أشكّ بأنني
في بحركَ الطامي كنقطة ماء

لا يخدعنّكَ بيتُ شعرٍ قلتُهُ
لا حُسْنَ فيه سوى جمالِ ثنائي

وسيكون لي ردّ على هذه الأبيات أيضاً أكتبه إليك في حينه، ليس من الضروري أن تتبعي وزننا وقافيتنا بل اجعلي قصيدتك مستقلة.

يصلك مع بريد هذا التحرير رواية شوقي (قمبيز) فاقرأيها على مهل وتفهّميها جيّداً واحفظي ما شئت من قطعها الجميلة، ظهرت رواية جديدة له أيضاً وهي رواية (علي بك الكبير)، وقد قرأتها مرّة واحدة فقط، وسأرسلها إليك بعد قراءتها مرة ثانية.

أختم تحريري بالسلام على الجميع كباراً وصغاراً.

أخوك المشتاق

برهوم

****

بيروت – الجامعة الأميركية

١٢ نيسان، ١٩٣٢م

إلى أختي فدوى، كاشفة البلوى، ومصدر السلوى: (كيف، مليح، ها).

أخذت كتابك اليوم وسررت به كالعادة لأنني أقرأ نثرك وشعرك ويسرني فيهما تقدمك، أتعجب كيف لم تصلك رواية «قمبيز»، وما دام الأمر كذلك فقولي للوالد أن يشتري لك بدلها عندما يذهب إلى القدس، يعجبني أنك فهمت جمال البيت الذي فيه: كوثر ومصدر الظرف واللطف والنمير والغزير، وأعجبني أكثر قصيدتك في سارة، إلا ان هنالك انتقادات بسيطة سأدلك عليها واحدة واحدة:

قلت: (وهناك ذات الظرفِ سارَ فليتني)، واختصار كلمة سارة مع أنها جائزة ليس جميلاً، قُولي: (وهناك ذات الظرفِ سارةُ – ليتني).

قلت: (خلق وخلق... إلخ) البيت ضعيف لأنه غير مفهوم، ولأنه لا يبيّن لماذا قلت أشباهًا (بالفتح) فيجب أن تكون مرفوعة، احذفي البيت.

قلت: (كالشمس حين تذرفي هذي الدنا) ، أنصحك الا تستعملي الكلمات الآتية: (هذي، ذا، مذ، إذ) أيضاً، (الدنا)، والسبب هو أنها غير جميلة في الشعر ويوجد بدلها وكله جميل أعني: (هذه، هذا، منذ، إذا، الدنيا).

قلت: (ما شمت في أترابها إلاها)، لفظة شمت تستعملينها كثيراً، وهي غير جميلة كثيراً، وعندك بدلها عدة ألفاظ، مثلاً: لم ألق، ما كان، لم أرض.

قلت: (سيضيء دجوك)، يا أختي لماذا تتركين الكلمة الخفيفة اللطيفة وتستعملين الكلمة اللي مثل كفوف أم حسن أبو خرمة بعد الجلي، أعني لماذا تتركين كلمة سيضيء «ليلك» وتقولين «دجوك»، أعطي بالك يا فدوى هذه الكلمات هي أصعب شيء في الشعر، وتنقيتها تدل على ذوق الشاعر الفني، وسأفهمك بمثل بسيط، لنفرض أنك حملت نزيهة على ركبتك لتدلليها، وحملت رحمي أو فتايا على الركبة الثانية (الله يساعدك) فماذا تكون

كلماتك لنزيهة وكيف تكون لرحمي، طبعاً تقولين لنزيهة: (أبَه كفة امش) وتقولين لفتايا: (دبه لبه قومي انقلعي)، لماذا لأن نزيهة نزاكة بحت ولكن فتايا خمالة وتقالة، والآن اسمعي، الموضوع الخشن تكون كلماته كبيرة ضخمة تملأ الفم، مثل مدح المتنبي وأبي تمام للأمراء ووصفهم للحرب، والموضوع النحيف يحتاج إلى كلمات نحيفة رقيقة مثل الغزل ووصف الربيع والأزهار ومثل مديح السيدة سارة، ولماذا نبعد اقرأي وصف الجنة والنار في القرآن وانظري إلى الفرق بين كلمات الوصفين.

الأبيات الجميلة في قصيدتك هي أول بيت والثاني بتبديل قافية مأواها اجعليها (مغناها)، الثالث جميل جداً، والسادس فهي الفريدة... والتاسع بعثت إلي.. والعاشر هي كالصلاب، والحادي عشر آيات شعر.

(أريد أن أتعشى وسأعود إلى تتميم الكلام) يا الله.

تعشيت ونمت وكسرت الصفرة وعلّمت أربع ساعات قبل أن أرجع وأتمم لك التحرير، ونعود الآن إلى الكلام، القصيدة بعد أن تصلّحيها تبعثين بها إليّ وأنا آخذها إلى سارة، هذا إذا كنت غير مطمئنة إليها، وإلا فابعثيها بنفسك إليها رأساً، أنا أفضّل أن تكون عشرة أبيات صافية جميلة وتحذفي الضعيفة الغامضة.

كنت أرسلت إليك أربعة أبيات بعثت بها سارة إلي جواباً على أبياتي وهي على قافية الهمزة، وقد جاوبتها عليها بأبيات هذه هي:

صدقتِ، ما انتِ كالخنساء في شَبَهٍ

شتّانَ ما بين دنياها ودنياكِ

اينَ الشقاءُ من النعمى إذا انتسبا ؟

هيهات ذاكَ، ادامَ اللهُ نعماكِ

ام اين (صخرُ) إذا قستِ (الرياضَ) بهِ

وانضمُّ ذائعُ ريّاها لريّاك ؟

ام اين وجهٌ ازال الحزنُ رونقَهُ

إلى ابتسامةِ بِشْرٍ في مُحيّاك ؟

وافـضلُ الشـعـر عندي مـا يفـيض بهِ

سـرورُ قـائله لا المدمعُ البـاكي

وانتِ كـاسمكِ (سـارةُ) لا بل انتِ مصدره (السُّ

سُـرورُ وسِـرُّه وأجلُ الناسِ سمـاك

بنتَ الخطيبِ وهل بيتُ الخطيبِ سـوى

أرومـةٍ فـرعُـهـا عـالي السنا زاكي

فـداؤكِ المحْصنَاتُ الغـيـدُ محـصنةٌ

روائعُ الحـسنِ اضـحتْ من رعـاياك

لبنانُ يحـسـد فـيك الغـوطتين على

طرائفٍ نالتـاهـا من مـزاياكِ

مـا شـئتِ شـاعـرةٌ مـا شـئتِ ناثرةٌ

الفـاظُكِ الغـرُّ تَروي عن ثُنايـاك

اديبـةٌ لا يملّ الدهرُ مجلسَـهـا

فـإن تَقـضَّى ينبْ عنكِ الصـدى الحـاكي

خطيـبـةٌ كُشفَ الخَطْبُ الجليل بما

القـيتِ من عظـةٍ والوحـيُ لبَّـاك

وحكمـةٌ هـي بنتُ الدهـرِ مـا نزلتْ

صـدراً كـصـدركِ او مـغنىً كمَـغْناك

وشـعـلةٌ من ذكـاءٍ لو يؤانسـهـا

موسى على طور سيناءٍ لناجاك (فاهمة البيت)

ولا احـدِّث عـن روحٍ اخـفُ ولا

نفسٍ اعفُ، ومـا تفنى سـجـاياك

لا زلـتِ فـي ظـلّ عـزٍّ وارفٍ ابـداً

ودمتِ مَـغْـداك في النعـمى ومَسـراك

الغوطتين: بساتين الشام.

سارة لها مواقف خطابية في الاحتفالات في الشام وبيروت.

هذه هي الأبيات ولكنني لم اقدمها إليها للآن لأنني مشغول ولي نحو عشرة أيام لم أزرهم، هذا ما عندي الآن وأرجو لكم افراحاً طيبة دائمة بخطبة احمد.

سلامي للجميع، قبّلي الصغار عني.

أخوك المشتاق

إبراهيم طوقان

****

هــذه المجمـوعة تـضـم:

(١) رسـالة مـؤرخـة في العـام ١٩٣٢ مـوجـهـة من «الشاعر» إلى الأستاذ قدري طوقان.

(٢) رسالة مؤرخة في العام ١٩٣٤ من الشاعر إلى والده عبدالفتاح طوقان.

- مكان إقامة الشاعر: بيروت -

الجامعة الأميركية - بيروت

٦ أيار، سنة ١٩٣٢م

مقلق راحتي ومزعجي ودَاوِش راسي ومغلّبي قدري:

لا أدري بأي الشتائم واللعنات أتقدم إلى الخوارزمي والبيروني والخيام وغيرهم، من هؤلاء الرياضيين الذين سلطك الله عليهم تزعجهم في قبورهم وتزعجني انا ايضاً بسببهم، لا حول ولا قوة إلا بالله، يا أخي الدكتور سارطون سافر، وكتابه لا أعلم عنه إلاّ كما أعلم كيف تُخرجون الجذر التكعيبي للعدد، ولعلّ الرجل يظن أن كتابه طبّقت شهرته الخافقين وسارت مسيرة القمرين، فراح يقول لي إن الكتاب موجود في كل المكاتب.

والظاهر أنه هو وكتابه نكرة من نكرة، وسأسأل عنه في الجامعة لعلهم يعرفونه.

الذي أريد أن أناقشك فيه الآن هو محاولتك مسّ مادياتي مع علمك بأنّ هذه الناحية مني دقيقة الإحساس لدرجة متناهية، كيف تجرؤ على القول أن أشتري لك الكتاب، وهل يعقل أن أداين أحداً من الناس، هل تذكر في حياتك التي قضيتها معي انك ظفرت بقرش مني، وعلى فرض أنك نلت بغيتك الا تظن أنك عرّضت للقصف رقبتك، ما أغناك عن الوقوع في الدين معي، قد يخطر في بالك أنني أزعجك بالإلحاح لتسديد هذا الدين ولكن ليت القضية تقف عند هذا الحد، ذلك لأنني على يقين من تكليفك دفع أضعاف ما يكون عليك وتصبح ذمّة في عنقك يعلم الله وحده كيف تخلص منها، ولقد جرّبتني مستديناً، فهل تريد أن تجربني دائناً، سأشتري لك الكتاب إذا وجدته هنا، ولكن قد أعذر من أنذر.

ابتدأت بنظم النشيد الآتي لدائرة المعارف التي أوشك أن أصبح من أقراصها وخشبة من صحاحيرها.

عنوان النشيد هو:

البقّة والبرغوث (الموضوع مبتكر)

البقّة:

نحن بناتُ الخشبِ نشرب دمَ العربِ

(هذه وحدها كافية لأن تجعلني مفتشاً).

نمشي ببطءٍ عجبِ نقرص مثلَ العقربِ

البرغوث:

نحن الذين نقــفزُ مكاننا مُعَـــــزّزُ

بينا ترانا ننــخرُ حتّى ترانا نزهـرُ

(الكلمة يفسرها لك جلال).

كلاهما:

عشنا على الأبدانِ في سالف الأزمـانِ

لو كان في الإمكانِ عشنا على الأوطانِ

الجبنة الطازة

إبراهيم

****

بيروت - الجامعة الأميركية

١٩٣٤/١٠/١٩

سيدي الوالد حفظه الله:

أقبّل يديكم وأطلب رضاكم ودُعاكم، وبعد فقد وصلت إلى بيروت مساء اليوم الذي سافرت فيه من طرفكم، وكنت قابلت أخي أحمد في طولكرم وحدثته عن أحوالي فاستصوب راي الاقامة في بيروت كثيراً، وفي القطار ركبت إلى حيفا وكان فيه راغب النشاشيبي وفخري وأبوسلمى لحضور جنازة رئيس بلدية عكا.

ومن ظريف ما جرى أن فخري النشاشيبي سألني: لماذا أرسل والدك تلغراف تهنئة للدكتور حسين الخالدي؟! فأجبته: إنني لا علمَ لي بتلغراف ولكن ذهبت مع الوالد للقدس خصوصي وهنأنا الدكتور حسين بفوزه والسبب يا فخري بك هو النسب والقرابة التي بيننا، والذوق اللي مش لازم يكون مفقود منا لهذه الدرجة؟!! فسكت وكان راغب بك يسمع فطنّش أيضاً، وكلام فخري وسؤاله هو من النوع الذي تسمونه (حكي شراطيطي صحيح!) في بيروت كما كنت أتوقع انقطع مني المغيص ومشت معي حركة الأمعاء منظومة مضبوطة، أما فقر الدم فإنني واجهت الدكتور خياط وحدثته بالحكاية من الأول إلى الآخر فأظهر عجبه من عملية الدكتور كميلن وشهدَ له بالقدرة الفائقة، وبعد الفحص سألني عن مدة إقامتي فأخبرته إنها تحت تصرفي من اليوم إلى غاية شهر ونصف، فأجاب إذا كان الأمر كذلك فأنا افضل أن تدخل المستشفى يومين أو ثلاثة نكرر في أثنائها الفحص للدم والبول والغائط فربما كان هناك شيء مغطى بقشة فننبشه ونعالج على نور، فوافقته، وسأدخل المستشفى صباح الإثنين وأخرج ظهر الاربعاء إن شاء الله وتكون النتائج حسنة، مسألة الشغل الذي بحثت معكم فيه يظهر أنه صار له مقدّمات في الجامعة وأن الطبخة تنطبخ، قابلت حبيب كوراني وهو الرجل الذي شقّ معي النغم في نابلس فكان أول حديث له بعد السلام والسلامات سؤاله: هل قابلت الأستاذ أنيس؟

فقلت له: كلاً، قال : لازم تقابله من كل بد! ثم قال : وأنا لي معك حديث مهم! ثم رأيت الأستاذ انيس فقال لي إنه يريد أن يراني في جلسة طويلة!

ثم إن عمر فرّوخ كلّفه انيس من مُدّة ليشتغل في الجامعة فرفض لأن المقاصد الخيرية سترسله بعثة لألمانيا على حسابها.

إذا ربطنا هذه بعضها ببعض يمكن القول إن في الجوّ شيء (شيئاً) لعلّه خير.

استأجرتُ غرفة في الجامعة كاملة المعدات طيبة الموقع بأجرة يومية قدرها ٥٠ قرشاً سورياً في اليوم أو ما يعادل نحو جنيه فلسطيني في الأسبوع، وسعر الفلسطيني اليوم ٣٧٠غ سوري، أما الأكل فلا أريد أن أتقيد به الآن حتى نرى نتائج الفحص وما يقتضي عمله لئلا يكون مطعم الكلية غير مستعد لطبخات خصوصية مثلاً.

وبالختام السلامات للجميع وأقبل أيادي الوالدة المحترمة وسلامات لأبي حافظ وعائلته ولخليل وللعم أبو غالب ودمتم كما رمتم.

لولدكم

إبراهيم طوقان

إذا جاءني مكاتيب فحوّلوها باسمي إلى (الجامعة الاميركية) (وست هول).

ملاحظة للمؤلف: الكلمات التي تقع بين قوسين، فيما مضى، غير موجودة أصلاً في نصّ الرسائل، بل أثبتها لتصحيح الخطأ الوارد أصلاً في الرسائل.

****

هذه المجموعة تضم:

(١) رسالتين مؤرختين في العام ١٩٣٤ موجهتين من الشاعر إلى:

أ - رئيس تحرير جريدة فلسطين.

ب - صديق يعمل في جريدة فلسطين (لم تُرسل).

- مكان إقامة الشاعر نابلس -

(٢) رسالة مؤرخة في العام ١٩٣٥ موجهة إلى الأمير شكيب ارسلان (لم تُرسل).

- مكان إقامة الشاعر نابلس -

(٣) رسالة مؤرخة في العام ١٩٣٦ موجهة إلى شقيقته الشاعرة فدوى أثناء إقامتها في «عمان».

- مكان إقامة الشاعر نابلس -

١٩٣٤/١٢/١٦

حضرة الفاضل رئيس تحرير جريدة فلسطين الغراء المحترم:

سلام وتحية: وبعد فقد اطلعت في عدد الأحد الأخير على قصيدة بعنوان (صدى الماضي) من نظم شقيقتي فدوى طوقان، وقد عجبتُ كل العجب لهذا التبديل والتحوير الذي طرأ على القصيدة مما جعلها ذات بحور مختلفة، فضلاً عن العبث بكلمات شعرية منتقاة يعرف قيمتها أهل هذه الصناعة الدقيقة.

وبمقدار ما اسفت لهذا التشويه، وبمقدار ما خامرني الشك في مقدرة (مصحح) القصيدة....، فقد سرّني من شقيقتي انها اصبحت موسيقية الأذن في الشعر تميّز بين اشد الأوزان تقارُباً، الأمر الذي اشكل على المصحح فورّطه في خطأ فاضح، ولو سلمنا جدلاً بوجود اخطاء في القصيدة فقد كان من المنتظر أن تُنشَر على علاتها وكما خطّتها يد صاحبتها ما دامت هي المسؤولة عنها، وما دام الانتقاد واقعاً عليها لا على الجريدة.

لذلك ارجوكم أن تنشروا كتابي هذا بأسرع مناسبة وإعادة نشر القصيدة كما وصلت إليكم، وتفضلوا بقبول الاحترام.

المخلص

إبراهيم طوقان

****

١٩٣٤/١٢/٢

نابلس

(لم ترسل)

حضرة الأخ (. . . . .) افف حفظه الله..

سلام واحترام

في عدد الأحد - الذي سبق الأخير - نُشرت قصيدة بعنوان «صدى الماضي» لشقيقتي فدوى، ولا أعلم مَن الذي عبث بالقصيدة فأودع فيها علمه العجيب في فَنّ العروض وجعلها كالأسطول الإنكليزي تمخر في كل البحور .... الشعرية!!

بادرتُ يومئذٍ فكتبتُ إلى الأستاذ يوسف حنا، وأودعتُ كتابي كلمة أحببتُ نشرها مع القصيدة مصححة - كما كانت أُرسلَت - ورجوته أن ينشرهما، وإلى اليوم - وقد مرّ أسبوع كامل - لم تُنشر الكلمة ولا القصيدة.

لا أعلم أن لي أو لشقيقتي عدواً في إدارة جريدة (فلسطين) بالعكس لا أعرف فيها غير أصحاب إخوان، ولم أشأ أن يذهب الظن بي إلى الإثم فأقول إن ما حصل كان بسابق تعمّد وإصرار....؟ كما أنني لا أريد لشقيقتي - وهي بعد ناشئة في دنيا الأدب - أن يُسجّل عليها الجهل بالعروض إكراماً لخاطر جاهل فيه موجود عندكم يجب أن يُعلّم نفسه قبل أن يتكرّم على الناس بالتعليم ويأخذ أخطاءهم بالتصحيح..! وما حملني على الكتابة إليك خاصة إلا هذا الجور الذي لحق بي من (فلسطين)، اللّهم إلا إذا كانت «فلسطين» تعتبر اتصالنا بها وإيثارنا إياها على غيرها استجداءً تقبله بالتصدّق علينا، ومنّةً تتصرّف بها قبضاً وبسطاً، وعندئذٍ فلعنة الله على أدب ينحطّ بنفس صاحبه إلى هذا الدرك فلا يكرمها بتطليقه طلاقاً باتاً لارجعة فيه، وقاتل الله زعانف الأدب في هذا البلد الذي ابتذلوه بقذفه على الجرائد قذفاً فحقّروه في عيونكم وأهانوه بتمسّحهم بالصحافة تَمسّح الكلب الجائع بمن يُلقي إليه العظمة.

أخي: إذا لم يكن من رأيك نشر الكلمة، نبعثها مع القصيدة، - وخير البر عاجله - تكون جريدة فلسطين قد قطعتني عنه بسكين قطعني به سواها من زميلاتها الجرائد الفلسطينية.. على أنني لا أعدم في سوريا ومصر والعراق إخواناً يحترمون الناس باحترام آثارهم «وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى».

وتفضل بقبول احترامي وتحياتي.

إبراهيم طوقان

****

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

نابلس، ٤ أيار، ١٩٣٥

(لم يرسل - يحفظ للتاريخ)

سيدي عطوفة الأمير شكيب أرسلان حفظه الله آمين:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد أُقيمت في طولكرم منذ أيام حفلة الأربعين لوفاة المرحوم الشيخ سعيد الكرمي وبعد انتهائها - وكنت شهدتها - علمت أن أحد محرري جريدة فلسطين يحمل (بروفا) لزنكوغراف جديد أُخِذ لوثيقة جديدة، زعموا أنها من (الخطورة) على جانب أعظم من سابقتها وذلك لأنها كما يقول المطلعون عليها تشتمل على حُجج لا يمكن دفعها، وبراهين قاطعة مانعة ترد على كل من يقول بتزويرها.... وأبلغ هذه الحُجج وادمغها حاشية في اسفل الرسالة جاء فيها انكم كنتم كلفتم إحسان بك ليبعث إليكم بقليل من (الحُلبة) وترجون من الحاج امين افندي (والرسالة منكم إليه) أن يُذَكر إحسان بك بطلبكم إن كان نسيه... وموضوع الحجّة أن المزوّر لا يعقل أن يخطر في باله مثل هذه الحاشية!

قال لي محدّثي وهو أحد رجال نابلس - من المعارضين - ان هذه (البروفا) مع الحاج نمر افندي النابلسي، وأنا آتيك بها غداً لأطلعك عليها، وبدا لي من حديثه ان هذه الوثيقة عندهم هي رأس كليب، وأتى بها في الغد فتناولتها ولم أكدْ اقرأ السطر الأول منها، وفيه هذه العبارة (بعثتُ إليكم بكتاب ولم يصلني جواباً عليه....) حتى رددت «الوثيقة الخطيرة» لصاحبها وقلتُ له: «إذا أردتم أن تحفظوا لأنفسكم كرامتها وأن تبقوا على احترام الناس لكم فخيركم أن تحفظوا هذه الوثيقة الفاضحة للقائمين بتلفيقها، إن الأمير شكيب لا يقع في هذه الغلطة النحوية، وهذا الهذر في الإنشاء يضحك منه صبيان المدارس الناشئون فضلاً عن أن يجيء به أمير البيان!».

وبُهتَ مُحدّثي لهذه المفاجأة وقال: «ولكن هذه الوثيقة وسابقتها (كلام بسرك) أُخذتا عن رسالتين كانتا في جرار الحاج أمين».

قلت: «إنّ الذي ادّعى بأنه أتى بهما كاتب كبير ونصاب خطير على ما يظهر، طمع منكم بمال فأراد أن يحصل عليه بأية وسيلة، فساومكم على سمعتكم بتلفيق هذه الرسائل، وأتاكم بها على أنها صحيحة».

قال محدثي: «والحلبة ...؟» قلت: «قد يطلب الأمير شيئاً من الحلبة بواسطة إحسان بيك ، ولا أرى هذا الطلب من الخطورة بحيث يمنع إحسان بيك عن التحدث به وتكليف بعض الناس بتنفيذه، والمزوّر لا يحتاج إلى أن يكون داهية (حين علم بذلك) حتى يرى أن يدخل هذا الطلب حاشية على الرسالة المزورة إمعاناً في التضليل وتثبيتاً لصحة ما يأتيكم به من التزوير والتلفيق».

قال محدثي «والخط، الا تعرف خط الأمير؟!» قلت: «إن الخط عندي ظاهر التزوير» قال: «لقد قابلناه برسائل من خط الأمير نفسه جاءنا بها الحاج شافع عبدالهادي فلم يكن عندنا ريب بأنها من خطّه» قلت: «هذا للخبراء إذا شئت أن تحتكم فيه، ولكن لو كان لديك رسالة من صديق لك حفيظ على ودك أكنت تبرزها في هذه الظروف والأحوال لتحكم بها عليه!؟ ولكن سامحَ الله الحاج شافع إن كان فعلها..!».

اما بقية ما اشتملت عليه (وثيقة الحُلبة) فهي ما يلي:

١ - تستحسنون من الحاج أمين افندي إرسال رسائله إلى عطوفتكم عن يد القنصل الإيطالي ، وهذا يرسلها بدوره إلى مكتب الدعاية ومن المكتب ليدكم.

٢ - مركز الدعاية الإيطالية بلّغه ان جرائد الحاج أمين افندي ضيقة الانتشار ولذلك فعطوفتكم تحثون الحاج أمين افندي على اجتذاب الفاروقي إلى حركتكم بالتفخيم والتعظيم لأن الفاروقي يسرّه ذلك، وتقترحون إيجاد مئة اشتراك لجريدته.

سيدي الأمير: في هذه الوثيقة إذا نشرت قضاء مبرم على المزوّرين الأفاقين، وإذا كنتم وجدتم ثلاثين مأخذاً لإثبات التزوير في الأولى فإنّ كل كلمة في هذه الثانية حجة وبرهان على بطلانها وتلفيقها، إن الوثيقة المزورة التي نشرت كانت مفاجأة عند ظهورها، وقد تفاوت الناس في إدراك حقيقتها، وكان هناك كثيرون ممن كذبوها لأوّل وهلة لركاكة

أسلوبها وإسفاف لغتها، أما موضوعها فقد اجتمعت إلى شباب كثيرين وكنت في مجالس عديدة للرجال فلم أجد غير إجماع على نذالة هذه المؤامرة، وسخط على مدبّريها، ومجاهرة بتقديسكم وإجلالكم عن هذه السخافات... وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم، اطّلع على كتابي هذا سيدي الوالد وهو يهديكم جزيل السلام وأطيب التحيات ويدعو لكم بالتأييد وطول البقاء سيدي.

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

****

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

نابلس

١٩٣٦/١/٧م

الشقيقة الشاعرة حفظها الله آمين:

قصيدتك اعجبتني ولم اجد عليها أي غبار سوى قافية (الروابيا) التي وضعت مكانها (النواصيا) فصار البيت هكذا:

اقــامَ بـهـــا من فـــرع هاشم ســـيّـــدٌ
يـحلّ من المجـــد الذرى والـنـواصـــيـــا

فقدّمي القصيدة على اسم الله، وتوكلّي على الله، ومتى قدّمتِها فأخبريني حتى اسرع وأرسلها في الوقت المناسب إلى إحدى القزازيط.

وائل يذهب إلى المدرسة واضعاً غداءه تحت إبطه، وعندما يعود يفتح فمه لننظر سنّ الذهب الذي طلع له من ذهابه للمدرسة، اديبة لا تذهب للمدرسة طبعاً لأنها لا تزال صغيرة جدّاً بدليل أنها تسدّ باب البيت فقط عند دخولها وخروجها، فتايا الخياطة تشتري لوازمها من عند الآتية أسماؤهم: أعطاف الخياط، ألطاف الخياط، سعاد الخياط، أم موفق الخياط (هذه خرية جديدة) والحاج بها عبدالهادي، نصيرة البدوية الصغيرة الجديدة لم يعجبها شيء من حياة التمدن على ما يظهر سوى الششمة، فهي إن ضاعت لا نجدها إلا هناك، ثم إنها مفروض عليها أن تقع بمعدل عشر وقعات في اليوم وتصيح بعد كل وقعة هَا وِيلي، هَا وِيلي.

ربما – وليس من المؤكد – أحضر إلى عمّان قريباً إن يَسّر الله.

هذا ما عندي وأترك الفسحات الباقية لتعليق أهل الدار واسلمي لأخيك.

إبراهيم طوقان

اسمعي ولي! قال ابدهوش يكتبوا لك بخاطرهم، يغس بالهم!!.

****

هذه المجموعة تضم رسائل «الشاعر» إلى:

(١) رسالة مؤرخة في العام ١٩٣٨ موجهة من الشاعر إلى حسن رحمي طوقان.

(٢) رسالة مؤرخة في العام ١٩٣٨م موجهة إلى شقيقته الشاعرة فدوى.

(٣) رسالة مؤرخة في العام ١٩٣٩م موجهة إلى شقيقته فدوى أيضاً.

- مكان إقامة الشاعر «القدس» -

حُرِّر في البيت بحضور جعفر وأمه وإبراهيم وأمه وأديبة:

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

الإذاعة اللاسلكية

القدس – في ٢ شباط، ١٩٣٨م

حضرة أخينا العزيز الحاج حسن رحمي طوقان المحترم:

بعد تقبيل لحيتكم المزمزمة والسؤال عن شريف خاطركم نبدي اننا يا أخونا الحاج مجتمعون حول النار في ليلة شديدة الأمطار والبرق والرعود والرياح، وقد استلمنا كتابكم المرسل إلى أديبة من المدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأتم الصلاة، فسرّنا أنكم جميعاً بخير، واشتهينا أن يكون قد قُسِمَ لنا هذا النصيب في زيارة النبي الحبيب، فهنيئاً لكم هذه الفرصة السعيدة والزيارة المحمودة والحج المبرور والتجارة التي لن تبور (يعني مش مثل تجارة أخيك يوسف)، والمفروض الآن أن نكتب بالتفصيل ما كتبناه لسيدي الوالد بالاختصار عن ولادة جعفر حرسه الله ورعاه بعين عنايته آمين، فنقول:

في ليلة اشتدت زوابعها وهطلت أمطارها رجعت من سهرة ساهرة كانت في بيت جلال هاشم حضرها لفيف من الإخوان بينهم: يحيى السعودي، ومحمد عبدالكريم البزق، ومحمد عبدالمطلب، وكانت الساعة الواحدة بعد نصف الليل، وعندنا مع أم جعفر في البيت كلّ من الآنسة فتايا والسيد يوسف، والكل نائم ماعدا أم جعفر، فقالت إنها تتوجع من بطنها وظهرها، فطلبنا سيارة نقلتنا في الحال إلى مستشفى الحكومة – قسم التوليد – وجاءها المخاض إلى طبّون السيارة تارة وإلى رجل التخت تارة أخرى ومنها إلى الحائط أو الخزانة، حتى جاءت الممرضة وقالت هذا أمر يطول حتى الصباح فخير لك أن تنام في بيتك وتعطينا نمرة تلفونك، ولم أكد استريح في الفراش (ولم اشلح لأكون على استعداد لأول نداء) حتى ضرب التلفون وإذا بالممرضة تقول إن الست تريد أختها، فطلبت سيارة وطلعت إلى دار روحي بك الساعة الثالثة بعد نصف الليل فنقرت الباب على غرفة الست عفّت ففتحته، وما سمعت بالمسألة حتى تعقّدت يداها ولم تعد تعرف الذي تريد أن تلبسه

من الذي تشلحه، قُول يا سيد بلا طول سيرة نزلنا من الدار ودخلنا غرفة سامية فوجدناها في حالة المخاض الأليم، ورافقناها إلى الساعة السادسة صباحاً، نمت خلالها على كرسي هناك ساعة من الزمان لشدة ما استولى عليّ من النعاس، وتركتها وعدت إلى البيت، ولم افق حتى الساعة العاشرة إلا الربع، وأخذت التلفون وسألت الممرضة فقالت: «بعد عشر دقائق إن شاء الله. ولم تمض المدة حتى جاء التلفون من عفت فبادرتها بالسؤال عن سامية فقالت: قامت «سالمة» ثم سألت «جعفر» أو «جعفرة» فقالت بلهجة باردة «نعسانة»: صبي، ولم أصدق وظننت أنها تريد أن تطرد الفشل، قُول يا سيد بلا طول سيرة نزلت للمستشفى لفين؟؟ للمستشفى أيوه! وإذا «عفّت» في حالة يُرثى لها من التعب والسهر والبكاء، وإذا في السرير الصغير إلى جانب تخت الوالدة قطعة من اللحم لها رأس طويل مثل القادوس، وأنف مثل أنف «مهاوش»، والحاصل هيئة مخيفة، ثم أُحضرت الأم من غرفة الولادة ووُضعت في التخت بجانب ولدها، وهنا انتهى الفصل الاول وأدرك شهرزاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح.

اليوم الثاني والثالث والرابع لاشيء يُذكر سوى أن الرأس القادوس تغيّر وأخذ طبيعته، والوجه راق وظهرت معانيه، فمن قائل إنه يشبه أباه، ومن قائل: لع يشبه أمه، وآخر لع يشبه خاله، لع خالته، لع سيده، لع ستّه، لع عمه، لع عمته، لع ابن عمه، والحاصل كلّما نظرت في وجه هالصبي رأيته يشبه واحداً ثمّ يشبه الآخر، والذي رأيت أنا فيه أن راسي مركب عليه وجه سامية يساوي جعفر، آ، اسمع فُتّك بحكي، ولادة جعفر كانت كما يلي: الجورة سنطور، مصران الصرّة وتر عود، صوت بكائه ناي «توفيق جوهرية»، القابلة القانونية «ماري عكاوي»، التمرجي «تيسير فيض الله جابر»، المكاغي «محمد عطيّة»، وأدرك شهرزاد الصبّاح وسكتت عن الكلام المباح.

وفي اليوم الخامس أيها الحاج السعيد قلنا للدكتور حجّار ان يُطَهّره على سنة الله ورسوله، فلم تمض ساعة من الزمان حتّى صرخ صوت سيكاه وآخر نهاوند، وقُضيَ الأمر ومضى ثلاثة أو أربعة أيام وإذا بها على أحسن ما يرام، واستراح من هذه الغلبة وأراحنا معه، وهذا كان عين الصواب وأنف الحكمة، ولا نشك في أنّ سيدي الوالد يسرّه هذا الخبر جداً.

وفي اليوم التاسع خرجت أم جعفر وولدها معها، وهي والحمد لله تعالى على أحسن حال وانعم بال، وكنا قد خابرنا أبا حافظ في نابلس فأرسل لنا الوالدة وهي لا تزال مقيمة عندنا، وعند وصولنا باب البيت وجدنا سيّارة قد اقبلت من نابلس وفيها أم حافظ وحافظ ووائل ونبيهة ونزيهة، وحنان وفدوى وأديبة وفتايا أتى بهم يوسف، ووصلت السيارتان معاً وطلع جعفر إلى دار أمه وأبيه محاطاً بقبيلة أو عشيرة من أهله الأقربين، وها هو اليوم بحمد الله يرضع وينام وينام ويرضع، حليبه في بركة وعافية ونومه هنيء وطعامه هنيء، يبكي على الوقت ويرضع على الوقت وينام على الوقت ويفيق على الوقت، فهو على حَدّ قول عمته أديبة ابن إذاعة و٢٤ قيراط.

اخبار متفرقة:

١ – جاءت الأخبار إلى نابلس بولادة جعفر فنهض فاروق على رجليه ومشى لليوم الأول بعد زحفه الطويل.

٢ – بكت أم داود فرحاً بقدوم ولدنا جعفر فمسحت «نجلة» دموعها.

٣ – جاء تلغراف وصولكم إلى المدينة يوم ولادة جعفر.

٤ – جاء تلغراف رجوعكم إلى مكة يوم خروج جعفر وولادته من المستشفى.

المطلوب منكم يا حجاج:

أولاً: عند الطواف وعند الصلاة وعند بئر زمزم وعلى جبل عرفات وفي كل الأماكن التي تتمّمون بها حجكم، المطلوب منكم جميعاً جدّه وعمه وعمة أبيه وابنة عمة أبيه أن يدعو له الدعوات الصالحة ولنا بالمعيّة.

ثانياً: هدية طاسة حمام وعطر ورد وتمر لأمه منشان الحليب وكحل للعينين مع مكحلة لطيفة وميل، ولأبيه طاقية ومسبحة عقيق.

ثالثاً: السلامات لجميع الموجودين معكم من النابلسية مع تقبيل أيادي العمة كريمة وسيدي الوالد.

كاتبه إبراهيم طوقان، الحضور: فوزية، سامية، أديبة، يوسف نايم ويشخر، جعفر شرحه نايم.

ملاحظة: *إحياء لذكرى جدّي أبو الوالدة وخال الوالد قررنا أن نضيف اسمه إلى اسم جعفر فصار جعفر أمين طوقان.*

إبراهيم طوقان

****

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

١٩٣٨/٤/١م

الإذاعة اللاسلكية - القدس

فدوى:

بدك كتابين لنوال؟ حَبْتين، حَبْتين، حَبْتين.

وصلت ورقة نصف جنيه ثمن الكتابين: «حياة محمد»، و«منزل الوحي»، وثمنهما معاً في الحقيقة ٥٧ قرشاً، وأجرة البريد ٦ قروش، ضربت تلفون لمكتبة بولص سعيد وأعطيتهم عنوانك (فدوى عبدالفتاح طوقان) ليرسلوها إليك بالبريد راساً وقريباً جداً يصلان، وما عليك إلا أن توصي الحاج رحمي ليرقب بريد الصبّانة ويأتي بالكتابين إليك.

فرقية المبلغ ١٣ قرشاً إذا أمكنك أن تحصّليها فخذيها لك حلال زلال (١٠ قروش أنبوبتين كولينوس) و٣ قروش بكيتين دخان حنفليش للحاج رحمي. مليح.

جعفر مبسوط والحمد لله، المرأة العمصاء التي من دار الصمادي جاءت قبل سفرنا وما أمكنها إلاّ أن تضع بوزها على خد جعفر وتفرك عمصتها بأنفه فأصابه زكام، وأما أم جعفر فَرَوَت لي الواقعة في الطريق وأخذت (تنسف) لها طول الطريق ولا يزال النسف يتجدد كلما عطس جعفر عطسة أو خنفَر خنفرة.

تقول أم جعفر إن العمصاء بوّزت وزعلت عندما حاولت أن تأخذ جعفر منها وتمنعها من تقبيله وهذا شيء غريب! فهو ابننا ولا نريد أن يقبّله بوزٌ مثل بوزها أو أن تفرك أنفها المسموط بأنفه، أو أن تدني عينيها العمصاوين من عينيه الجميلتين.

وجعفر صار له عقل، فهو يصيح عندما يرى البزّ، ويحدّق النظر في ألوان المخدّات، ويتحدّث لنفسه بمثل بُغام الحمام عندما يكون في العربة مستيقظاً.

أنا وأم جعفر وجعفر مشتاقون لكم جميعاً.

****

إبراهيم طوقان

القدس

١٥ نيسان، ١٩٣٩

أختي فدوى، دفع الله عنها الكرب والبلوى:

أصبحت اليوم فخاطبت محل بولس سعيد بالتلفون، وطلبت منه أن يبعث إليك بديوان الشاعر إسماعيل باشا صبري (وهو غير صبري حسن آغا).

الديوان صغير، ولكنّه افضل من ثلاثمئة ديوان صدرت حتّى اليوم، ومن مميزاته أنه صافي الديباجة، لا يمكن أن تجدي فيه كلمة واحدة في غير موضعها، كما أن الشاعر لم يكن ينظم لينشر ولكن ليُرضي شاعريته العظيمة، وكانوا يسمونه شيخ الأدباء، وفي الحقيقة أن كلاً من شوقي وحافظ (وخصوصاً شوقي) كان يتأثر بأدب صبري وشاعريته، وأذكر انني أنا وأحمد لم نكن فيما مضى نقع على قصيدة أو أبيات للباشا إلا حفظناها عن ظهر قلب لحلاوة شعره وخفّته على القلب.

وهذا هو الديوان بين يديك يصل إليك مع هذا الكتاب أو بعده بقليل فاقرايه، واطيلي النظر فيه، واحفظي منه ما استطعتِ فإنه جليل الفائدة كثير العائدة والسلام.

أُخوك أبو جعفر.

قبلات يد وخد للسيدة الوالدة.

والسلام على أهل الدار جميعاً الصغير منهم والكبير والمقمّط بالسرير.

سلامي وتحياتي للجميع.

****

رسائل إلى إبراهيم
هذه المجموعة تضم :

(١) رسالتين من السيد عبدالفتاح طوقان «والد الشاعر» إلى اسرته أثناء أسره في العام ١٩١٩م.

(٢) رسالة من الدكتور وجيه البارودي «صديق الشاعر» مؤرخة في العام ١٩٣٦م.

(٣) رسالة من أحد أصدقاء (أو اشقاء) الشاعر مؤرخة في العام ١٩٣٦م.

كتب هذه الرسالة السيد عبدالفتاح طوقان أثناء أسره، على ورقة مطبوع في أعلاها باللغة الانكليزية:

سجناء حرب

رقم ٢٣٣٣/١٥

ومختومة بخاتم البريد المصري (أو الإنكليزي في ذلك الوقت).

الرسالة كما وردت:

عن مصر الجديدة ٤ ذو القعدة ٣٣٧ الموافق ٢ أغسطس ٩١٩ نهار الجمعة إلى نابلس:

سيدي الأخ الحاج حافظ افندي طوقان المحترم

سلام وتحية وإكرام، أخذت تحريركم المؤرخ في ١ ذو القعدة سنة ٣٣٧ وما به صار معلوم، تعرفون انه أخذتم تحريركم من أبو سعدة لا مانع، وتعرفون أن الحاكم حرّر تأكيد ثاني بالإفراج عنا، نتأمل من الباري تعالى كل خير، تعرفون أن ولدنا إبراهيم حضر من المدرسة مدة التعطيل، عَرّفوه بصورة دايمة يتدارس هو وأخوه أحمد سوية، ويتكلموا سوية مع بعضهم باللغة الإنكليزية، ثم يلزم أن يعثروا على معلم مدة الفرصة والعطلة، بحيث عند فتح المدرسة يكون أحمد أول من يتقيد ويحصّل الشهادة.

إلى نابلس بخطي

مطابع جناب سيدي الأخ الحاج

حافظ افندي طوقان المحترم

****

الرسالة الثانية تحمل عنوان محررها نفسه والذي ورد في الرسالة السابقة.
عن مصر الجديدة ١٧ صفر ٣٣٨ الموافق ١١ نوفمبر ٩١٩ نهار الإثنين إلى القدس.
جناب حضرة ولدنا العزيز أحمد أفندي طوقان حفظه الله تعالى:

بعد الرضا عليكم مع تقبيل وجناتكم، والثاني أخذت تحريركم الثالث المؤرخ في تشرين ثاني وتعرفونا بها أنكم أرسلتم لنا تحريرين وبه ذكرتم لنا أحوال المدرسة ودرجة انتظامها والصف الذي دخلتم به لآخر ما ذكرتموه، وبوقتها أرسلتُ لكم جواب على التحرير الأول والثاني عسى أن يكونوا وصلوكم، الآن تطمّنوني عن صحتكم وصحة أخيكم إبراهيم، فحمداً لله وسجداً إليه شكراً، ربنا يرضى عليكم ويوفقكم لما يحبه ويرضاه، ثم يا ولدنا يلزم بصورة دايمة تجتهدوا على دروسكم أنتم وأخيكم، واتلو تحريري هذا على أخيكم إبراهيم واعملوا على موجبه، حتى أكون مسرور منكم ومرتاح فكري عليكم، الأول أن تكونوا أولاد مربّيين نشيطين مجدين مجتهدين، ثانياً أن تكونوا معتمدين على أنفسكم ومشهود لكم بالأخلاق الحسنة، ثالثاً يلزم تكونوا مطيعين لأوامر المعلمين وتكونوا بغاية الامتزاج مع التلاميذ الذين بمدرستكم وعلى شرط من ذوي الأخلاق الحسنة، ويلزم تتجنبوا كل شيء تخرج منه الرذيلة، ويلزم تتمسّكوا بالفضيلة والمبادئ الشريفة، وبهذه الصورة تكونوا أصبتم كل الإصابة، وبهذا يتم فرحي وتكونوا خفّفتم عن مصابي والامي، واطلب منه تعالى أن يجمعني بكم عن قريب بجاه النبي الحبيب إنه سميع مجيب.

كذلك قبلاً أرسلت لأخيكم إبراهيم تحرير عسى يكون وصله.

والدكم

عبدالفتاح طوقان

نومـــرو
٦٦٧٠٨

هذه الرسالة مرسلة إلى القدس/ الكلية الإنكليزية «جناب حضرة ولدنا أحمد أفندي طوقان النابلسي أحد تلامذة الكلية الإنكليزية حفظه الله».

****

أوتيل الأهرام

بيروت - شارع فوش

لصاحبه (الحاج أحمد المهنا المغربي)

صاحب مطعم قهوة الحاج داود

في ٨ آذار، سنة ١٩٣٦

الأخ إبراهيم

تأخرتُ عليك بالجواب لكثرة ما وقع عندنا من الحوادث المؤلمة التي تتفتت لها الأكباد من شدة المظالم التي ارتكبتها السلطة المنتدبة في سوريا وخاصة في حماة.

نرجع إلى حديث الشعر والأدب فأقول إنّ أم اسامة قد مَزّقت الديوان المخطوط كل كل مُمَزّق، وأنا الآن انقله من جديد حسب ما ترويه الذاكرة، والذي قد نسيته فقد أصبح في عالم النسيان.

والآن أبعث إليك بأبيات بعثتُ بها إلى رشيدة الحلبية:

تاملتُه في عنفوان شبابهِ
يذوق عذابي او يذوق رضابي

وعاهدته العهدَ الأكيد ولم تكنْ
خيانتُهُ عهدَ الهوى بحسابي

اليس هو الصبُّ الذي جعل الهوى
جناحاً له من شعره فسما بي

لقد خان عهدي في مهاوٍ لها الصِّبا
وليس لها سحري وحسنُ خطابي

انا الظبْيَةُ الأدماءُ والقمرُ الذي
إذا غبتُ جَنّ الكونُ بعد غيابي

فكيف قبولي بالحبيب وقد اتى
ثُمالةَ اقداحٍ وسُؤرَ كَعاب
وللزهرة الاولى تكبّدتُ لوعتي
وبالزهرة الأولى وعدتُ شبابي

وعندما أنتهي من نقل الديوان سأبعث بنسخة خطية لك، لتَمرّ بقلمك عليها فتشطب، تُشذّب، تحسب، عادتنا المرعية الإجراء.

لا تنس ذلك يا إبراهيم.

سأرجع غداً إلى حماة.

الدكتور

وجيه البارودي

****

القدس ٢٧/٨/١٩٣٦م

أخي الحبيب إبراهيم:

أقبلك واشتاقك.. وبعد أتمنى أن يصلك هذا الكتاب وأنت هادئ الأعصاب طيب البدن والصحة، ولا ريب أن هواء الصحراء سيعيد إليك نشاطك وزهوك.

وصلك كتاب مستر رندل، ولا ريب أنك تقدر موقفه وشعوره ولا أظنك إلاّ نازلاً عند نصحه ورجائه ، وأحباؤك ومريدوك ينتظرون رجوعك بفارغ صبر.

وأنا أعدك وعداً شرفاً! انني سأنفّذ ما وعدتك به، والله يعينني فلا تتأخر.. نداري الأمور في غيابك إلى أن تعود.. الجميع يهدونك السلام ، والدي يُقبّلك وينتظر رجوعك يا بارد.

سلامي وأشواقي إلى حضرة الأخ أحمد بك.

اخوك

****

رسالة يتيمة غير مؤرخة

والشاعر فيها مجهول مكان الإقامة.

موجهة إلى شخص كنيته (أبو عفان).

هذه الرسالة «غير مؤرخة»

أخونا أبو عفّان، حفظه الله آمين:

قرأت المقامة الفتائية، ووصفك المسهب لما حدث لك وللقطط في الدار من جرّاء الجوع، وأرجو وقد عادت السيدة العسقولة إلى نابلس أن تكون قد بلغت مرادك، وضربت على يدها البخيلة بيد من حديد، ذكّرتنا بسقف الحيط، فجدّدنا البكاء عليه وابتدأنا برثائه فقلنا:

اوّاهُ يا صِديقُ سَقْفُ الحَيْطِ

قد كنتَ في دنياكَ رُفْعَ الخَيْطِ

ثم غلبَ علينا النحيب فلم نستطع تتميم المرثية، ولعَل فدوى تُسعفنا بشاعريتها، ولعلّك تسعفنا بشاعريتك فنوفّي الفقيد حقّه في الرثاء.

الباب الثاني:

لم يزعجبني ما جاء في كتابك من أقاويل بشأن تقرير مصيرك فأنا أتوقع مثل هذه الترّهات دائماً، فلا تبتئس بما كانوا يصنعون، كتبت للوالد تفصيلاً هذا الصباح وأرسلت الكتاب مع يوسف ليودعه البريد.

ثم إن «جميل علي» بلّغنا رسالتك أنا وأحمد، وكلانا معك ومن رأي واحد، وما دمت عازماً على إتمام تحصيلك للطب، فجامعة بيروت الأميركية، لا يوجد اليوم أقوى منها في هذا الفرع، وأنا أعلم أنها أضعفت سائر الفروع في سبيل ترقية كلية الطبّ فيها، والتمرين الذي يتاح للطلاب هناك لا يتاح لأي طالب في أعظم جامعات أوربا.

بقيت مسألة فساد الأخلاق، طبعاً هناك أدلة عليها، وهي أدلّة حية منها: أنا وأحمد وقدري.... وكلّ منا كما يشهد الجميع قطّاع طرق وفُسّاق وفجرة! ضاعت أخلاقنا

وتقاليدنا الدّينية بسبب الجامعات.. انا اقمت تسع سنين في بيروت.. واحمد وقدري كلٌّ خمس سنين، وهذه مدة كافية لتُغيّر أخلاق الأنبياء وتفسدها والعياذ بالله، تطلب رأيي في المسألة، هذا هو:

أرسلْ إليّ صورتين لجواز السفر وشهادة ميلادك، أو ما يقابلها (شهادة من مختار الحارة) ولا لزوم لأن تسأل بعد ذلك عن شيء، ولا تستطلع راي أحد، لا يزعجك احد بأفكاره المتعفنة.

هذا هو المختصر المفيد، وفقك الله، فأنا أشّد الناس حاجة إلى طبيب من العائلة يُطبّبني بالمجان.

اخوك

ابو جعفر

****

«ملحق (أخير)»

بعد كتابة ما تقدم كان الأخ ابو العبد قد عاد من نابلس وحدّثني بما جرى بينك وبينه من الحديث:

١ - مسألة تحصيل الطبّ في بلاد الإنكليز لا يجب أن تتقدم على التحصيل في بيروت أولاً، واكرر ان التمرين الذي يتاح لك في بيروت لا يمكن أن يتاح في أكبر جامعات أوروبا.

٢ - الهندسة الصناعية: - كلام فالصو - إنّ ثروة البلاد الطبيعية قد سبق وأصبحت امتيازات في أيدي شركات اجنبية، ثم إنّ مثل هذا العمل يتطلب رؤوس أموال تتكون من مئات الألوف من الجنيهات، اي رؤوس أموال من تعاون أغنياء البلاد وهذا من أحلام الشرق التي لم يحققها الله. وعندك مثال على ذلك المهندس الصناعي سامي وفا الدجاني يشتغل موظفاً في قلم الإحصاء التابع لدائرة المهاجرة، فانظر ما علاقة اختصاصه بوظيفته.

٣ - إذا عزمت فتوكل على الله ، لا تتردد، لا يأخذك واحد بكلمة ويجيبك آخر بكلمة، طبّ اخلَص. وبهذا أستطيع أن أقف بجانبك وأساعدك إلى النهاية رغم أي صعوبة، أما إذا أخذت بالتردد والشروط فمسألة فيها نظر.

إبراهيم طوقان

****

قصائد شاعر الوطن
إبراهيم عبدالفتاح طوقان
في جريدة فلسطين

مرتبة حسب التسلسل التاريخي خلال الأعوام
١٩٣٠ - ١٩٣٢ - ١٩٣٣ - ١٩٣٤م.

جريدة فلسطين

١٩٣٠/٧/٢٠

قصيدة لإبراهيم طوقان ألقاها في الحفلة الكبرى التي اقامتها الجمعية الإسلامية المسيحية في رام الله لوفود الدول العربية :

لَـجْنـةٌ إثْـرَ لجـنـةٍ إثـر لـجْـنـة
كَلَّفـوا «الخـاطرَ الكريم» بـهـدنة

ولجـانٌ تـلي واخـرى تُـوَلّـي
هكذا يُبـدع السـيـاسيُّ فنّه

حـسْـبُنا من خـصـالهم انْ عـرَفْنا
ايهـذا الخِـداعُ انّكَ مـهـنه

غـيـرَ ان المكروه ياتيكَ احـيـا
ناً بخـيـرٍ كـالخـيـر ياتي بمحنه

مـثلمـا تقـصف الرياحُ ولا تَنْـ
ـفَكُّ، حـتى تسـوق للجـدب مُـزْنه

مـرحـبـاً بالوفـود شكراً لقـومٍ
جـمـعـتْـهم خطوبُنا المرجـحَنّه

نحن لولا الخطوبُ مـا جـمـعَـتْنا
بعـد طول الأعـمـارِ إلا الجنّه

****

«فلسطين»

٥/٨/١٩٣٠م

في «وديان» رام الله

اثناء نزوله في فندق (حرب بلاس هوتيل)

لا تَغْبــانَّ بطيف الهمِّ إن طافــا

واقــصدْ مـصـايفَ رامَ اللهِ مُـصطافـا

وانزلْ بفندق حــربٍ إنْ نزلتَ تجــدْ

جنَّاتِ عــدنٍ على جنبيــه الفــافـا

لكل حُــسنٍ نصــيبٌ من بدائعــهِ

شــاقت عــيوناً واسـمـاعـاً وانافـا

غــرائبُ الحـسنِ انّى شـئتَ مــاثلةٌ

تَحــار فــيــهنَّ انواعــاً واصنافـا

٭٭٭٭

نزلتُ فندقَ حــربٍ فــانثنتْ هرباً

عني الهـمومُ وعـاد الصـفوُ اضـعـافـا

ذكــرتُ فــيــه لآذارٍ فــواضلَهُ

من بعــد مــا ســامني تمّوزُ إتلافــا

قــصــرٌ اطلّ على «الوديان» مــرتفـعــاً

لو كــان ينطق نـادَى: «هذه يافــا»

تخــالُهُ وهْو راسٌ في قــواعــده

إذا دجــا الليلُ بالانوار رجّــافــا

لي ليلةٌ من ليــالي الأنس واحــدةٌ

مــا ضرّ لو اصبحتْ في العـمـر آلافـا

شــهدتُ فـيهـا وجوهَ البِشْر باسـمـةً

وفي «مــحــارب» روض اللطفِ مِـئْنافـا

والغـــيـــدُ لؤلؤةٌ في جنب لؤلـؤةٍ
جـعلْنَ من غـرفٍ في القـصـر أصـدافـا
برزنَ بعـــد طواف الكاس مـــتـــرعـــةً
يجبنَ عـــازفـــةٌ تشـــدو وعـــزّافـــا
وهبُّ للرقص فـــتـــيـــانٌ فلستَ ترى
إلاّ مـــعـــاصمَ قـــد رنّحْنَ أعطافـــا

☆☆☆☆

اقـــبلْ على كلّ مـــشـــروعٍ رأيتَ بهِ
خـــيـــراً لنفـــسكَ والأوطان قـــد وافى
والمالُ مـــا دام للأوطان مـــرجـــعُـــهُ
لا تدعْ إنفـــاقَـــه في اللهـــو إســـرافـــا

☆☆☆☆

نشرت «فلسطين» بتاريخ ١٩٣٢/٨/٢٨ قصيدة إبراهيم طوقان بذكرى يوم حطين ألقاها بالنيابة عنه السيد يوسف طوقان والتي مطلعها:

عَـــــــــرِّجْ عـلـى حـطـين واخْـ
ـشَعْ ، يُشْجِ قلبَكَ مـــا شـــجـــاني

****

«فلسطين»، ١٩٣٣/٤/٢٦

العدد ٥١ - ٢٣١١ - ص ٥

«إلى الكاتب الأديب أبي الخطاب ذكرى عشية زهراء»

احْـبِسْ يـراعَكَ يـا ابـا الخطّابِ
قـد حَلّ بي مـا لم يقع بحسابي
تلك القصيدةُ لم اقلْ ابياتَها
لكنها لمزوّرٍ نَصّاب
هـذا ابـو سلمى ولا والله مـا
نكا الجروحَ سـواه من أصحابي
هيهات أن يَخفى عليّ وكلُّهُ
قلبٌ، بلا بابٍ ولا بَوّاب
ويلٌ لـه مـا انفكّ يُوقظ راقداً
ويثير اشواقي إلى احبابي

✡✡✡✡

هل كَفّر كنّةُ مُرجِعٌ لي ذكرُها
ما فاتني من عنفوان شبابي
أم في صباياها وفي رُمّانها
ما يبعثُ المدفونَ من آرابي
لو تنفع الذكرى ذكرتُ عشيّةً
زهراءَ بين كواعبٍ اتراب
فيهنّ اسرةُ القلوبِ بحُسنها
ودلالها وحديثها الخلاّب
روحٌ اخفُّ من النسيم وخاطرٌ
كالبرق مقرونٌ بحُسْن جواب
غُرٌّ لثناياها واشهد انها
ممزوجةٌ رَشَفاتُها بشراب

نُلقي أحاجي بيننا فتثيرنا
للضحك خاطئةٌ وذاتُ صواب
ونُردِّد الألحانَ بين شجيّةٍ
تُجري مدامعَنا وبين عذاب
ولقد نُعرِّض باللقاء لموعدٍ
فيها ونسلكها طريقَ عتاب
قمنا وقد سقط الندى وتزاحفتْ
سُجُفُ الغمامِ ثقيلةَ الأهداب
تُخفي محيّا البدرِ ثم تُبينُهُ
عبثُ المليحةِ دوننا بنقاب
وجَفَتْ مضاجِعَها الجنوبُ وملْؤها
خفقانُ مضطربِ الهوى وثّاب
بتنا على صفوٍ وخوفِ تَفرّقٍ
للعاشقين مُهَيّئِ الأسباب
نَيْسانُ هان عليَّ حكمُكَ بالنوى
لَمّا تحطّمتِ المنى في آب
يا ليت من فجعت فؤادي بالمنى
لم تُبقِ لي ذكرى تُطيل عذابي

نابلس

إبراهيم طوقان

ملاحظة للمؤلف: هذه القصيدة مثبتة في ديوان إبراهيم صفحة ١٣٠ باستثناء الأبيات الخمسة الأولى، ونوردها كاملة كما نشرت في جريدة فلسطين.

****

نشــرت فلسطين لإبراهيم قـصـيـدة (مناجـاة وردة) العـدد ٦٤ - ٢٣٢٩ بتـاريخ ١٦/٦/١٩٣٣، والقـصـيـدة مثبـتـة فـــي ديـــوان إبراهيـــم طوقـــان ص ٩٥ - ٩٦، ومطلع القصيدة:

جنـى علـيكِ الحـــــسنُ يـا وردتـي
وطـيـبُ ريّـاكِ فـــــذقتِ الـعـــــذابْ

****

فلسطين ١٩٣٣/٧/٣م

العدد ١١١ - ٢٣٧٦، ص ٣

«إعلان الشعراء»

أنشد إبراهيم طوقان في المعرض العربي بجانب (الصابون العجيب) الذي يعرضه هذا الإعلان:

صابونُنا يا عذارَى
حيّا الهوى والديارا
شتّى الضروبِ يحاكي
زهرَ الرُّبى والثمارا
يا من رأى التين في الرَّوْ
ضِ عانقَ الجُلّنارا[1]

✡✡✡✡

طِيبُ القرنفلِ عندي
يا ناسُ بل طِيبُ ليلَى
فمَن تنشّقَ منهُ
يَمِلْ إلى العشق مَيْلا
يهدي القلوب نهاراً
ويرسل النور ليلا

✡✡✡✡

ابا شفيقٍ[2] تَقدَّمْ
قم والتمسْ طلباتِكْ
لولاك يا نورَ عيني
لا لم ابغِ وحياتِك

إنـي سـأقـصـر طَرْفي
فَـنـادِلـي ظَـبَـيـاتك

☼☼☼☼

لـم يـبـقَ لـي مـن غـرامـي
إلا المـنـى يـا صـبـايـا
قـد نبتُ غـيـرَ بـقـايـا
فـلا تُـذنِـبَـنَ الـبـقـايـا
«قـدري[3]» اعـنـي عـلـيـهـنْ
ـنَ يـا رفـيـقَ صِـبـايـا

****

(١) الجلنار: زهر الرمان.
(٢) ابا شفيق: ابو سلمى.
(٣) قدري: قدري طوقان ابن عم الشاعر وهو عالم فلسطيني معروف.

ونشرت فلسطين قصيدة «عهد الجدود» بتاريخ ١٩٣٣/٩/١، العدد ١٦ - ٢٤٣٥، ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٣١ - ص ١٣٢ .

عهدَ الجدودِ سقاكَ صوبُ عهادِ
ورجعتَ للأحفادِ بالإسعادِ

ووجدنا أن آخر بيتين غير مثبتين في القصيدة وهما:

فإلى الأمام بني الكرامِ تَقدَّموا
وابنوا حصونَ المجد كالأجداد
والعزُّ في ناديكمُ ما زلتمُ
متضامنين لكم عُلاهُ ينادي

☼☼☼☼

نشرت فلسطين قصيدة «نسر الملوك» المثبتة في ديوان إبراهيم طوقان ص ١٣٨ - ١٤٠ بتاريخ ١٩٣٣/١٠/١٩، والقصيدة مطلعها:

شيِّعي الليلَ وقُومي استقبلي
طلعةَ الشمسِ وراءَ الكرملِ

****

«فلسطين»

١٩٣٤/٤/٢٢م

«سِرْ يا أبا الغيث»

بمناسبة حفلة تكريم شاعر سوريا (الزركلي) في نابلس قبل سفره إلى مصر:

فـراقُـكَ فـي المطلبِ الطيِّبِ
فـشـرِّقْ إذا شـئتَ او غـرِّبِ

وسِـرْ يـا ابا الغـيثِ عن منزلٍ
رحـيـبٍ إلـى مـنـزلٍ ارحـبِ

ومـاذا يـضـركَ الاّ يـكونَ
دمـشقَ وعـصـفـورةَ النيـرب

فلسطينُ بعضُ دمـشق الشـامِ
ووادي الـكـنـانـةِ مِـن يـثـرب

ولـكنْ فـراقُـكَ اشـجى المحبُّ
وشـقٌّ الـوداعُ عـلـى المعـجَب

****

نشـرت فلسطين لإبراهيم قـصـيـدة تحت عنوان (فلسطين مـهـد الشـقـاء) بتـاريخ ١٩٣٤/١٠/١٩، والقصـيدة مثبـتة في ديوان الشـاعـر ص ١٤٧ - ١٤٨ والقاها في حـفلة افتتاح النادي الفلسطيني في بيروت ، ومطلعها:

إخـوانُـنـا اهـلَ الـوفـاءْ
اهـلَ المـودّةِ والـولاءْ

****

قصائد - شاعر الوطن
إبراهيم طوقان
في جريدة الدفاع

مرتبة حسب التسلسل التاريخي خلال الأعوام ٣٤ - ٣٥ وقصيدة عام ١٩٣٩.

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «ورد يغيض» بتاريخ ١٩٣٤/٥/٦ يوم الجمعة، العدد ١٠ ص ١ ، وهي مرثية في حفلة تأبين موسى كاظم الحسيني، والقصيدة مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٤١ – ١٤٢، ومطلعها:

وجهُ القضيّةِ من جهادكَ مُشرقُ
وعلى جهادكَ من وقارك رونقُ

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «أطلقي ذاك العيارا» بتاريخ ١٩٣٤/٦/١١ يوم الاثنين، العدد ٤٠ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٤٣ – ١٤٤، ومطلعها:

اطلقي ذاك العيارا
قَدكِ ضَيْماً واصطبارا

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «الشهيد» بتاريخ ١٩٣٤/٦/١٨ يوم الإثنين، العدد ٤٦ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٤٥، ومطلعها:

عبسَ الخَطْبُ فابتسَمْ
وطغَى الهولُ فاقتَحَمْ

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «الإيمان الوطني» بتاريخ ١٩٣٥/١/١٣ يوم الأربعاء، العدد ٢٣٠ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٤، ومطلعها:

ليت لي من جماعة (السارِ) قوماً
يتفانَوْن في خَلاص البلادِ

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «يا قوم» بتاريخ ١٩٣٥/١/١٨ يوم الجمعة، العدد ٢٢٦ ص ٥، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٣، ومطلعها:

هزلتْ قضيَتُكم فلا
لحمٌ هناكَ ولا دمُ

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «الشيخ المظفر» بتاريخ ١٩٣٥/١/٢٨ يوم الإثنين، العدد ٢٣٤ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٥، ومطلعها:

انظرْ لما فعل المظفَّرُ، إنه
نَفَعَ القضيةَ غائباً لم يحضرِ

☆☆☆☆

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «السماسرة» بتاريخ ١٩٣٥/٢/١ العدد ٢٣٨ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٦، ومطلعها:

امّا سماسرةُ البلادِ فعصبةٌ
عارٌ على اهل البلادِ بقاؤها

☆☆☆☆

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «أيها الأقوياء» بتاريخ ١٩٣٥/٢/٣ العدد ٢٤٠ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٧، ومطلعها:

قد شهِدْنا لعهدكم بالعداله
وختَمْنا لجندكم بالبساله

☆☆☆☆

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «زيادة الطين» بتاريخ ١٩٣٥/٢/١٠ العدد ٢٤٧ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٨، ومطلعها:

مَن كان يُنكر نوحاً او سفينتَهُ
فإن نوحاً بامر اللهِ قد عادا

☆☆☆☆

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «إلى ثقيل» بتاريخ ١٩٣٥/٢/١٧ العدد ٢٥١ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٩، ومطلعها:

انتَ «كالإحتلال» زهواً وكِبْراً
انتَ «كالإنتداب» عُجْباً وتيهاً

☆☆☆☆

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «تعزية مرفوعة إلى مقام البيت الهاشمي» بتاريخ ١٩٣٥/٢/١٩ العدد ٢٥٣ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٠، ومطلعها:

بـنـي هـاشـمٍ بـين المـنـايـا وبـيـنـكـم
تـراثٌ ومـــا تـغـــفـــو المنايا عن الوِثرِ

٭٭٭٭

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «غايتي» بتاريخ ١٩٣٥/٢/٢٥ العدد ٢٥٨ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦١، ومطلعها:

إنّ قـلـبـي لـبـــــــــلادي
لا لحــــــــزبٍ أو زعــــــــيـمِ

٭٭٭٭

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «مناهج» بتاريخ ١٩٣٥/٣/٣ العدد ٢٦٣ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٢، ومطلعها:

امـــــامكَ ايهـــــا الـعـــــربيُّ يومٌ
تشـــيب لـهـــولِهِ ســـودُ الـنواصي

٭٭٭٭

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «أنتم....!!» بتاريخ ١٩٣٥/٣/١٠ العدد ٢٩٦ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٣، ومطلعها:

انـتـمُ المخـلـصــــون لـلـوطـنـيّـــــه
انتمُ الحـــاملون عبءَ الـقـــضــيّـــه

٭٭٭٭

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «لمن الربيع؟» بتاريخ ١٩٣٥/٣/١٦ العدد ٢٧٤ ص ٩، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٤، ومطلعها:

ارأيــتَ ممــلــكــةَ الــربــيـــــــ
ـع يُعــيـــد رونقَـــهـــا الربيعُ

٭٭٭٭

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «يا حسرتاه» بتاريخ ١٩٣٥/٣/٢٢ العدد ٢٧٧ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٥، ومطلعها:

يا حسرتا ماذا دهى أهلَ الحمى
فالعيشُ ذلٌ والمصيرُ بوارُ

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «١٠٠٠» بتاريخ ١٩٣٥/٣/٢٧ العدد ٢٨١ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٦، ومطلعها:

ارى عدداً في الشؤم لا كثلاثةٍ
وعشرٍ، ولكن فاقَهُ في المصائب

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «نعمة» بتاريخ ١٩٣٥/٤/١١ العدد ٢٩٣ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٧، ومطلعها:

يقولون في بيروتَ أنتم بنعمةٍ
تبيعونهم تُرباً فيعطونكم تِبْرا

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «أيتها الحكومة» بتاريخ ١٩٣٥/٤/٢٥ العدد ٣٠٨ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٨، ومطلعها:

علامَ احتراسُكَ لا اعلمُ
وفيمَ احتشادكَ لا افهمُ

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «رثاء» بتاريخ ١٩٣٥/٤/٣٠ العدد ٣٠٩ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٩، ومطلعها:

ايها الموتُ ايُّ مجلسِ أُنسٍ
ووقارٍ عطَّلتَ بعد سعيدِ

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «القدس» بتاريخ ١٩٣٥/٥/١٠ العدد ٣١٨ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٧١، ومطلعها:

دارَ الزعامةِ والأحزاب كان لنا
قضيّةٌ فيكِ ضيَّعنا امانيها

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «شريعة الاستقلال» بتاريخ ١٩٣٥/٦/١٦ العدد ٣٤٨ ص ٦، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٧٢ ، ومطلعها:

يومٌ بداجيةِ الظلامِ ضياءُ
وبهاؤه للخافقين بهاءُ

✡✡✡✡

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة القيت في حفلة تأبين الشاعر عبدالمحسن الكاظمي بتاريخ ١٩٣٥/٦/١٧ العدد ٣٤٩ ص ١٠، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٧٤ – ١٧٥، ومطلعها:

سَلْ جنةَ الشعرِ ما الوَى بدوحتها
حتى خلَتْ من ظِلال الحُسنِ والطيبِ

✡✡✡✡

نشرت الدفاع يوم السبت ١٩٣٩/٤/٢٥ في العدد ٥٨٨ ص ١ أبياتاً من نظم إبراهيم طوقان استخدمها كاتب مقال في جريدة الدفاع في معرض رده على شاعر عبري يتخيل بأن فلسطين أصبحت (أرض اسرائيل):

سـمـعتُ بابيـاتٍ لكوهينَ ملؤها
اكـاذيبُ من سـيف الحـقـيـقـةِ تصـرعُ

يقــول: لاســرائيلَ كــانت بلادُكمْ
فـروحــوا ارحلوا عنهـا ليـدخلَ يُوشع

احقٌ لإســرائيلَ مــا تسلبــونَهُ
خـسـئـتم فـحقُّ العُـرْبِ اقـوى وانصع

فلسطينُ يا مــهـدَ الدياناتِ مـا الذي
اصــابكِ قُــولي مـا لعــينكِ تدمع

أجــيــبي لماذا انتِ واجــمــةٌ اسىً
وقُــولي لِمَ الاضــراب؟ هل هو ينفع ؟

بلـى إنه واللـهِ قـــد يكشف البَـــلا
فـتلتـفت الدنيـا إليـهـا فـتـسـمع

يجـيء غـــريـبُ الدارِ يطرد أهلَهـــا
ويلعب فـــيـهـــا كـيف شـاء ويرتـع

ويدخل «شــرعــيّــاً» وياتي (مُــهــرَّباً)
ومـــا مـعـــه إلاّ الســـلاحُ المفـــرقع

هُمُ النكبــةُ الكبــرى على كل كــائنٍ
هُمُ الخطر المنصبُ والشـــرُ اجـــمـع

يقــول هنا الفـــلاّحُ وهْو مـــشـــرَّدٌ
على الأرض : قُـولوا كـيف اعنو واخـضـع

إذا كان حقي عند «كوهينَ» ضائعاً

فحقّي لدى «جونْ بولَ» يا قومُ اضيع

سنضرب حتى نستردَّ حقوقَنا

وما شئتمو بالمضربين هنا اصنعوا

إبراهيم طوقان

نابلس

****

نشرت جريدة الدفاع لشاعرنا قصيدة «وليمة المعكرون» بتاريخ ٤/١٥ يوم الإثنين، العدد ٢٩٦ ص ٤.

«وليمة المعكرون»

أتُغريني بحبّ المعكرونِ
وتَنْصبُ لي الحبائلَ في صحونِ
وتطعمني الأفاعي ناهشاتٍ
فقل لي كيف تُهضم في البطون
فلا تركيبُ أمعائي حديدٌ
ولا في مِعْدَتي بعضُ الحصون
ولا هي منظرٌ فنقول.. ساءت
مذاقتُها، وسرّتْ للعيون
وما التزليقُ والزوغان منها
سوى طبعِ المراوغِ والخؤون
دعونا من وليمتكم، فإنّا
سمِعْنا عن ولائم (موسوليني)
فإنّ الجوعَ خيرٌ من طعامٍ
يجيء الموتُ منه على فُنون

إبراهيم طوقان

نابلس

****

أحاديث إبراهيم طوقان الإذاعية

مراجعة كتاب عبقر

قصيدة للشاعر شفيق المعلوف

صدر حديثاً كتاب عنوانه «عبقر»، وهي قصيدة تقع في نحو من ١٣٠ صحيفة من نظم الشاعر شفيق المعلوف. وفي الكتاب مقدمة بقلم والد الشاعر المؤرخ المعروف الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف، نستطيع أن نعتبرها مرجعاً موثوقاً لما قاله الكتّاب والمؤرخون والشعراء في لفظة «عبقر» وما يتعلق بها من الكهانة والعرافة والسحر.

ويقول الأستاذ المؤرخ: إن (عبقر) (اليوم لا نعرف عنها شيئاً إلا النسبة إليها في كل ما هو جيد... حتى الظلم ، إذ قيل فيه «ظلم عبقري»، وفي موضع آخر يقول في رؤية الجن:

«من مزاعمهم أنهم كانوا يرون الجن ويظاهرونهم ويخاطبونهم ، فقال سمير بن الحارس الضبي يصف جناً نزلوا به وهو يوقد ناراً لطعامه فدعاهم إلى الأكل منه فلم يجيبوه مما يدل على عدم اكلهم، فقال:

أتَوْا ناري فقلتُ مَنون قالوا :
سَراةُ الجنِّ ، قلتُ : عِموا ظلاما

وقلتُ : إلى الطعام ، فقال منهم
زعيمٌ : نحسد الإنسَ الطعاما

لقد فُضِّلتُمُ بالأكل عنّا
ولكنْ ذاك يُعْقِبكم سَقاما

وفي الكتاب صور فنية للرسام الإيطالي فرنكو شيني، وهي صور رمزية موفقة كل التوفيق ملائمة لمواقف القصيدة المختلفة، نشير منها بصورة خاصة إلى رسم البلد المرصود وعرافة عبقر. وهناك صورة فاتنة تمثل (اميرة الجنّ) عند الماء مستقبلةالبدر بجسمها الذي تستره غلالة شفافة تصف جسمها وتنمّ على محاسنه الكاملة وأجزائه اليانعة.

وحق لنا أن نفخر اليوم بما بلغه فنّ الطباعة العربية من إتقان في إخراج الكتب، يتجلى لنا ذلك في كتاب عبقر إتقاناً ونظافة وحسن ترتيب ووضوح صرف. على أننا لا نستطيع أن نكتم أسفنا من وجود جدول لبيان الخطأ والصواب في آخر كتاب صغير الحجم كعبقر. ولا ندري متى تتبرأ الكتب العربية من هذا العيب. ونتقدم الآن إلى القصيدة فنقول إنها تتلخص في رؤيا رآها الشاعر في يقظته – وكل ما في يقظاته رؤى – أقبل فيها عليه شيطان شعره يسير تحت غمامة، وكان الشيطان:

في فـــمـــه من سَـــقَـــرٍ جــذوةٌ
منهـــا يطيـــر الشـــررُ الثـــائرُ
ووجـــهـــه جـــمـــجـــمـــةٌ راعني
انيـــابُهـــا والمحـــجـــر الغـــائر
كـــانما مـــحـــجـــرها كـــوّةٌ
يُطلّ منـــهـــا الزمنُ الغـــابر

ويطير به شيطانه والشاعر متعلق بفقار ظهره إلى عبقر حيث العَرافة التي ولاّها الشاعر شياطينه، وإذا بهما أمام مدينة عامرة:

غـــمـــائمٌ زرقٌ على مـــتـــنهـــا
منـــازلٌ جـــدرانُـــهـــا تـــسطعُ
جـــهـــاتهـــا الأربعُ مـــرصـــودةٌ
تحـــرســـهـــا الزعـــازع الأربع

ورأى الشاعر عفاريت هذه المدينة وهي تدرج كالنمل على أصناف المطايا:

فـــمـــن يـــرابـــيـــعٍ ومـــن أنْـــعُـــمٍ
إلـــى ديـــوكٍ وعَـــظَـــايـــاتِ
من كل قَـــزْمٍ لا يمَسُ الـثـــرى
برجـــلـــه الصـــغـــرى المدلاّة
نشّـــابةُ القنفـــذِ مِـــزْراقُـــهُ
وترسُـــهُ ظهـــرُ السُلَحْـــفـــاة

وهذا المشهد يذكرنا بمشهد مثله في رواية «مجنون ليلى» لأمير الشعراء ، حين يكون المجنون هائماً على وجهه فيصل قرية الجن، ويرى فيها هؤلاء الأقزام والعفاريت تمتطي الزواحف.

ونعود الى الرؤيا فنقول: مثل الشاعر أمام عرافة عبقر، وهي عجوز شمطاء طواها الكبر:

تلفّ ثعـــبـــانـاً على وسْطهـــا
يكمن في نابيـــه كـــيـــدُ القـــدرْ
ينبـــعث الدخـــانُ من شَـــعـــرها
ويلتظي في مـــقلتـــيـــهـــا الشـــرر

فلما رأته دمدمت سخطاً لأنها لا تطيق مرأى البشر، وقالت له:

وددتُ يـــا غـــــــادرُ لـو انـنـي
اطـلـقتُ ثـعـــبـــانـيَ لا يـنـثـنـي
عـنـكَ فـــيُـــرديكَ ولـكـنـنـي
اخـــشى على الـثـــعـــبـان من غـــدركْ
فـلـيس هـذا الـصـلُّ بـالأفـــعـــوانْ
بـل انـــتَ يـــا إنـســـــــانْ
جـــــعـلـتَ نـفـــسَكَ اعـلـى
فــــي الأرض مـــــن ربِّـــكْ
مـــــــا دام حـــبُّ الـــذاتِ
يـــنـــخـــــــر فـــي قـــلـــبـكْ

ولا يُخفي الشاعر خوفه من الموقف، فيطلب إلى شيطانه أن ينتقل به من حفرة العرافة فقد شعر – وحق له أن يشعر – أنّ:

للـنفس في أوطانـهـــا حُـــرمـــةٌ
ضـــائعـــةٌ في غـــيـــر اوطانـهـــا

ويعطف شيطانه عليه فيُذهب روعه بزيارة أميرة الجن الحسناء الفاتنة:

حُلَلُـــهـــا كـــالضـــوء شـــفّـــافـــةٌ
عن بَشـــرةٍ تزيـد إشـــعـــاعَـــهـــا

كـــانما الشـــمسُ التي كَـــوَّرتْ

من حلقـــات الـنورِ اضــلاعَـــهـــا

وقد سمعها الشاعر تغني نشيداً عذباً يفيض بما يكنّه صدرها من العواطف فتقول:

مَـن لـي بـحـبٍّ نـورُه يـنـبـلـجْ

من شـررٍ مـحـتـدمٍ في الـمُـقَلْ

مـن لي بثـغـرٍ لاهب تنفـرجْ

ثغـرتُه عن شـعـلات القُـبَل

مـن لـي بذي قلبٍ خـفـوق اَلِجْ

في صـدره وإن يكن يـخـتـلجْ

لعاصف الموتِ اخـتـلاجَ الشُّـعلْ

مـا نفْعُ روحٍ خـالدٍ عـشتُ فـيـهْ

إنْ كنت لم أحـضن ولم أحـتَـضنْ

يا حـامل الجـسمِ الا اعطنيـهْ

وخـذْ إذا شـئتَ خلودي ثمن

روحيَ لا تبلى فـمن يرتضـيـهْ

احـمل مـا في نفـسـه من شـجن

وشـاحيَ الـناريّ من يشـتـريهْ

فـإنني ابيـعـه بـالكفن

وينصرف الشاعر مع شيطانه وهو في حيرة مما سمع ورأى ولسان حاله يقول: أننشد نحن البشر الخلود، وها إن عالَم الأرواح يتبرم أهله بخلودهم ويتمنون لو يكونون رهن الفناء، ويظل في حيرته حتى يمثل في حضرة الكاهنين سطيح وشقّ، فيجد سطيحاً كما وصفه المؤرخون القدماء:

مُـخـلَّـعٌ جُـرِّدَ من عظمـهِ

مُـذْ ربُّه قـال لـه كنْ فكانْ

رِخْـوٌ لـو التفَّ على نفـسـهِ

لخلْتَـه فـوق الثـرى أفـعوانْ

وأما الكاهن شق:

قـــد شُقَّ من اعلى إلى اســـفلِ

ولم يزل حـــيّـــاً بشطر الجـــسدْ

ويأنس بهما الشاعر وينتهز الفرصة لينقل عنهما حكمة يعود بها إلى عالمه فيقول:

يا كـــاهنَيْ عـــبـــقـــرَ هل حكمـــةٌ

أعـــدّها للـغـــد بين العـــددْ

فيقول له سطيح:

هيـــهـــات ان يـردعكَ الـزاجـــرُ

إن لم يكُ الزاجـــرُ من حكمـــتكْ

ثم يحدثه عن نفسه واختباره في الحياة ومصارعته للدهر حتى اكتفى كل منهما من مصارعة الآخر، وكانت النتيجة التي اكتسبها بالاختبار هي:

الحكمـــةُ الحكمـــةُ في بســـمـــةٍ

تَمـــخّضَ الهـــزءُ بهـــا في الشـــفـــاهْ

ويتحدث الكاهن شق عن نفسه وحياته ، ويرى أن نصف خلقته كافٍ له لاعتقاده انه لا حاجة للمرء بيدين اثنتين إحداهما تبني والأخرى تهدم، وأنه:

هيـــهـــات ان تســـتنيـــرَ عينٌ بعينْ

إن لم تكن إحـــداهمـــا مُـــغلقَـــهْ

وأما كونه بنصف لسان فقد أفاده السكوت، والسكوت أفاده الحكمة، وأما كونه بنصف قلب فقد أقنعه ذلك لظفره بالنصف النيّر:

لا كان قلبٌ نصفُه اسودُ

وهذا النصف المبتور من جسده إنما هو الأغصان الفاسدة، أو هو مصادر الشر ولله وحده الكمال.

وينتقل الشاعر إلى غابة الحُور، فإذا منهن أشباح قد نقنَ الهوى يحملن كؤوساً وهاجة لا خمر فيها. هؤلاء هنّ بنات الهوى في العالم الفاني قد ألقاهّن الله في الجحيم – كما قال له شيطانه – «وسامهّن الخسفَ والهوانا»:

يلغنَ في الجـــمـــر ويغْـــبِـــبْنَهُ
غَـــبَّـــاً ويرشـــقنَ الشـــيـــاطينا
ابرمْـنَ اهـلَ الـنـارِ حـــــتى إذا
عـــجُـــوا ببـــاب اللهِ شـــاكـــينا
زجّ بـهـنّ اللـهُ فـي عـــبـــقـــرِ
يـبلـو بـهـنّ العـــبـــقـــريّـينـا

وقد سمعهنّ الشاعر ينشدنَ في عذابهنّ فيقلنَ:

كـــان لنـا شـــعـــاعُ احـــداقنا
فـــاقـــبَلَ الـلـيلُ واطـفـــاهُ
والجـــســـدُ الـبـضُّ تـركـنـاهُ
تـدوســه اقـــدامُ عـــشّـــاقنا

✡✡✡✡

جُـــلاّسُنا مـــضَـــوْا واعـــراسنا
حـــجّـــبـــهـــا الموتُ وغـــشّـــاها
تَفـــرّقـــوا وانـحـطمتْ كـــاسُنا
والـكـاسُ – يا صـــاحِ – شـــربنـاها

ويجد الشاعر نفسه بعد ذلك وسط صحراء في عبقر ملأى بالجماجم والرمم البالية، ويخبره شيطانها أنها رفات الشعراء العباقرة، فإذا مات الشاعر منهم نقله شيطانه إلى هذه الصحراء. ويرى (لشدة ذهوله) هذه الأرواح تغلغل صاحية في الهياكل العظميّة وتعيش فيها بذكرى أحلامهم العذاب، ويسمعها تحتجّ على ما يصنعه الأحياء بعدها من تخليد ذكراهم في الهياكل الحجرية والأنصاب، وتقول للشاعر:

قُلْ لـلأُلـى يـزخــــــرف الـلـحــــــــودْ
إزمـــــــيـلُ حــــــفــّـــــارهـمْ
ارواحُـنـا تـبـنـي قـــــبـــــابَ الـخـلـودْ
بـغـــــيــــــر احـــــجـــــارهـم
وتـحــــــــــــــدج الـوجـــــــــــودْ
بـغـــــيــــــر ابـصـــــــارهـم

كل ذلك لا يسرّ العباقرة ولا يرضيهم، وإنما الذي يهز رفاتهم ويرون كلّ أماني الحياة تفترّ في ثغره:

ولا تـســــــتـطـيـبُ الـنـجـــــــومْ
غـــــــيــــــر تـهــــــالـيـلـهِ
ولـيـس تـبـكـي الـغـــــــيـــــــومْ
مـن غـــــــيــــــــر مِـنـديـلـهِ

إنما هو (الحبّ) هذا هو هناء الأرض:

والأرضُ إن كـــانـت جـحـــيـمـــاً لَهُ
وكــــان فـــيـــهـــا تـهـنـا الأرضُ

بهذا الختام يخرج الشاعر من قصيدته العبقرية موفقاً ظافراً.

موفقاً في اسلوبه وتنويع قوافيه وأوزانه، ظافراً بإبراز فكرته كما أراد لها أن تكون. فكتاب عبقر وناظمه الشاعر شفيق المعلوف كلاهما نفحة من عبقر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

****

حديث إذاعي

كان عدد «هنا القدس» الخاص بمدينة نابلس قد صدر وتداولته أيدي القراء، فلقيني صديق ظريف فقال: ما أراكم صنعتم شيئاً حين عرضتم مدينة نابلس في مجلتكم ولم تشيروا فيها إلى ميزّتين بارزتين من مزايا هذا البلد، قلت:.... عجيب... وما عسى أن نكون اغفلنا. قال: لقد اغفلتم الكنافة النابلسية فلم يرد لها ذكر، فخرج العدد تنقصه اللذة والحلاوة... ولم تخصوا الطائفة السامرية بكلمة أو رسم، فكان العدد خلواً من الظرافة والطلاوة.، قلت: هذا حق. أرجو أن أعوّض على القراء بملحق لمجلة «هنا القدس» يأتيهم عن طريق الآذان بإذاعة خاصة فنتلافى هذا النقص الظاهر، قال صديقي: وأفضل من ذلك بعد أن يكون الملحق عن طريق الأفواه، فالكنافة النابلسية لم تنل شهرتها بمجرد التحدث عنها أو وصفها، كما أن الطائفة السامرية لا سبيل إلى معرفتها تمام المعرفة إلا بمقابلة خاصة مع رئيسها والتمتع بحلو حديثه وانس مجلسه وأخذ المعلومات عن طائفته من فمه.

وهكذا لم يكن بدّ من ذهابي إلى نابلس في زيارة خاصة حققت فيها الغايتين معاً فأكلت ما تيسر من كنافتها بالنيابة عن جميع المستمعين، ونقلت إليهم حديثاً من رئيس الطائفة السامرية الكاهن توفيق افندي. وبيني وبين الكاهن توفيق معرفة سابقة، وكنت قد حضرت له مجالس كان فيها محور الظرف والأدب خصوصاً عندما كانت تنجلي عن مداعبات شعرية بريئة بينه وبين أحد الشعراء من مشايخ نابلس الظرفاء. وحسب المستمع من ذلك أن يعرف ما بين أهل نابلس وبين السامريين من المودة والامتزاج ورفع الكلفة. وفي الحق أن عادات السامريين الاجتماعية وتقاليدهم - بقطع النظر عن الشؤون الدينية طبعاً - فهم يتعاطون التجارة والصناعة كباقي الأفراد، ويشتركون في افراحهم وأتراحهم، ويتهادون الهدايا ويتبادلون الزيارات، وفيما عدا أهل السلك الكهنوتي منهم، فهم وأهل البلد سواء في ملابسهم وفي غدوّهم ورواحهم لا يفرق الغريب بين أحد منهم كما أن المرأة السامرية تلبس الملاءة وتلزم الحجاب، أما ما يتميز به الكهنة فهو شعرهم الطويل المجدول معقوصاً تحت عمامة حمراء، وهذه من الأزياء التي بقيت لهم من عهد العباسيين حين ميّزوهم كفريق من اهل الذمة بلون العمامة الأحمر.

لقيت الكاهن توفيق في دكان لأحد أفراد طائفته فتبادلنا التحية وقلت له إنني في زيارتي هذه لنابلس لا قصد لي سواك. قال: خيراً إن شاء الله. قلت: خير أريد لمستمعينا حديثاً منك أطلعهم فيه على ما تروقهم معرفته عن تاريخ السامريين وأحوالهم. قال: تفضل إلى منزلي حيث نشرب فنجان قهوة وأطلعك على بعض المخطوطات وتُدوِّن ما شئت تدوينه.

حيّ الياسمينة في نابلس - أيها المستمع الكريم - حي لا يمتّ بأقل صلة لهذه الزهرة الجميلة العطرة التي ينسب إليها، لعله سُمّي كذلك من باب تسمية الشيء بضده، فهو عريق في قدمه تنفذ إليه من طرق ضيقة وأزقة تنبعث منها الرطوبة ثقيلة مؤذية. ولعل بعضها لا يصح أن يطبّق عليها نظام إطفاء الأنوار فهي في ظلام دامس بطبيعتها لا ينفذ إليها في رابعة النهار بصيص من أشعة الشمس، ولا تدع رطوبة جدرانها وتكاثف أبخرتها سبيلاً إلى ضوء القنديل الضئيل ان يبرز من تلك الظلمات المتكاثفة.

في حي الياسمينة هذا وبين تلك الأزقة والأحواش تقع منازل السامريين، وفيها كنيستهم حيث تحفظ اقدم مخطوطه للتوراة عُرفت إلى الآن، أما أنا حين ذهبت مع الكاهن إلى منزله فلم أكن غريباً عن تلك المنعطفات بل كنت أسير فيها وأنا أعلم تماماً كيف أنقل خطواتي وأين أضع قدمي. ومرت بي خطرة من خطرات الطفولة العابثة حين مررت بفاخورة فذكرت كيف كنت أمر وبعض أترابي فنرى الأباريق الطينية مصفوفة على جانبي الحوض قد أخرجها الصانع لتهويتها قبل وضعها في فرن الفاخورة، فكنا نتخطّف زعابيب الأباريق الطرية ننزعها من مواضعها ونهرب بها تحت وابل من لعنات صاحب الفاخورة وشتائمه وأحجاره يقذفنا بكل ذلك جميعاً.

دخلنا المنزل صاعدين في درج قصير إلى ساحة سماوية، وجلسنا في غرفة تحتوي على مكتبة فيها كتب مختلفة منها المخطوط ومنها المطبوع، فعمد أحد أبناء الكاهن توفيق إلى بعض الكتب والدفاتر وأخذ يقرأ عليَّ بعض صفحات من التاريخ السامري. فكان مما اطلعت عليه أن يعقوب عليه السلام اختار نابلس لسكناه ثم خصّ بها أعزّ أولاده يوسف عليه السلام ونُقلت إليها رفاته من مصر ، ولا يزال قبره فيها إلى الآن. والسامريون في نابلس يتحدرون من صلب أفرايم بن يوسف عليه السلام، أما الكهنة فهم من سبط أخيه لاوي.

وللسامريين في نابلس آثار كثيرة، فمنها العمود الذي نُقش عليه عهد الملوك في زمن يشوع بن نون، ولا تزال آثار الدرج الموصل بين العمود والهيكل الذي على جبل جرزيم ظاهرة.

وفي عهد الملك الظاهر بيبرس تحولت كنيسة السامريين إلى المسجد المعروف اليوم «بالخضرة» وفيه الغرفة التي خلا فيها يعقوب يبكي ولده يوسف عليهما السلام.

والسامريون اليوم في نابلس لا بل في جميع انحاء المعمورة لا يزيد عددهم على مائتين وثلاثين نفساً ذكوراً وإناثاً، كباراً وصغاراً. ولا سبيل إلى تزايد هذا العدد إذا لم نقل إنه يُخشى عليه من النقص. فالسامريون لا تجيز لهم شريعتهم الزواج من غيرهم حتى ولا من اليهود، فأصبح النسل ضعيف البنية، وإذا علمت أن السامريين لعدة أجيال خلت كانوا يعمرون كثيراً من قرى نابلس: كعورتا وأمتين وبيت فوريك وسالم وروجيب وفرعطة وقيسارية، وأن منهم جموعاً كبيرة كانت في غزة ودمشق وفي العراق، وإذا علمت ذلك وعلمت أنهم تقلّص ظلهم حتى أصبحوا يضمهم كلهم حي واحد صغير في نابلس ادركت ما يهدد هذه الطائفة من خطر الزوال والانقراض. ولقد ذكر تاريخ الدول الإسلامية أسماء بعض السامريين الذين شغلوا بعض المناصب منهم: يوسف بن سعيد السامري، وصدقة بن منجي، ويعقوب بن غنايم، وكانوا أطباء درس الأول منهم صناعة الطب على تاج الدين بن أبي اليمن الكندي ، وشرح الأخير كتاب الكليات لابن سينا.

حدثني الكاهن توفيق قال: لم تفتر الحكومة البريطانية عن مساعدة الطائفة السامرية والعطف عليها، فقد حدث عندما أرادوا أن يجددوا بناء كنيستهم الحالية أن وجدوا بعض الصعوبة ، فأوصت جلالة الملكة فكتوريا الدولة العثمانية يومئذ بمساعدتهم وقدمت لهم منحة مالية لبنائها. واليوم وقد اضطروا إلى خروجهم من حيهم القديم إلى ظاهر المدينة وذلك على إثر الأضرار التي لحقت بمنازلهم في حي الياسمينة بسبب الزلزال سنة ١٩٢٧، وأصبحوا يخشون على توراتهم الأثرية الثمينة من التلف والضياع، وعندهم مايثبت أن هذه النسخة من التوراة يرجع عهدها إلى ثلاثة آلاف وخمسمئة وثماني وسبعين سنة، وأنها كتبت في جبل جرزيم بقلم أبيشوع بن بنحاس بن العازر بن هرون أخي سيدنا موسى الكليم عليهما السلام، ولغتها عندهم هي اللغة العبرانية الأصلية التي نزلت بها الألواح ، وتشتمل على الأسفار الخمسة الأولى، وهي: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية.

وأكبر أعياد السامريين عيد الفصح وعيد الصوم يليه عيد العرش، ولكل عيد طقوس دينية خاصة لها تراتيل بموسيقى متنوعة ، كما أن للأفراح والمآتم موسيقى خاصة بها، وهي ليست مسجلة ولكنها تتناقلها الأفواه ويتوارثها الخلف من السلف.

****

مراجعة كتاب :
«الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية»
للأمير شكيب أرسلان

«قدمت بين يدي هذا التأليف رحلة قمت بها من ست سنوات في أكثر أنحاء إسبانية لأقرن الرواية بالرؤية وأجعل القدم نداً للقلم، ونويت أن أجعل الرحلة أساس الكلام وواسطة النظام وأن أضم التاريخ إليها، وأفرّع التخطيط عليها».

هذه فقرة من مقدمة الكتاب الذي نراجعه هذه الليلة لمؤلفه عطوفة الأمير شكيب ارسلان عضو المجمع العلمي بدمشق، وهو كتاب: «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» وآثارها لم تزل مهوى فؤاد المؤلف منذ الصغر، وفي شروح هذا الكتاب ومتنه مايدل على ذلك ويؤيده، وإن من يدأب على الاتصال بفرع من الفروع ويوسعه درساً وتنقيباً مدة تزيد على أربعين سنة، ثم يتبع ذلك برحلة يتوثق بها من معلوماته ويجيل ناظريه في آثاره الباقية وتتقرى يداه رسومه العافية، مثل هذا جدير بأن يعتبر تأليفه مرجعاً موثوقاً ومصدراً يؤمن معه العثار والشطط.

وفي كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الضخم - وهي قريبة من الألف - أثر من الجهد الكبير الذي بذله المؤلف في وضعه، والعناية العظمى التي أنفقها في تحقيقه وضبطه، فالكتاب «مَعْلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود» وما قال عنه المؤلفون قديماً وحديثاً ، عرباً وإفرنجاً.

تقع مقدمة هذا الكتاب في أربع عشرة صحيفة يفتتحها بديباجة بليغة يحمد فيها الله تعالى قبلة الكلام، ويصلي على رسوله الذي جنب بني آدم عبادة الأصنام، وسنمهم من التوحيد نعمة دائمة لا تريم، وذروة عالية لا ترام، ويذكر آله وأصحابه نجوم الهدى وبدور التمام، الذين طلعوا بخيل الله على المشرق والمغرب بسيوف غير كهام، ففتحوا عذارى الممالك وادركوا غرر الأماني بشدة الحزم لا بشدة الحزام.

ويرى المؤلف أن كلّ أمـة من الأمم تجـعل تاريخ سلفـهـا هو العِلم المقـدم والدرس المقدس لما في ذلك من وصل حديث بقديم... فإن كـان الحاضر مماثلاً للماضي فمغزى التاريخ هو حفظ التسلسل ومنع التخلف، وإن كان الحالي مقصراً عن الخالي، وقد عادت البدور أهلّه، وذهب المجد إلا أقلّه، كان درس تاريخ السلف أفضل حوافز الاستباق إلى الكمال ليقال للناشئ: هكذا كان آباؤك فأين إباؤك، وهذا ما فعله أجدادك فأين جهادك، أيرضى أصحاب النفوس الأبية أن يقعدوا مع الخوالف وقد كان أوائلهم من السابقين الأوّل، أو أن يكونوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وأية أمة أجدر بمدارسة هذا العلم من هذه الأمة العربية ذات التاريخ الأمجد، والعز الأقعس، والعرق الأنجب، واللسان الأذرب، والجهاد الذي شرّق وغرب، أيام ملأت من الدهر مسمعيه، وضربت كل جبار على أخدعيه، وفرضت الذلة على جماجم الأكاسرة، وأطارت النعرة من معاطس القياصرة.

وأنت ترى أيها المستمع الكريم أن الأمير المؤلف قد قام في مقدمة كتابه خطيب منبر، وقائد عسكر، ببيان ساحر تفيض البلاغة من أسلوبه، وتنهل الفصاحة من ألفاظه.

هذا ولم يَدع المؤلف مرجعاً - عربياً كان أو إفرنجيًاً - إلا نقل ما قدر أن يعثر عليه فيه من الفصول المتعلقة بالأندلس. منهم: المسعودي، وابن حوقل، والمقدسي، والشريف الإدريسي، وابن الأثير، وياقوت، ولسان الدين بن الخطيب، والمقري، والقلقشندي. ومن الإفرنج: المستشرق دوزي الهولندي، ورينو الإفرنسي، وكوسيه، وأصحاب الإنسيكلوبيديه الإسلامية، وبعض علماء الإسبان، عازياً الروايات إلى أصحابها مع التعليق عليها في الحواشي بما يعنّ له مخالفاً أو موافقاً.

وإتماماً للفائدة رأى تزيين هذا الكتاب بأطالس جغرافية ورصّعه بتصاوير لم يسبق أن اطلع عليها العرب. وقد قسمه إلى قسمين : جغرافية، وتاريخ، ولم يحب أن يملأ الكتاب بالأرقام وإحصائيات مما قد تملّ النفس مطالعته.

ولندلّ المستمع على ما بذله الأمير المؤلف من الجهد في التنقيب عن الغامض من الروايات، نورد هذه الفقرة التي علّق فيها على قول المؤرخ الإدريسي حين ذكر أن «شنت ماريه» و«الفنت» مدينتان كانتا في الإسلام منازل القواطم. علق الأمير شكيب على ذلك بقوله:

«غريب جداً ذكر الإدريسي هؤلاء القواطم بدون التعريف عنهم بشيء ولذلك لم يفهم هذه اللفظة أحد من مترجمي كلام الإدريسي ومفسريه، ونحن أشكل علينا أيضاً فهمها ولم يذهب فكرنا إلى أنها الفواطم بالفاء (بدل القاف)، فالعلامة دوزي يظن انها محرفة عن القواسم لأنه كان في الفنت فخذ يقال لهم بنو قاسم، ولا يزال هذا الاسم يطلق على مكان بشرقي الفنت إلى اليوم فيجوز أن يكون قيل فيما بعد القواسم، ثم تحرفت القواسم هذه بطول الزمن إلى قواطم.. ثم يقول الأمير المؤلف: «وأنا أظن أن القواطم غير محرفة عن القواسم بل محرفة عن القواطن (بالنون) وذلك نسبة إلى عبدالملك بن قطن الفهري أمير الأندلس المشهور الذي كان قبل بني أمية. وأما انقلاب نون قواطن إلى ميم فإن بين الحرفين تبادلاً كثيراً كما لا يخفى، فهذا وجه خطر ببالنا عن هذه اللفظة ، والله أعلم».

وفي هذا الكتاب عدا المعلومات الجغرافية المفيدة وتراجم الرجال الذين نبغوا في بلاد الأندلس وتحقيق الأسماء الإفرنجية وردّها إلى العربية، عدا ذلك كلّه وثائق قيّمة من صكوك البيوع والقروض وفداء الرقيق وتحريرهم مقابل أعمال يقومون بها عند مواليهم. وإليكم نموذجاً منها ولتطلعوا على كيفية التعامل عند أهل الأندلس:

جاء في صفحة ٤٠٣ من الجزء الاول:

«قاطعت الجليلة دونة قلنبة ابنة الوزير الأجل دون غطار فرنندس أدام الله عزتها مع يعيش الخياط بن أحمد الغرناطي على حرية أسيرتها أم الهدى الجلياقيّة بمأتين مثقال فنشيه وثمانية مثاقيل ونصف صرف خمسة عشر ديناراً كل مثقال ليبتني يعيش المذكور بأم الهدى المذكورة ويتخذها زوجته ويخدمان بطليطلة في الذي يليق بهما دون رقيب عليهما ولا ثقاف. ويأخذان لأنفسهما فائدهما وعائدهما قلّ أو أكثر، ويؤديان الفدية المذكورة وذلك مثقالين اثنين كل شهر. وإن لم يتكمل كل ذلك بتمام الشهر الثالث حاشا مرض بيّن يمنعهما عن الخدمة أو هربا جميعاً أو خالطا قوماً سوا أو باتا بخارج طليطلة بغير أمرها أو شرب يعيش المذكور خمراً يخسران ما يتقدم لهما مدفوعاً. وترجع أم الهدى للأسر كما كانت أولاً.

ويؤدي يعيش الفدية على التنجيم (على التقسيط) وإن عجز على التأدية فقد فوّض للجليلة دونه قلنبه التقبض على جسمه ولا تسرحه إلا إذا أنصفها، وعليه أن يهدي لها كلّ عيد من ثلاثة أعيادها هدية دون عذر ولا تأخير وأن يخيط لها بدون أجرة لنفسها خاصة دون غيرها، وتاريخ هذا الصك ديجمبر عام ثلاثة وتسعين ومائتين والف».

وللكتاب فهارس عديدة مختلفة، تقع في نحو تسعين صحيفة وتشتمل على مواضيع الكتاب وأسماء الأعلام وأسماء الأماكن من بلاد وقرى وحصون وقلاع وأنهار وخلجان وجبال وأودية بألفاظها العربية القديمة، مع العلم بأن مقابلها الإفرنجي وارد في هوامش الكتاب عند ذكرها محقق تحقيقاً دقيقاً.

وقد طُبع الكتاب بمصر وتولت نشره دار الطبع والنشر بالمغرب، وهو على الجملة مشروع جليل سامي الغاية جزيل الفائدة، وهو في الحقيقة «معْلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن الأندلس ذلك الفردوس العربي المفقود».

وفي الأسبوع القادم (مساء الإثنين) نقدم للمستمعين نماذج طريفة مما اشتمل عليه الكتاب من الروايات والقصص وبعض تراجم الرجال والأشعار والأخبار، وكلها لذيذ ممتع، فإلى اللقاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

****

أبو العلاء المعري

فذلكة عن تاريخ حياة المعري:

ولد أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان في المعرة من أبوين عريقين في المجد والعروبة، وكانت ولادته سنة ثلاث وسبعين وتسعمئة للمسيح. ولما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري ففقد بصره.

وكان أهله ذوي علم وأدب، واشتهر عدد منهم بالقضاء، فلم يُهمل أمر صاحب الترجمة بل اعتنى به أبوه فعلمه. ثم ذهب إلى حلب إلى مقر اخواله آل سبيكة فدرس السنّة هناك وكان لا يزال حدثاً إلا أنه كان فطناً ذكياً عجيب الذاكرة، ويروى عنه من ذلك روايات لا تكاد تصدق، ولم يبلغ سن الرشد حتى خرج لغوياً أديباً، وشاعراً وكاتباً.

وفقد المعري أباه وهو في الرابعة عشرة من عمره فكان أثر ذلك عظيماً في نفسه لما كان يراه من حدبه عليه وعنايته به. ورثاه يومئذ بقصيدته النونية التي يقول في مطلعها:

نقمتُ الرضى حتى على ضاحك المزنِ

فلا جادني إلا عبوسٌ من الدجنِ

وفي هذه القصيدة تفلسفٌ يدلنا على نزعة الشك والتشاؤم التي صحبته في شبابه وشيخوخته ووسمته بتلك السمة الظاهرة.

وأتيح لأبي العلاء أن ينتقل في مدن سوريا ويتصل بمكاتبها المشهورة يومئذ، فدرس ما وقع عليه من الكتب في مكتبة أنطاكية واللاذقية وطرابلس، ودرس اليهودية والنصرانية، وسمع آراء الفلاسفة، ثم عاد إلى المعرة وقد بلغ العشرين من عمره، فكان واسع الاطلاع وافر التحصيل.

الا أن التفاؤل في الدنيا – على ما لقيه من العمى وفقد أبيه – كان لا يزال في نفسه شيء منه مما حمله على طلب الشهرة ببغداد فرحل إليها.

أبو العلاء في بغداد - الحالة في بغداد وسوريا :

كانت الدولة العباسية في دورها الثالث، وهو الدور الذي كان الحكم فيه لبني بويه في العراق ولبني مرداس في سوريا، وقد يتخيل إلينا أنه دور انحطاط عام وليس الأمر كذلك: كان الانحطاط في سياسة الدولة، فقد خرجت الحكومة من أيدي العرب إلى خليط من الفرس والديلم، وجليّ ألا يكون لهؤلاء عطف على محكوميهم فجاروا واستبدوا، والنص على هذه السياسة في اللزوميات صريح جريء، وناهيك بما يتبع سوء الحالة السياسية من رزايا على اقتصاديات البلاد واجتماعياتها، وفي مثل هذا المحيط الفاسد المتلبد بالرياء والكذب عاش أبو العلاء.

أما الحالة العلمية فكانت لا تزال زاهرة في مختلف الأقطار العربية: كانت سوريا تتمتع بالنهضة التي قام بها سيف الدولة، وكانت بغداد حافلة بالعلم ورجاله.

نزل أبو العلاء بغداد وهي غضة نضرة بما تشتهيه نفسه، فغشي المجامع العلمية ومنها: مجمع الشريف الرضي وأخيه الشريف المرتضى، ومجمع محمد بن عبدالسلام المصري، ومجمع الوزير سابور بن أردشير، ومكتبة الحكمة التي أسسها الرشيد، ولم يمض غير قليل حتى طار صيته في الآفاق وكثر أصحابه وعارفوه.

وود أبو العلاء لو بقي ببغداد لو لم يُكثّر فضله حاسديه فيها، فقد قام من بين الطبقات الراقية رجال ينالون منه ويغضون من قدره، ولو استطاع أن يحتمل لما كان ذلك بضائره شيئاً، ولكنه فضّل الرحيل عنها فرحل وفي نفسه شوق ونقمة على أهلها، وفيما هو في طريقه إلى المعرة نُعيت إليه أمه فكان ذلك ضغثاً على إبالة، عزم معه على الانقطاع عن الدنيا وطلب العزلة ليقضي ما بقي من عمره يقلّب صفحات تذكاراته وتجاريه. هذه هي ناصية الطريق في حياة المعري التي وقف عندها ودار على شماله يستقبل ناحية السواد ولا يرى سواه.

عزلته - هل كان فيلسوفاً؟:

ونفّذ أبو العلاء خطته الجديدة بدقة تامة فصرف وجهه عن متاع الدنيا زاهداً في طعامه وشرابه ولباسه، إلا أنه لم يكن في استطاعته أن يدفع عنه الناس ويعتزلهم، فقد كانوا يغشونه في داره الحقيرة يأخذون عنه اللغة والأدب ويقتبسون من حكمته وآرائه الفلسفية.

نقف قليلاً لننظر فيما قاله طه حسين في كتابه : «ذكرى أبي العلاء» مجيباً على السؤال: «هل كان المعري فيلسوفاً؟». يرى طه حسين أن تعريف الفيلسوف ينطبق على أبي العلاء ما دام الفيلسوف هو من كان له نظريات في الحياة يطبق عليها أعماله. ولا ننكر على طه حسين أن النظرة القديمة للفيلسوف كانت كذلك، إلا أننا لو نظرنا إلى شروط الفيلسوف اليوم لرأينا أن أبا العلاء لم يكن فيلسوفاً لما يقتضيه ذلك من وجود نظام فلسفي ثابت لديه، يسير عليه نظرياً وعملياً، والمعري لم يكن له ذلك، بل جلّ ما حاوله أن يجمع بين ما اقتبسه من درس الفلاسفة والاطلاع على آراء الحكماء والعلماء ليؤلف لنفسه نظاماً فلسفياً جديداً فأخفق. فهو إذن مفكر حكيم، لا فيلسوف.

وفاته وآثاره:

توفي أبو العلاء سنة ألف وثمان وخمسين وكان له من العمر خمس وثمانون سنة. وترك آثاراً قيّمة كثيرة لم يصل إلينا منها غير ثلاثة وهي: سقط الزند، واللزوميات، ورسالة الغفران، وهناك بعض رسائل قصيرة كان يحررها إلى أهله وأصحابه في أثناء أسفاره.

شعره - مقابلة بين اللزوميات وسقط الزند:

المعري رجلان: شاعر يتدفق عاطفة، ومفكر ليس لقلبه سلطان على فكره، إلا أنه، فيما أعتقد، قويت فيه ملكة النظم إلى حد هان معه أن ينظم العاطفة الصميمة والفكرة المجردة على السواء دون أن يكلفه ذلك كبير عناء. هو شاعر في سقط الزند، نظّام في اللزوميات، ولم يخل شعره في الأول من نظم متكلف كما أنه لم يتجرد من العاطفة في بعض ما التزم.

وأكاد أتهم نفسي أحياناً بالجور في حكمي هذا على الرجل لعلمي أن الفلسفة شيء يقصر باعي عن تناوله، وأن الحكمة وهي ضالة المؤمن لم أهتد إليها بعد حتى التقطها حيث أجدها، ولكن سرعان ما أعود إلى الثقة بنفسي حين أقرأ لأبي العلاء رثاءه في الفقيه الحنفي ورثاءه في جعفر بن علي بن المهذب (وهاتان من سقط الزند) فيستخفني الطرب لما فيهما من فلسفة وحكمة!!!

لا أراني إذا قرأت قوله:

تعبٌ كلّها الحياةُ فما أعْـ
ـجَبُ إلا من راغبٍ في ازديادِ

قادراً على تفضيل هذين البيتين عليه:

لو أن كلّ نفوسِ الناس رائيةٌ
كرأيِ نفسي تَنَهْتْ عن خزاياها
وعطّلوا هذه الدنيا فما ولدوا
ولا اقتنوا واستراحُوا من رزاياها

أين الثريا من الثرى، وأين الطبع من التكلف، بل أين الإيجاز الخلاب من الإطناب المتمحل المملّ!؟!؟

«تعب كلها الحياة» كلمات ثلاث تغنينا عن أوّل البيتين برمته، لا بل تستوقفنا رأساً لنفكر في الحياة وتعبها، ثم تذهب بنا في سلسلة متصلة من العبر والتجارب تربط ماضيها بحاضرها، فيأخذ كل امرئ منا على قدر ما ابتلاه من دهره حتى نعود إلى أنفسنا قائلين: «ما كان أحدٌ بصرَ هذا الأعمى...!!».

بينما في الحالة الثانية نقف لا لنفكر بل لنحلّ ألغازاً نحويةً وأحاجي صرفية، كأنْ نبحث عن خبر «إن» ونعلق الإضافات المتوالية والمجرورات بمتعلقاتها. فإذا تم لنا ذلك نقلنا البيت الأول على محكّ البلاغة والفصاحة فنفينا عنه الأولى لغموضه، والثانية لهذا القلق الظاهر في «رائية»، وذلك الحشو في قوله «رأي نفسي» بدلا من «رأيي». ثم نأتي إلى

البيت الثاني فنرى كلماته الكثيرة ليست بأكثر من معنى «الرغبة في الازدياد». فنترحّم على أبي العلاء ونقول: الآن فهمنا، أراد أن يقول:

تعب كلها الحياة............. إلخ.

ويا ليته جمع في البيتين ما جمعه في البيت الواحد! فقد خسرنا ذلك التأثير البليغ الذي لا ينكر في قوله: «فما أعجب»، وهذا العجب مفقود في بيتي اللزوميات.

لعلي أظلم أبا العلاء في تدقيقي هذا، ولكن ما الحيلة وقد وقعت له في مرثيتيه هاتين على كثير من آرائه الفلسفية في الموت والولادة والفناء والخلود، فرأيتها - لما هي عليه من الوضوح والبساطة والقصد إلى المعنى - أدعى إلى التفكير، وأبلغ أثراً في النفس من ثلثي ما ورد في لزومياته عن تلك المواضيع حين عمّاها وأشكلها وتكلف فيها تكلفاً، ما كان أغناه عنه، وما كان أقدره على اجتنابه.

من هنا نشأ نفوري من فلسفة أبي العلاء وحكمته في لزومياته، ولعله السر في نفور الكثيرين من الفئة المتأدبة.

مبدأه:

مبدأ أبي العلاء ديني، وفي لزومياته وغيرها قصائد ومقطوعات تدل على أن الرجل لم يتردد لحظة في الاعتقاد بوجود قوة غير منظورة تُدبّر هذا الكون، إلا أنه لم يشأ أن يعتقد بالنبوات والكتب السماوية، فتديّنه فلسفي، خليط من (ما ورائية) أبيقور وأفلاطون وغيرهما، وكان يناقضهم في بعض آرائهم ويتبع البعض الآخر. هذا من حيث المعتقد النظري، أما القسم العملي من مبدأه فكان يقرّ ويعترف بترك الصلاة والحجّ، وحمل حملة شعواء على رجال الدين أجمع، وطعن في الفرق الإسلامية كالباطنية والإمامية والخوارج وغيرهم، وأراه أشبه بالشاعر الإنكليزي «شلي» في مبادئه، فقد كان هذا متديناً إلا أنه كان يرى الدين الحقيقي أعظم وأعلى من أن تحيط به سخافات الإكليروس وطقوسهم.

ومن هنا رُمي أبو العلاء بالإلحاد وكذلك شلي. ولو أنصف القوم ما اتهموه لأنه متين في دينه، ولكنه فرق ما بينه وبينهم أنه لم يسترح إلى معرفة الله حتى أشغل فكره بالبحث عنها والوصول إليها، وأما الآخرون فرضوا بها بُلْغة سائغة أُلقموها دون أن تكلفهم شيئاً.

ولأبي العلاء في نقد الدين طريقتان: التلميح، والمجابهة. أما التلميح فكان تلميح مقتدر شاكّ غير مجترئ على التصريح، لأنه أكثر ما اتبع هذه الطريقة في انتقاد النبوات والكتب والطقوس الدينية، وبعبارة أصرح نقول إنه كان يلمّح تلميحاً خفياً حين يهاجم أصول الدين الأساسية. وفي هذه الطريقة سخرية لذاعة موجعة، وأما المجابهة فأكثر ما نال بها الساسة والأئمة والزعماء وأصحاب الفرق فطعن عليهم وحاجّهم وآلمهم.

والحياة عند أبي العلاء لا قيمة لها. وإن من كان يرى حياته مصيبة لجدير به أن يعجب من تعلق غيره بها، والرغبة في الازدياد منها. ونظرته هذه ناشئة عن طبيعة التشاؤم التي تجسمت فيه إثر عودته من بغداد ولزومه بيته، ونتيجة هذه الطبيعة مبثوثة في شعر أبي العلاء كله. فقد هجا نفسه وتمنى الموت مراراً لوجوده في هذه الدنيا، ونعى على أبيه جنايته التي ارتكبها، وهي أنه كان سبب وجوده. وقد زين للناس تجنب الزواج والاستكثار من متاع الدنيا مما جره إلى تحبيذ الرهبانية، فقال: «ويعجبُني عيشُ الذين ترهّبوا».

والذي أراه أن أبا العلاء تجاوز حدوده وأخطأ ، لأن الشر ليس في التناسل والاستكثار، ولكن في سوء التصرف الذي ليس بالصعب تلافيه إذا عمل الرجل والمرأة على تحصيل السعادة الدنيوية وعُنيا بتربية نسلهما.

وأكثر ما نرى التردد في طبيعة أبي العلاء عند ذكره الموت والبعث والفناء. فقد كان يقف عند هذه الأمور واجماً، وهو أحياناً يذهب مذهب فلاسفة اليونان في أن الروح إذا فارقت الجسد تلاشت كما يتلاشى نور المصباح عند إطفائه، وهذا مذهب الماديين القائلين بأن الروح نار يخمدها الموت. وتارة يذهب مذهب أفلاطون القائل بمفارقة الروح إلى عالم تلقى فيه النعيم أو العذاب، ولكننا نراه يشك في البعث مما يدلنا على ميله إلى الرأي الأول، ثم نراه لا يدري ما مصير الروح فيقول:

والروحُ أرضيّةٌ في رأي طائفةٍ
وعند قومٍ تَرقّى في السماواتِ

وهو في صدر البيت يشير إلى القائلين بتقمّص الأرواح.

أما العقل فقد كان أبو العلاء يعوّل عليه في كل شيء. وهو عنده مقياس، ما ثبت عليه كان حقاً ، وما تردد فيه كان باطلاً، وهو يرى الناس يخادعون أنفسهم حين يقبلون كل ما قيل وما يقال، وهم عنده اثنان: «ذو عقل بلا دين وآخر ديِّن لا عقل له».

الفرق بين التفاؤل والتشاؤم:

الأحياء متفاوتون في الطبائع متباينون في الأمزجة، وكل حيّ يرى الحياة بحسب ما طُبع عليه من الخير أو الشر، وبحسب ما رُكّب منه جسمه من حيث الصحة والاختلال، ومن هنا نشأت فكرة التفاؤل والتشاؤم.

كلنا رأى الناس وخالطهم ولحقته تجارب في حياته بين أثنائها الصالح والفاسد، إلا أن بيننا من يرى بالإمكان أن يجعل من الفاسد صالحاً إذا لم ير بالإمكان درءه، ويذهب إلى القول بأن الدنيا ملأى بالسعادة والهناء باسمة للجميع، فإذا ما عبست في وجهه يوماً وقعد به الحظ لم ينكر ذلك بل يعزوه إلى سوء تصرف من عنده، أو إهمال نشأ عنه ما لحق به من الأذى، فهو جاهد في تلافيه وتجنبه، هذا هو الرجل المتفائل الذي ينظر إلى الوجه المنير من الحياة.

غير أن هنالك من أساء الظن بالحياة، ورآها زائفة ملأى بالشرور خلابة البروق، ولم يعد يفكر في سبيل لإصلاحها لأن فسادها، على ما يعتقد، جوهري متأصل وليس بعرضيّ ، فاستحال الإصلاح، ولا خير في البحث عنه، هذا هو الرجل المتشائم الذي ينظر إلى الوجه المظلم من الحياة.

أما الحياة نفسها فواحدة ثابتة منذ كانت إلى اليوم وإلى ما شاء الله.

كاتبه

إبراهيم طوقان

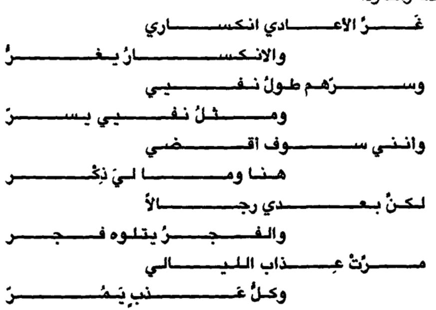
****

الشاعر ولي الدين يكن

ولي الدين شاعر مظلوم حيّاً وميتاً. ظلمه الناس وظلم نفسه، وإنما هي حالة الأديب الذي يعيش ليرضي نفسه وفنه لا ليرضي الناس ويجاملهم في أهوائهم. وإذا كان الأديب من هذا الطراز فقلما تجده حريصاً على آثار قلمه، يدوّنها ويعتني بجمعها وطبعها فكأنها جزء من الطبيعة، ترتجل الجمال ارتجالاً وتلقي به جزافاً وهي أمينة من نضوب مواردها وانقطاع ينابيعها.

قال أخو وليّ الدين جامع ديوانه: «نطق ولي بالشعر قبل أن يبلغ العشرين، وكان له شعر كثير نُشر في الصحف أحرقه برمته منذ ثلاثين سنة».

أما هذه المجموعة التي بين يدينا فتقع في نحو مئة وثلاثين صحيفة، قصائدها ومقطعاتها في كل غرض من أغراض الشعر، تشف السياسة والوطنية منها عن صراحة وجرأة، وناهيك بالرجل صريحاً جريئاً حين يرفع صوته مع الحق ويجاهر بالحرية في الزمن الحميدي، وناهيك به قوي النفس ثابت الإيمان حين يلقى النفي والاضطهاد في سبيل مبادئه وأفكاره:



غَرُّ الأعادي انكساري ... والانكسارُ يغرُّ
وسرّهم طولُ نفيي ... ومثلُ نفيي يسرّ
وانني سوف اقضي ... هنا وما ليَ ذِكْر
لكنْ بعدي رجالاً ... والفجرُ يتلوه فجر
مرَّتْ عِذاب الليالي ... وكلُّ عَذبٍ يَمُرّ

والزمُ الصبرَ كُرهاً

وليس للحرّ صبر

واسلك الحِلْمَ نفسي

ومَسلكُ الحِلْمِ وعر

لبّيك يا مجدَ قومي

لبّى نداءك حُرّ

رضيتُ سيواسَ داراً

وما بسيواسَ شرّ

وسيواس هي منفاه الذي اختاره له عبدالحميد، وقد مكث فيها سبع سنوات حتى إعلان الدستور سنة ١٩٠٨. وإليك أيها المستمع الكريم هذه الزفرة الأليمة:

يبكي بَنوكَ ويضحك الزمنُ

ماذا أصابكَ أيها الوطنُ

ما أوشكتْ أن تنتهي محنٌ

إلاّ وجاءت بعدها محن

امّا الرسومُ فإنها درستْ

امّا الرجالُ فإنهم دُفنوا

لولا بقايا معشرٍ سلَفوا

لتنبّهتْ من نومها الفتن

العصرُ راجت سوقُ باطلِهِ

فالحقُّ فيه ما له ثمن

فَطِنِ البرايا للذي وقعوا

فيه وبعضُ الناسِ ما فطنوا

يا قومُ هُبّوا من مضاجعكم

طال المدى حتى مَ ذا الوسن

✡✡✡✡

ولله دره حين يقول:

يا دياراً خلَتْ فأمستْ خلاءً
أحسن الله في بنيك العزاءَ

عوّدتْنا الأحزانُ هذي الليالي
كم رثينا وكم أطلنا الرثاء

لو تجوز الشكاةُ في الأمّ يوماً
لشكا الناسُ كلُّهم حَوّاء

هَبْ لنا يا زمانُ راحةَ يومٍ
فإذا مرّ، عُدْ فهاتِ العناء

نكتفي منكَ بالقليل من العد
لِ، وإن كنتَ لا تحبّ اكتفاء

✲✲✲✲

رحم اللهُ طاهراتٍ جُسوماً
أصبحتْ في فلاتِهِ أشلاء

ليس فيها «صخرٌ»، وكلُّ قتيلٍ
تاركٍ بعده له «خنساء»

دهمتْها جندُ النوائبِ حتى
ملأتْ من رفاتها الدهماء

أضرمتْ نارَها عليها فما تُبْـ
ـصِرُ أرضاً ولا تبين سماء

واستطاب الردى نحيبَ الأعادي
ظنّ ذاك النحيبَ منها غناء

واليتامى لمّا بكتْ أطربتْهُ
فدهاها ليستزيدَ البكاء

أبداً يغتذي اللحومَ ولا يَشْـ
ـربُ عند الظماءِ إلا الدماء

ظالمٌ، حُكْمُـــــه طويلُ بقـــــاءِ
لا حَـــبَـــا اللـهُ ظالمين بقـــــاء
ارحـــمي يا قلوبُ هذي الضـــحـــايا
فـــهْي ترجــوكِ لا تردّي الرجـــاء
إن إخـــــــوانـنـا الـذيـن تـردّوا
قـــد دَعــونا فــمــا اجــبنا الدعــاء
وإذا نحن مـــا اســـتطعنا دراكـــاً
افـــلا نســـتطيع يومـــاً وفـــاء
ليت شـــعـــري وهم ينادون: «يا رَبْ
بِ خـــلاصـــاً امـــا ســـمـــعتَ النداء»
إن يَبــيــدوا فـــقـــبلهم باد ناسٌ
ليس في الناس من يردّ القـــضـــاء
نرحم الشـــيخَ وهْو يندب حـــزناً
هل راينا في خِـــدرها الـعـــذراء
فَـــهْي تبكي اباً، وتبكي اخـــاً، ثُمْ
مَ تكفّ البكاءَ منهـــا حـــيـــاء

أمّا غزله فَذَوْبُ النفس وجذوة الفؤاد، وهو في نجوى الأحبة فيّاض الشاعرية مبتكر الأسلوب. قال رحمه الله من قصيدة بعنوان: الشاعر والليل والطيف:

اللـه في وجــــدٍ وفي مــــامـلِ
من لـي بـعَـــــــوْد الـزمـن الأوّلِ
قـــد كنتُ اشكو عُـــذّلي في الهـــوى
وهـا انـا اثـنـي عـلـى عُـــــــذّلـي
مـــا اولـعَ الـقـلبَ بمـا يجـــتـني
وافـتَنَ الـعـينَ بمـا تجـــــــتـلـي
اهفـــو لســـهـــدي ليت لي مـــثلَهُ
ولـيـــــتـني في لـيـلـيَ الألـيـل

إذ اترك الأنجمَ في افـقـهـا

شـوقـاً إلى نبراسيَ المُشْعَل

وأحكم الكوّةَ دون الصَّبا

وأوصد البابَ على الشمال

كُتْبي تناغيني فتمشي بها

عيناي من شكلٍ إلى مُشْكَل

ما بين أوراقٍ بها غضّةٍ

وبين أوراقٍ بها ذُبّل

في حُجرةٍ كالقلب في ضيقها

لو حملتْ غيريَ لم تحمل

تسمع مني في سكون الدجى

ما يسمع الروضُ من البلبل

إنا اقتسمنا الليلَ ما بيننا

له الكرى في الليل، والسهدُ لي

✡✡✡✡

يا خَلَواتِ الوحيِ في تيههِ

ملأتِ قلبَ الشاعرِ المختلي

سوانحي منكِ، وفيكِ انجلتْ

فانزلي الآياتِ لي انزلي

يا طيفَها لا ترتجعْ مُعْجَلاً

لا تُقنعُ *الزورةُ* من مُعْجِل

إنيَ وحدي حجرتي مأمنٌ

فأنسْ إلى صَبّك لا تجفل

أدْنُ قليلاً قد أطلتَ النوى

جُدْ مرّةً بالله لا تبخل

لو لم تكن تشتاقني نفسُها

يا طيفَها، ما كنتَ بالمقبل

عيناكَ عيناها كذا كانتا
والوجهُ ذاك الوجه لم يُبْدل
اعرف لحظَيْها برغم النوى
فكم اصابا قبلُ من مَقْتل
إن كان هذا ما دعَوْه الهوى
فمثلُ هذا الليلِ لا ينجلي
يا مهجتي يا جَلَدي، يا صِبا
إن لم امت وَجْداً فلا بدَّ لي

ومن قوله في قصيدة الملك المظلوم:

مكانكَ الأفقُ فما انزلَكْ
بَدلتَ عنه الأرضَ ام بدلكْ
يا مَلَكَ اللهِ ايرضى الملَكْ
مُلْكَ الثرى من بعد مُلْك الفلك
كلاً فلن تالفَ هذا الانامْ
خُلقتَ من نُورٍ وَهُمْ من ظلامْ

✡✡✡✡

اين جناحاكَ؟ متى فارقاكْ؟
قد سقطا في الأرض ام في السماكْ؟
لو صدقاكَ الودَّ ما زايلاكْ
بل صعَدا للافق واستصحباك
إنَّ لَلأَوْلى بهذا المقامْ
مثلكَ لا يهنا فوق الرَّغامْ

✡✡✡✡

مَنْ عندنا يفهم هذا الجمالْ ؟
ايُّ امرئٍ يهوى صفاتِ الكمالْ ؟
انتَ خيالُ الحبِّ نعم الخيالْ
حذارِ لا تدخلْ قلوبَ الرجال

تلك قلوبٌ دهرُها في اضطرامْ
كأنها مُوقَدةٌ بالأثام
✡✡✡✡

وإليك هذه القطعة الشاعرة، بل الآية الساحرة بعنوان: لؤلؤ الدمع:

لا تذكريني فإنّ الذكر يُرجِع لي
عاداتِ وجْديَ في أيّاميَ الأُوَلِ
وعالجيني بيأسٍ منكِ ينفعني
البرْءُ باليأس يُنسي السقمَ بالأمل
طاب التجافي فلا تأساكِ قسمتُهُ
إذا مللتِ فما يُشكيكِ من ملل
دعي لياليّ، أوطاني تطالبني
بها فلا تشغلي نفسي بلا شُغُل
وكفكفي الدمعَ هذا الدمعُ يفتنني
أشجى الشكاياتِ عندي أدمعُ المقل
هي اللآلئُ تطفو في المحاجر، لا
تختار للسَّبْح إلاّ موضعَ الكَحَل
لو لم أكن شاعراً أصبحتُ حاسدَها
فلؤلؤُ الدمعِ منه لؤلؤُ الغزل
✡✡✡✡

وفي ديوان وليّ الدين رائعة هي في رأيي واسطة ذلك العقد الفريد، وهي قصيدته القصصية التي أودعها وصف كليوباترة وهي تحاسب نفسها في الساعة الأخيرة وقد جعلها على لسانها، ومطلعها:

طاب روضي وأثمرتْ أشجاري
فأعيدي الغناءَ يا أطياري
أنا شمسٌ في مشرق الحسنِ والملْـ
ـكِ، وللعاشقين نُوري وناري

اتهـــادى بين الغـــصـــونِ فـــتنهـــا
رُ، وتُـغــــــــضـي نـواظـرُ الأزهـار
واكـفُ الأوراقِ تـنـثـــــــر لـي الـدرْ
رَ، فــامــشي على غـــوالي النّثـــار
والنســيمُ العليل في الروض يَســتــشـْ
ـفِي بلـثـم الـثــــــرى عـلـى آثـاري
وتظلّ الســمـــاءُ تحـــســد وجـــة الـْ
أرْضِ انّي ســـحــــبتُ فـــضْلَ إزاري
إيهِ يا صـــبحُ هل أتيتَ بخـــيـــرٍ
طال رعـــبي من ســـيِّئِ الأخـــبـــار
إنّ عـــمـــراً مُـــقـــسَّـمـــاً بين مُلْكٍ
وغــــرامٍ لأتْـعَبُ الأعــــــمــــــار
لـيَ في دولـة الـقلـوبِ احــــــتكامٌ
هـو فـي نجــــــــــوةٍ مـن الأوزار
كــــره الـنـاسُ لي الفنـاءَ فـــابقـــوا
شَـــبَـــهي في هيـــاكلٍ من نُضـــار
وابَوْا ان تـكون اشكـالُ حـــــسـني
مُـــثِّلتْ في الصـــخــور والأحـــجـــار
عـــجـــبـــاً قـــرّتِ الرعـــيّـــةُ في أمْـ
ـني ولكنْ مـــا قـــرّ فـــيـــه قـــراري
وافـــــــــاد المـلـوكَ فـي دول الأرْ
ضِ اقــتــداري ولـم يُفـدني اقــتـداري
لهْفَ نفـــسي على حـــيـــاةٍ وفيٍّ
بَزَّها طـائـعـــــاً لـرعي ذِمـــــاري
في حـــشـــاه نارٌ من الوجـــد ليـــستْ
مـن وقـــــودٍ جــــــزْلٍ وزَنـدٍ واري

رام إطفـــاءَها فلم يلقَ مـــا يُطْـ
ـفـئـهـا غـيـرَ سـيـفـه الـبـتّـار
فجرى النصلُ في الحشاشة جزْيَ السْـ
ـسَـيْلِ دَرْءاً في دافع الـتـيّـار
يا قلوبَ العـشّـاقِ مـا لكِ حـيـرى
المنايا كـثـيـرةٌ فـاخـتـاري

✡✡✡✡

بلّغـوا الغـاشمَ الذي رام حـربي
فـتـخـطّى ديارَه لـديـاري
انـا لا اسـتـلـذّ مُـلْـكـاً بـذلٍّ
انا لا أسـتـلذّ عـيـشـاً بعـار
حثّ أسطولَه واقـبـل يسـعـى
في جـبـالٍ على جـبـالٍ جَـوار
وإذا اسْـهُمٌ بـغـيـر انتظارٍ
وإذا غـارةٌ بـلا إنـذار
كـان جـبّـارَ مـعـشـرٍ فـتـولىّ الْـ
ـلَحْظُ إذلالَ ذلك الجـبّـار
نَبَـذ الصـولجـانَ والصـارمَ القَـضْـ
ـبَ هُيـامـاً بـدُمْلـجٍ وسِـوار

✡✡✡✡

هيّـئي يا إمـاءُ مـجلسَ أُنْسي
واعـدّي الصـبـوحَ لي يا جـواري
ولتـقمْ هذه القـيـانُ وتشـدو
مطرباتٍ ضـربـاً على القـيـثـار
ولـيـقمْ بين اكـؤسِ الراح عـرشي
ثـابتـاً أُسُّـه رفـيـعَ المنار

هان عندي ان اخلع الهمّ والتا

جَ جميعاً إذا خلعتُ عذاري

✡✡✡✡

فوداعاً يا مجلساً كنتَ أُنْساً

اتجلّى فيه على الحُضّار

قد سلا كلُّ من احبُّ بحُبّي

وتلهّى عن جاره بجِواري

وانتهتْ دولةُ الشبابِ كأنْ لم

تَكُ كانت، لم تُبقِ من تَذْكار

وفراقُ الاحبابِ إنْ صدق الحُبْ

بُ سبيلٌ لمنزل الانتحار

✡✡✡✡

فزتَ يا قيصرٌ ولكنْ بماذا

لا بدارٍ نعمْتَ أو ديّار

ومما قاله في حالة اشتداد المرض عليه:

يا جسداً قد ذاب حتى امّحى

إلاّ قليلاً عالقاً بالشقاءْ

أعانكَ اللهُ بصبرٍ على

ما ستعاني من قليل البقاءْ

رحم الله الشاعر وليّ الدين يكن، فلقد عاش مظلوماً بالحرمان، ومات مظلوماً بالنسيان، وأتمنى لكم أيها المستمعون عمراً طويلاً وهناء دائماً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ونخرج من هذا الباب إلى غيره، إلى شعر فيه ظرف ولطف ونادرة.

قال احدهم يهنئ عروسين مؤرخاً:

وحُـــــلاها مـن حُـــــلاهُ
وحُـــــلاه مـن حُـــــلاهـا
قـــلـــتُ لـــلـــزوجـــين ارِّخْ
طـنـجـــره ولـقـــيـتْ غـطـاهـا

ولمّا رأى هذا الشاعر انتشار ركوب البسكليت بين الناشئين من اهل بلده أضجره ذلك فقال يذمهم ويذم الزمان:

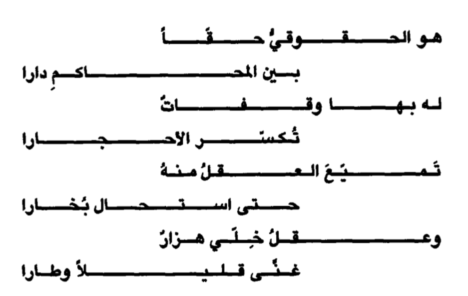
إن الـزمـــــانَ تَـحـــــوّلا
والجـــيـلُ فـــيـــه تَـبـــدّلا
افـــــلا يُـريّـح نـفـــسَـــهُ
إلاّ ركـــــوبُ الـبَـــــسْـكـلا

و(البسكلا) منحوتة من (بسكليت) كما هو ظاهر.

واجتمع شعراء ثلاثة عند شاطئ البحر بجوار الفنار فأقبل عليهم أحد المفاقيع ممن اعتادوا أن يجعلوه موضوع تسليتهم، فهدتهم شياطين شعرهم إلى مدحه فتجاذبوا بينهم القصيدة الآتية:

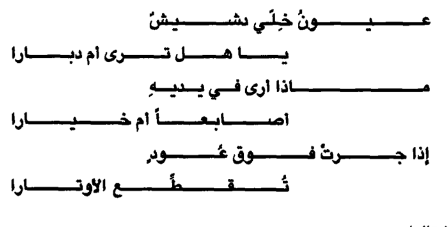
يـــا لـــيـــت هـــذا الـــفـــنـــارا
فـــي وجـــــــــه خِـلّـي انـــارا
ولـيـت مــــا مـــــرّ شـــــخصٌ
إلاّ إلـيـــــــه اشـــــــارا
ولـيـت مــــا فــــارَ قِـــدْرٌ
إلاّ ورشّ الـبـــــهـــــــارا

وكان الممدوح يطلب الحقوق فأشاروا إلى ذلك:



هو الحقوقيُّ حقاً
بين المحاكمِ دارا
له بها وقفاتٌ
تُكسِّر الأحجارا
تَميَّعَ العقلُ منهُ
حتى استحال بُخارا
وعقلُ خِلّي هزارٌ
غنّى قليلاً وطارا

فكان جنابه يهز راسه طرباً وإعجاباً وتنفرج شفتاه عن ابتسامة عريضة بلهاء واستزادهم من هذا المديح فقالوا:



عيونُ خِلّي دشيشٌ
يا هل ترى أم دبارا
ماذا أرى في يديهِ
أصابعاً أم خيارا
إذا جرتْ فوق عُودٍ
تُقطِّع الأوتارا

ولما قالوا:

وصار يركب تكسي
وكان قبلاً حمارا

أدرك بذكائه الخارق أن البيت يحتمل المدح والذم فقيل له: إن هذا الباب من الشعر يقال له: بلاغة الحذف والاكتفاء، وإكراماً لخاطره نشرت القصيدة في إحدى الجرائد بكاملها مع شرح للبيت هذا جاء فيه أن الأستاذ الممدوح لا يوافق على هذا البيت فالرجاء إلى القراء أن يعتبروه محذوفاً، وأُثبت البيت في القصيدة ونُشر على أنه محذوف، وتتميماً للفائدة نُذكّر أن بين الشعراء الأقدمين فحولاً معروفين بجدّ القول لم يخل شعرهم من هذا

الهزل، نذكر منهم: بشاراً وأبا نواس ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وحماد عجرد ورزيناً الشاعر وأبا دلامة وعماراً زاكناز، وفي كتب الأدب شعر كثير من هذا النوع منها «البيان والتبيين» للجاحظ ومنها «العقد الفريد» و«الأغاني». وفي «الدرة اليتيمة» شاعر لم يعرف عنه أنه نظم اسمه الواساني، وفي كتاب «فوات الوفيات» شاعر لم يعرف عنه أنه نظم في غير السخيف من الشعر سمّى نفسه صريع الدلاء، وله في هذا الكتاب قصيدة يعارض بها المقصورة الدريدية جاء فيها:

مـن طـبـخ الـديـكَ ولـم يـذبـحْـــــــــهُ

طار من القـــدر إلى حـــيث يشـــاءْ.

هذا ما اتسع له الوقت في هذه المختارات وليعذرنا المستمعون على إضاعة وقتهم في الاستماع إلى هذر القول فما قصدنا غير التفكه وشر البلية ما يضحك.

****

مناظرة بين شاعر وناثر
أيهما أبعد أثراً : الشعر أم النثر ؟

الشاعر: طال بنا الحديث أمسِ يا صديقي الناثر في أمر الشعر والنثر وأيهما أبعد أثراً في المجتمع، وها أنا نزولاً عند رغبتك نستأنف المناظرة أمام الميكروفون على مسمع من جمهور مستمعي الراديو، فيقدم كل منا حجته ويأتي ببرهانه تاركين للمستمعين أمر التحكيم عسى أن تأتينا أجوبتهم بالآية الكريمة في قوله تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون» صدق الله العظيم... وليس لي إلا أن أذكرك بالقصة المشهورة عمن تلا قوله تعالى: «ويل للمصلين» وسكت عن بقية الآية: «الذين هم عن صلاتهم ساهون»، وأنا أنزهك أيها الصديق عن الإتيان بهذه الآية حجة تستند إليها دون أن تتمم الآية حين استثنى الله تعالى قوماً من الشعراء بقوله: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون». فالآية كما تعلم قد نزلت في أولئك الشعراء الذين كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم بهجائهم، والاستثناء فيها فيمن انتصروا للنبي ووقفوا ألسنتهم ونتائج قرائحهم على الذود عنه ومظاهرته، ولولا أن النبي عليه الصلاة والسلام قد عرف ما للشعر من بعيد الأثر في الجماعات، وما للشعراء من سلطان على العواطف لما أبه لهم ولا جعل لقصيدهم وزناً.

الناثر: لقد أشار النبي الكريم إلى الشعراء باستعمال تلك الأداة فاستعملوها في أمر دنيوي وترفّع هو نفسه عن استعمالها.

ولكن لنبدأ حيث يجب الابتداء ولنعرّف الشعر فنرى الفرق بينه وبين النثر، لنعرّف موضع الجدل، أليس القول الموزون المقفى، وكفاه منقصة أن مراعاة

الوزن قد تقتضي حذفاً أو زيادة تخرج بالمعنى عن موضعه كما تقتضي القافية استعمال كلمة لا لسبب سوى انها تصلح للقافية، وماذا ترى في هذين البيتين:

تعـــيّنتُ مُـــعـــشّـــراً وإني شـــاطر
وتراني أزكى من جـــمـــيع رفـــاقي

ومـــا اخطا المتـــصـــرّف في تعـــيـــيني
وانا اســـمي جـــمـــيل القـــرفـــاقي

الشاعر: مهلاً مهلاً ليس هذا من الشعر ولا احسبه إلا من البحر الأطلانتيكي أو من بعض المستنقعات، وليس الشعر كلاماً موزوناً مقفى فحسب، ولو كان الأمر كذلك لكان نثركم كلاماً لا تعريف له مطلقاً ، ونظل معاشر الشعراء متميزين عنكم بشيئين اثنين على الأقل هما: الوزن، والقافية، ولكل جماله الموسيقي ووقعه في النفس. هناك يا صاحبي تخير الألفاظ ولو كنت تمارس صناعة الشعر لعلمت أن لفظة واحدة في البيت تجعل الفكرة صورة ناطقة وكياناً حياً، خذ قول شوقي مثلاً في مطلع قصيدته عن زحلة:

شـــيّـــعتُ احـــلامي بـقلب باكِ
ولمحتُ من طُرُق المِلاح شِبـــاكي

فلعلك ترى معي أن لفظة «لمت» هي واسطة هذا العقد وأنها لا يقوم مقامها أية لفظة غيرها، ولو لمت كل ما أتى به الناثرون من كلمات في معناها، وأن الشاعر حين ينظم البيت ويعزّ عليه وجود الكلمة المختارة ليشعر انها تراوغه وتماطله وتدانيه وتباعده حتى إذا هبطت في مكانها الذي اختاره لها تنفّس الصعداء ومشى في قصيدته مضاعف النشاط. الشعر إذن هو الجمال مقتنصاً الألفاظ.

الناثر: مهلاً يا أخي فليس تخيّر الالفاظ من اختصاص الشعر وحده، وإليك أمثلة من رائع النثر، قل لي بالله أية كلمة فيها يمكنك استبدالها بأخرى، وأي وضع يمكنك رصفها فيه أجمل وأكمل من وضعها الحاضر في قول ابن المقفع:

«من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه. فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره، فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرفه، ولن ينال محاسن غيره»، أو قول الفتح بن خاقان:

«محلك في طي الجوانح ثابت وإن نزحت الدار، وعيانك في أحناء الضلوع بادٍ وإن شحط المزار، فالنفس فائزة منك بتمثيل الخاطر بأوفر الحظ، والعين نازعة إلى أن تتمتع من لقائك بظفر اللحظ».

الشاعر: أنا أسلِّم معك جدلاً بأننا نتفق في اختيار الألفاظ ومراعاة التناسق، ولكن هذا قائم في الشعر بطبيعته وجزء من كيانه، وهو مكتسب في النثر اكتساباً ليدنيه من مرتبة الشعر الذي هو أرقى مراتب الأدب، والمختص بالحفاوة في كل مكان وزمان، بقي عليك أن تراعي الموسيقى التي يشيع أثرها في النفس عند تلاوة القصيدة أو الموشح، هذه الموسيقى الناشئة عن الأوزان وإنه عندكم يشال شيلاً، وإننا نتقيد بأصول وإنكم تتركونه هَمَلاً كالسوام. ثم مالكم يا صديقي تمدون أيديكم إلى ما هو من اختصاصنا، أعني القافية، ما بالكم خلقتم لأنفسكم شيئاً سميتموه السجع، وذهبتم كلفين بجعل آخر الفقرتين من قافية واحدة، ثم حَدِّثني عن الغناء هذا الفن الذي لم تستغنِ عنه أمة من الأمم، هل كان الغناء في يوم من الأيام نثراً؟ وقل لي كيف يكون موقفك من مغنٍّ يرفع عقيرته مغنياً مقالة افتتاحية في إحدى الجرائد، ألا تصفعه ناشدتك الله.

الناشر: لست أتردد في الاعتراف بأن ما في الشعر وما في النثر المسجوع من موسيقى وقافية يسهلان الحفظ ويساعدان في الخلود ولكنهما لا يخرجان عن كونهما تصنعاً وتكلفاً. ألم تر إلى بعض الشعراء حين يأنفون من هذا التكلّف يعمدون إلى قصائدهم فيرسلونها خالية من القافية مقلدين بذلك النثر.

الشاعر: لا إخالك يا صديقي مسجلاً علينا شيئاً حاوله المرحوم الزهاوي محاولة كانت فاشلة من أولها وردّها الشعر أنفة منها وترفعاً عنها وضناً بشاعرية الزهاوي السامية، هذا ما كان من أمر الشعراء الذين حاولوا الانطلاق من القافية، وأما كتاب السجع فهم طبقة معدودة عندكم وهم قوم أحبوا أن يكونوا شعراء وتطلعوا إلى سماء الشعر، فلما وجدوه صعباً وطويلاً سلّمه قالوا: لنعد إلى النثر، فلما عادوا إليه إذا بهم قد فسدت ملكتهم الأدبية فخسروا الأولى والآخرة وتعزّوا بقصة الغراب مقلّد الطاووس.

الناشر: ولكن الا توافق معي على أن سجع الساجعين لم يخلد منه إلا القليل، وأن ذاك القليل خُلّد لا لأنه سجع بل بالرغم من ذلك ، فأين المقامات كلها من صفحة من كليلة ودمنة. وعلى ذكر هذا الكنز النفيس أذكّرك أن القصص طالت أم قصرت تجد لها في النثر مرعى خصيباً بينما الشعر محروم منها.

وإليك هذه القصة التي تظهر فيها شهامة صلاح الدين:

كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون نهارا رجال ، وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أش ر و ساروا به حتى أتوا الى خيمة السلطان وعرضوه عليه ، ولما فقدته أمه بـ مـ ستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقـ ـوا ر م القلب، وقد اذنّا لك بالخروج فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عل . ف جد لى السلطان فلقيته وهو راكب وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاء دي مر ، وجهها في التراب، فسأل عن قصتها فأخبروه، فرقّ لها ودمعت ع ه و با مار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق فارتّده وأمر بدفع ثمنه إلى المش ي أخذه منه. ولم يزل واقفاً حتى أُحضر الطفل وسلّم إليها، فأخذته وبك ديد وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون، فأرضعته ساعة ثم لم حُملت على فرس وأُلحقت بعسكرهم مع طفلها.

الشاعر: القصة من اختصاص النثر لا أنكر ذلك عليك وإن كان الشعر العربي غير خال من عناصرها. وليس للشعر أن يفصّل ويبحث في الدقائق، وما من قصة طويلة إلا وأنت قادر على إجمالها بصحيفة أو اثنتين حين تحذف ذيولها وحواشيها، فما لي وما لطاولة في غرفة يصفها الكاتب في خمس صفحات من قصته، ولو أراد الشاعر أن يصفها لاكتفى بكناية أو تشبيه أو استعارة وترك لخيالك أن يذهب حيث يشاء في أمرها، فهو أبداً يخاطب منك الحس ولا يسيء الظن بإدراكك وقوة تصورك.

الناشر: والنثر ممثلاً في بعض الآيات والأحاديث والحكم والأمثال والتوقيعات والرسائل قد يوجز إلى حدّ يحار الإنسان عنده كيف يمكن لذلك اللفظ القليل أن يحوي كل ما فيه من المعنى.

انظر بالله كم من المعنى تنطوي عليه الآية الكريمة: «ولكم في القصاص حياة».

أو رسالة النبي إلى هرقل التي جاء فيها:

«سلام على من اتبع الهدى. اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين».

أو توصية عبدالحميد بشخص حين يقول:

«حق موصل كتابي عليك كحقه علي إذ جعلك موضعاً لأمله ورآني أهلاً لحاجته، وقد انجزت حاجته فصدّق امله».

أو في التوقيعات:

حين وقّع هارون الرشيد في قصه لأحد البرامكة: «أنبتتهُ الطاعة وحصدته المعصية».

ووقع جعفر في رجل شكاه بعض عماله: «لقد كثر شاكوك وقلّ شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت».

أو في الأمثال:

جَوِّعْ كلبك يتبعك

ربَّ اكلةٍ تمنع اكلات

قد ضلّ من كانت العميان تهديه

والحكم:

من سلك الجَدَد امِن العثار

المرء كثير باخيه

شرُّ الناس من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً

الشاعر: هل افهم منك أن النثر محاولة شعرية يعمد فيها الكاتب إلى الكمال عن طريق الإيجاز وحسن الوصف، وهو كذلك فيما أرى، بدليل أن القطع التي اخترتها لا تخلو من فقرات موزونة على بحور معلومة من بحور الشعر، وأراكم تزينون

نثركم بشواهد من الشعر فتبثونها في اثنائه، وما رأيت شاعراً يستشهد في قصيدة له بقطعة منثورة. وعلى الجملة فإن النثر - كما أستفيد من قولك - يعظم شأنه ويقوى أثره في النفس كلما دنا من الشعر واتصل به وتزلّف إليه.

الناشر: أرانا لا نفرق بين الشعر والنثر فلنعد إلى التعريف. لقد قلتُ إن الشعر كلام موزون مقفى فلم ترض، ثم قلت إنه حسن اختيار للفظ وحسن إيقاع في الموسيقى، فأريتك أن في النثر من ذلك آيات باهرات، فهل لديك على التعريف من مزيد؟.

الشاعر: كنت أريد لك أن تمارس صناعة الشعر لتعرف من أسراره وخفاياه ما نعرفه معاشر الشعراء كما نمارس نحن صناعتكم ونجد من تمام أداتنا أن نطلع على أسرارها ونعمل على إتقانها. فهنالك الخيال، وإليك ما يوقعه المتنبي في قلبك من الروعة حين يحملك على جناح شاعريته ويطوف بك فوق حصن الحدث، وهو يقول لك:

أتَوْكَ يجرّون الحديدَ كأنما ... جَرَوْا بجيادٍ ما لهنّ قوائمُ

خميسٌ بشرق الأرض والغرب زحفُهُ ... وفي أذن الجوزاءِ منه زمازم

تَجمّعَ فيه كلُّ لَسْنٍ وامّةٍ ... فما يفهم الحدّاثَ إلا التراجم

تَقطّعَ ما لا يقطع الدرعَ والقنا ... وفرّ من الفرسان من لا يصادم

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ ... كأنك في جفن الردى وَهْو نائم

تَمرّ بك الأبطالُ كلمَى هزيمةً ... ووجهُكَ وضّاحٌ وثغرُكَ باسم

الناشر: نعم إن في هذا لخيالا قوياً، ولكن اصغِ الى ما في هذا من الخيال واحكم لنفسك:

«الغد بحر خضمّ زافر يعبّ عبابه وتصطخب أمواجه فما يدرك إن كان يحمل في جوفه الدرّ والجوهر أو الموت الأحمر.

الغد صدر مملوء بالأسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر وتتسقطه العقول وتستدرجه الأنظار فلا يبوح بسرّ من أسراره إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال.

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لنرى صفحة واحدة من صفحات وجهك الجميل؟ أو لا ، فاقترب منا قليلاً علنا نستطيع أن نستشفّ خيالك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا، فقد طارت قلوبنا شوقاً إليك، وذابت أكبادنا وجداً عليك».

وقول جبران:

«انتم الأقواس وأولادكم سهام حية قد رمت بها الحياة عن اقواسكم، فإن رامي السهام ينظر العلامة المنصوبة على طريق اللانهاية فيلويكم لكي تكون سهامه سريعة بعيدة المدى».

الشاعر: وهناك العاطفة فما عساك أن تقول في داليّة ابن الرومي التي يرثي بها أوسط بنيه؟:

توخّى حِمامُ الموتِ اوسطَ صبيتي
فلله كيف اختار واسطةَ العِقْدِ
طواه الردى عني فاضحى مزارُهُ
بعيداً على قُرْبٍ قريباً على بعد
لقد قَلَّ بين المهد واللحد لبْثُهُ
فلم يَنْسَ عهدُ المهدِ إذ ضُمَّ في اللحدِ

واولادنا مثلُ الجوارحِ ايّها
فقدناه كان الفاجعَ البيّنَ الفقْدِ
لكلٍّ مكانٌ لا يسدّ اختلالَهُ
مكانُ اخيه من جزوعٍ ولا جَلْد
هل العينُ بعد السمعِ تكفي مكانَهُ
ام السمعُ بعد العينِ يهدي كما تهدي؟

اريحــانـةَ العـــينين والأنفِ والحــشــا

الا ليت شـعـري هل تـغـيـرتَ عن عـهـدي؟

كـانـيَ مـا اسـتـمـتـعتُ منكِ بضمَّةٍ

ولا شــمّـــةٍ في ملعبٍ لكَ او مـــهـــد

ارى اخـــويكِ البــاقـــيين كـــلاهمـــا

يـكـونـان لـلأحـــــزان اورى من الـزنـد

إذا لعــــبـــا في مـلـعبٍ لـكَ لذّعـــا

فـؤادي بمثل النار عن غـيـر مـا قـصـد

أما الغزل وعاطفة الحب فلا أحيلك على قصيدة بعينها بل على قبيلة برمتها، أحيلك على بني عذرة ومجانينهم ومهاويسهم، هؤلاء الذين ملأوا الدنيا طرباً ولم يتركوا خلجة من خلجات العين إلا واحسوا بها تتغلغل في أعماق الفؤاد، ولا خفقة من خفقات القلوب إلا وأثبتتها شاعريتهم وصورتها، وانت إذ تخرج من قراءة هذا الشعر الصافي تكون نفسك في آفاق من المثل العليا والشعور بالسمو مما لا عهد لك به، ولا سبيل إلى تدوينه في نثرك، ولا إلى الإعراب عنه بلسان.

وخذ لعاطفة الحماسة والفخر من شئت من الشعراء، فهذا قطريّ بن الفجاءة يخاطب نفسه بما يلقي بها إلى الموت:

اقـــول لـهـــا وقـــد طارت شَـــعــاعـــاً

مـن الأبــطـال ويــحـكِ لــن تـراعـــي

فـــإنك لـو ســـالـتِ بقـــاءَ يـومٍ

علـى الأجـل الـذي لـكِ لـم تـطـاعـي

فـصــبـــراً في مـــجـــال الموت صـبـــراً

فـــمـــا نيلُ الخـلودِ بمســـتطاع

وهذا المتنبي حين يقول مفتخراً:

واقـفـــاً تحت اخـمـصَيْ قـدْرِ نفـسي

واقـــفــــاً تحت اخـمــصيَّ الانامُ

الناشـر: الشاعر رجل غير عادي، من محب أودى بعقله الحب فهام على وجهه لا يدري أين يذهب، إلى مغرور يرى «واقفاً تحت أخمصيه الانام»، إلى مبالغ تملّكه الخيال فلم يتبين ما يفصله عن الواقع فراح يهرف بما لا يعرف، إلى واعظ وهو بالوعظ جدير.

هذا من تعدونه يا معشر الشعراء شاعراً كبيراً، ولكن بينكم من هانت عليه القافية لأن ذاكرته تعي حروف الهجاء كاملة، ولكن شقّ عليه الوزن فراح يقيس أبياته بالمسطرة، وإليكم مثلاً قول القائل:

نرجوكَ يا عبدَالوحيدِ المجيدِ الودودِ

ان ترسل لنا سكّةَ الحديدِ بالبريدِ

وإليك أمثلة من النثر تفيض فيها العاطفة:

«أيها الناس أين المفرّ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم.

واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى. فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا انفسكم عليه، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله».

وإليك خطاب مدحت باشا قبل إعدامه:

«أيها الحكام أستحلفكم بالله تعالى وباسم الحقيقة، الم يأتكم خطاب علوي عندما وقعتم على قرار إعدام المظلومين؟ الم يتحرك وجدانكم وترتجف أيديكم حينما حركتم الأقلام؟ أنتم في تلك الدقيقة وكلاء رب الموت. تفكروا جيداً هل شعرتم بإضطراب في افئدتكم؟ الم يخطر لكم ما يحلّ بأهلكم وعيالكم من عواقب الظلم؟ الم تعلموا أن حكمكم بالإعدام سيكون نقطة سوداء في بطون التواريخ يُتلى جيلاً بعد جيل؟.

فإذن أيها الجلاد لا تخف. أمامك من لا يهمه الموت في سبيل الدفاع عن الوطن، اقترب مني وضع حبل الإعدام في عنقي، وأنتم أيها الحكام سوف ترون عاقبة ظلمكم، وسنلتقي بكم إن شاء الله أمام محكمة العدل الكبرى، اقترب أيها الجلاد اقترب ونفذ ما أمرت به، فالحكم لله».

ثم اسمع إلى زياد يخطب: «إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدّة في غير عنف، وإني أقسم بالله لآخذنّ الوليّ بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انجُ سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم قناتكم».

ولكن اعذرني حين لا تبلغ أمثلتي حد الطغيان في العاطفة لأن النثر أداة العقل أولاً والعقل لا يسمح له بالشطط.

والنثر فوق ذلك يجمع بين الخيال والعاطفة كما في هذا:

«نفسي مثقلة بأثمارها فهل من جائع يجني ويأكل ويُشبع.

نفسي طافحة بخمرها فهل من ظامئ يسكب ويشرب ويرتوي.

الا ليتني كنت شجرة لا تزهر ولا تثمر، فألمُ الخصب أمرّ من الم العقم، وأوجاع ميسورٍ لا يُؤخذ منه لأكثر هولاً من قنوط فقير لا يُرزق.

ليتني كنت بئراً جافة والناس ترمي بي الحجارة فذلك اهون من أن أكون ينبوع ماء حيّ والظامئون يجتازونني ولا يستقون. ليتني كنت قصبة مرضوضة تدوسها الأقدام فذاك خير من أن أكون قيثارة فضية الأوتار في منزل ربه مبتور الأصابع وأهله طرشان».

ولكن تذكّر يا صديقي أن الخيال مع جماله ضد الواقع، وأن العاطفة مع نبلها تناقض العقل أحياناً، وأن الانسان عاقلاً خير منه مندفعاً، وما أعظمه حين يبشر بعقيدة فيقنع، وحين يقبس علماً فينير السبيل، وحين ينقل خبراً فيوضّح أمراً غامضاً. وإليك هذا المثل على الإقناع:

«قُضِيَ على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ويذلّ بعد الامتناع، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب تعبث به أيدي الأجانب من كل جانب، فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الإنسانية، ومنهم من يتداخل فيه بدعوى إقامة المدنية. ولم نر منهم من صدق في دعواه بل كلّهم تابع في ذلك قصده وهواه».

وها إن ابن مالك حاول نقل العلم في ألفيته كما كتب غيره الحساب والطب شعراً، فيا له من شعر، ما أبدعه!

الشاعر: أراد ابن مالك ان يسهّل حفظها على الناس، فلم يجد وسيلة خيراً من النظم، وكذلك كانوا يفعلون في العلوم الرياضية والطبيّة، وهذا ليس شعراً وإنما هو نظم لأنه لا يشتمل على ميّزات الشعر التي قدمناها، وهل يعقل أن تضع أبيات ابن مالك عن المتعدي واللازم والصحيح والمعتل والنواصب والجوازم في مرتبة قول أبي نواس مثلاً في الكأس والراح حين يقول:

تدور علينا الراحُ في عسجديّةٍ
حَبَتْها بانواع التصاويرِ فارسُ
قرارتُها كسرى وفي جنباتها
مَهاً تَدّريها بالقِسيّ الفوارس
فللراح مازرّت عليه جيوبُهمْ
وللماء ما دارت عليه القلانس

الناشر: الكأس قبلتكم، والكأس بدنكم، وبنت العنب وأمثالها مُثُلكم العليا يا معشر الشعراء، ولكن للناثرين مُثُلاً عليا أخرى ، منها قوله تعالى:

«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»

وقول النبي: «لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، «ادّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك».

وقول الحكيم: «ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً، فإن لم يقبله قلبك فقل لقلبك ما أقساك».

الشـاعـر: وعندنا المتنبي والمعري وشـوقي قد حـفظوا للإنسـانية مـثلها العليا بأوجـز لفظ وأجمل قالب وأبعده أثراً في النفوس. أمّا القول على القرآن والحديث فلسنا في مـجـال التناظر فيهمـا، لأنهمـا فوق الشـعـر والنثر معـاً، ولأنهمـا من كلام الوحي والنبوة لا الشعراء والكتاب.

الـنـاثـر : والآن إذا كنت لا تزال مصـراً على تفـضـيل الشـعـر، فـهـات نتناظر كل منا بما ينتصر له، انا بنثري وانت بشعرك ليتم لك الفوز.

الشاعر: نترك ذلك للمستمعين، وأدعو لك الله الا يكون بينهم شاعر تستنفره الحمية للشعر فيسلط لسانه على الناثرين بهجاء يدور مع الدهور ويخلد على العصور.

****

حديث أخلاقي

قراءة مختارة من كتاب أدب الدنيا والدين

لأبي الحسن البصري

ص ١٤٢ - ١٥٢

قال إبراهيم بن العباس: «مثل الإخوان كالنار، قلبها متاع وكثيرها بوار»

وقال ابن الرومي:

عدوكَ من صديقكَ مستفادٌ
فلا تستكثرنّ من الصحابِ
فإنّ الداءَ اكثر ما تراهُ
يكون من الطعام او الشراب
ودعْ عنكَ الكثيرَ فكم كثيرٍ
يُعاف، وكم قليلٍ مستطاب
فما اللججُ الملاح بمُرْوِياتٍ
وتلقى الريَّ في النُّطَف العِذاب

والإخوان أربعة أقسام:

منهم من يعين ويستعين، ومنهم من لا يعين ولا يستعين، ومنهم من يستعين ولا يعين، ومنهم من يعين ولا يستعين.

فأما المعين المستعين فمنصف يؤدي ما عليه ويستوفي ما له. فهو كالمُقْرِض عند الحاجة ويسترد عند استغناء، وهو مشكور في معونته، معذور في استعانته، فهذا أعدل الإخوان.

وأما من لا يعين ولا يستعين فمتروك قد مُنِعَ خيره، وقُمِع شره. وهو كالصورة الممثلة يروقك حسنها ويخونك نفعها، فلا هو مزعوم ولا هو مشكور، وإن كان باللوم أجدر.

وأما من يستعين ولا يُعين فهو لئيم كَلّ، ومهين مستذَل، فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن، فليس لمثله في الإخاء خطر، ولا في الوداد نصيب، وهو ممن جعله المأمون من داء الإخوان لا من دوائهم، ومن سمّهم لا من غذائهم.

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع، مشكور الصنيع. قد حاز فضيلتَيْ الابتداء والاكتفاء، فلا يرى ثقيلاً في نائبة، ولا يقعد عن نهضة في معونة. فهذا أشرف الإخوان نفساً، وأكرمهم طبعاً، فينبغي لمن أوجد له الزمان مثله (وهو الدرّ اليتيم) أن يثني عليه خنصره، ويعضّ عليه بناجذه، ويكون به أشد ضناً منه بنفائس أمواله وسنيّ ذخائره.

وإذا صفت للإنسان أخلاق من جرّبه، وتمهدت لديه أحوال من خبره، وأقدم على اصطفائه أخاً، وعلى اتخاذه خِدْناً، لزمته حينئذ حقوقه، ووجبت عليه حرماته. قال عمرو بن مسعدة: العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرقّ. وقال بعض الحكماء: من جاد لك بمودته فقد جعلك عديل نفسه. فأول حقوقه اعتقاد مودته، ثم إيناسه بالانبساط إليه في غير محرّم، ثم نُصحه في السرّ والعلانية، ثم تخفيف الأثقال عنه، ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة أو يناله من نكبة. فإن مراقبته في الظاهر نفاق، وتركه في الشدة لؤم. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: خير أصحابك المعين لك على دهرك، وشرهم من سعى لك بسوق يومه، وقيل: يا رسول الله! أيّ الاصحاب خير؟ قال: الذي إذا ذكرت أعانك وواساك، وخير منه من إذا نسيت ذكّرك. وكان أبو هريرة يقول: اللهم إني أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتي إلا بموافقة شهواتي، وممن ساعدني على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدي! وقال بعض البلغاء: عقود الغادر محلولة، وعهوده مدخولة، وما وَدَّك من أهمل ودِك، ولا أحبك من أبغض حبك. وقال الشاعر:

وكلٌ أخٍ عند الهـــوينى مُـــلاطفٌ
ولكنمـــا الإخـــوانُ عند الشـــدائدِ

وقال آخر:

شــرُ الأخِــلاء من كــانت مــودّتُهُ
مع الزمــان إذا مــا خــاف او رَغِــبــا
إذا وترْتَ امــرئٍ فــاحــذر عــداوتَه
من يزرعِ الشــوكَ لا يحــصــدْ به عنبــا
إن العـــدو وإن ابدى مـــســـالمةً
إذا راى منك يومــاً فــرصـــةً وثبــا

وينبغي للإنسان أن يتوقى الإفراط في محبته، فإن الإفراط داعٍ إلى التقصير. قال عليه الصلاة والسلام: أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغضْ بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما. وقال عمر رضي الله عنه: لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً.

وقال ابو الأسود الدؤلي:

وكن مــعــدناً للخــيــر واصــفحْ عن الأذى
فـــإنكَ راءٍ مـــا عـــملتَ وســـامعُ
واحــببْ إذا احــبــبتَ حــبّــاً مُــقــارباً
فـــإنك لا تــدري مـــتــى انتَ نــازع
وابغِض إذا ابغــضتَ غــيــرَ مُــبــاينٍ
فـــإنك لا تــدري مـــتــى انتَ راجــع

وإنما يلزم من حق الإخاء بذل المجهود في النصح، والتناهي في رعاية ما بينهما من الحق، فليس في ذلك إفراط وإن تناهى، ولا مجاوزة حدّ وإن أكثر وأوفى، فتستوي حالتاهما في المغيب والمشهد، ولا يكون مغيبهما أفضل من مشهدهما وأولى.

قال بعض الشعراء:

عليّ لإخـــواني رقــيــبٌ من الصـــفـــا
تبــيـــد الليــالي وَهْو ليس يبــيـــدُ

يذكّرنيهم في مغيبي ومشهدي
فسيّان منهم غائبٌ وشهيد
وإني لاستحيي اخي انْ ابرّه
قريباً وان اجفوه وَهْو بعيد

وليقصد المرء في زيارة صديق وغشيانه غير مُقلل ولا مكثر، فإن تقليل الزيارة داعية الهجران، وكثرتها سبب الملال. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه: «يا أبا هريرة زُرْ غباً ، تزدد حباً».

وبحسب ذلك فليكن في عتابه، فإن كثرة العتاب سبب للقطيعة، واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق. قال بشار:

إذا كنتَ في كل الأمورِ معاتباً
صديقَكَ لم تلقَ الذي لا تُعاتبهْ
وإن انتَ لم تشرب مِراراً على القذى
ظَمِئْتَ وايُّ الناس تصفو مشاربه
فعشْ واحداً او صِلْ اخاك فإنه
مقارفُ ذنبٍ مرةً ومُجانبه

ثم من حق الإخوان أن تغفر هفوتهم، وتستر زلتهم. لأن من رام بريئاً من الهفوات سليماً من الزلات رام أمراً معوزاً ، واقترح وصفاً معجزاً، وقد قالت الحكماء: اي عالم لا يهفو، وأي صارم لا ينبو، وأي جواد لا يكبو، ومن حاول صديقاً يأمن زلته كان كضال الطريق الذي لا يزداد لنفسه إتعاباً إلا ازداد من غايته بعداً. وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أحبُّ إليك؟ قال: من غفر زللي، وقطع عللي، وبلّغني املي.

وحُكي عن بنت عبدالله بن مطيع انها قالت لزوجها طلحة بن عبدالرحمن بن عوف، وكان أجود قريش في زمانه: ما رأيت قوماً ألأم من إخوانك. قال: مه، ولم ذلك؟ قالت: أراهم إذا ايسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك. قال: «هذا والله من كرمهم، يأتوننا في حال القوة عليهم، ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم»! فانظر كيف تأوّل بكرمه هذا

التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسناً وظاهر غدرهم وفاء، وهذا محض الكرم ولباب الفضل. قال الشاعر:

إذا ما بدتْ من صاحب لك زلّةٌ
فكن انتَ محتالاً لزلته عذرا
أُحبّ الفتى ينفي الفواحشَ سمعُهُ
كأنّ به عن كلّ فاحشةٍ وقرا
سليمُ دواعي الصدر لا باسطٌ اذىً
ولا مانعٌ خيراً ولا قائلٌ هُجْرا

والداعي إلى هذا التأويل شيئان: التغافل الحادث عن الفطنة، والتآلف الصادر عن الوفاء. قال أبو تمام:

ليس الغبيُّ بسيّدٍ في قومهِ
لكنّ سيّدَ قومه المتغابي

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

****

ذكرى المولد النبويّ

السلام عليك يا رسول الله، يا خاتم انبيائه الاكرمين. دينك الحقّ الذي أظهره الله على الدين كله، وكتابك كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

السلام عليك يا رسول الله، لقد اصطفاك ربّك بشيراً ونذيراً للعالمين، فأظهر لمولدك المعجزات، وخصّ طفولتك بالخير والبركة، وأحاط شبابك بالصدق والأمانة والعفاف، ثم كانت سنّ النبوّة: سن الأربعين، وإذا بوحي الله يهبط عليك في الغار ويهيب بك: «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربّك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم.».

وحسبك النبوّة مقاماً، وكفى بالرسالة شرفاً.

السلام عليك يا رسول الله، أشرف الأمم أمتك، وأعز قبيلة فيها قبيلتك، وأطهر أب في قريش: عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم.

السلام عليك يا رسول الله عنّا، وعن ملايين يدينون بدينك، ويرفعون رؤوسهم بين الأمم باسمك، وما زالوا ولن يزالوا يعتزّون بمخلّد مجدهم الأسمى، محمد صلى الله عليه وسلّم، وها هم اليوم – ولو كره أعداؤهم – يحتفلون بذكرى مولدك الأقدس، ذكرى ذلك اليوم الذي انبثق فجره ليكون نوراً خالداً على الدهور، وبشيراً بوحدةٍ عربيةٍ، يظلل لواؤها ما بين الأندلس والصين. ولئن أضاعوا هذا الملك الكبير الذي وطّدت أركانه على اسم الله، ولئن دالت تلك الدولة التي من رجالها الخلفاء العظام، والقوّاد الغطاريف، فإن في كلمتَيْ: «الله أكبر» تردّدهما الأجيال، وتهتف بهما العصور، لخير داعٍ إلى تسوية الصفوف، ويقظة الهمم، وإن في القرآن الأزلي لدستور العرب والعربية، لمن ينشدون الحرية والمجد والسلطان.

أيها الشاب المسلم، المحتفل اليوم بمولد النبي الكريم، أيكون آخر عهدك بالقرآن يوماً زيّنت فيه كرسي ختمك؟ وابتهج فيه بك أهلك؟ ارجع إلى قرآنك ، يرحمك الله ، كأني برسول الله، صلى الله عليه وسلم، ينظر إليك عاتباً لما رأى من إهمالك كتابه المبين، ثم أخذ ذلك الكتاب بيديه، وهو يحدّثك بحديثه الشريف مشيراً إليه: فيقول، أصدق من قال: «القرآن له ظاهر وباطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، والتفكّر فيه حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور».

دعني ووصفيَ آياتٍ له ظهرتْ
ظهورَ نارِ القِرى ليلاً على عَلَمِ
لها معانٍ كموج البحر في مددٍ
وفوق جوهره في الحسن والقيم
قرّتْ بها عينُ قاريها فقلتُ له
لقد ظفرتَ بحبل اللهِ فاعتصم

أيها الشاب المسلم، إن وراء هذا الابتهاج بمولد النبي الأعظم، صلى الله عليه وسلّم، لغاية هي أسمى من هذه المظاهر، وروحاً أعلى شأناً من زخرف المهرجان، هنالك علم بعد جهل، وعدل بعد ظلم، وحضارة بعد بداوة، ونظام بعد فوضى. كل ذلك يذكّرك به مولد النبي العربي، ويذكرك بما كان عليه العرب قبله، وما وصلوا إليه بعده، فهل عاهدت نفسك على تدبر قرآنه الكريم، واتّباع صراطه المستقيم؟ على ذلك عاهدْ نفسك، في هذا اليوم، تنل ما تصبو اليه، وتنعم في ظل الكرامة، ويتحقق أملك المنشود.

والسلام

****

علي بن الجهم
وطائفه مختارة من شعره

ترجم صاحب الأغاني لعليّ بن الجهم حياته ببيتين من الشعر تغنّى بهما أبو عيسى ابن الخليفة المتوكل وهما:

هي النفسُ ما حمّلْتَها تَتحمّلُ
وللدهر أيامٌ تجور وتَعْدِلُ
وعاقبةُ الصبرِ الجميل جميلةٌ
وافضلُ اخلاقِ الرجال التجمّل

وعلي بن الجهم من معاصري المتوكل من الخلفاء والبحتري من الشعراء، «وكان شاعراً فصيحاً مطبوعاً ، وخُصّ بالمتوكل حتى صار من جلسائه ، ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية إليه بندمائه والذكر لهم بالقبيح عنده، وإذا خلا به عرّفه أنهم يعيبونه ويثلبونه وينتقصونه فيكشف المتوكل عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه بعد أن حبسه مدة».

وكان – قبحه الله – يهجو آل أبي طالب رضي الله عنهم ، ويذمّ الشيعة ويغري بهم حتى لقد تناوله البحتري بهجاء أليم مقذع، ونفى نسب قريش عنه بقوله:

إذا ما حصّلتْ عُليا قريشٍ
فلا في العِير انتَ ولا النفيرِ
علامَ هجوتَ مجتهداً عليّاً
بما لفّقتَ من كذبٍ وزُورِ

على أن لهذا الشاعر – على سوء خلقه – قصيدتين أشهر من اسمه ، وما من متأدب إلا ويعرفهما أو يحفظهما، الأولى قصيدته التي مطلعها:

عيونُ المها بين الرصافةِ والجسرِ
جلبنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري

والثانية وهي أجمل مما اعتذر به سجين عن سجنه، وأولها:

قــالوا حُـبــسْتَ فـقلتُ ليس بضــائري

حـــبْــــسي وأيُّ مُــــهنّدٍ لا يُغْـــمَــدِ

وقد وقعتُ له على طائفة حسنة من شعره في كتاب الأغاني، منها قصيدة كتب بها إلى أخيه أول ما حُبس جاء فيها:

تـوكّلـنـا عـلـى ربِّ الـ ـــــمـــــاءِ

و ـ ـنـا لأســـبـــاب الـقـــضـــاءِ

ووطَّنّا عـلى غِـــيَـــ الـلـيـــالـي

نفـ ـســأ ســامـــحتْ بـعـــد الإباء

وافـنـيــــةُ الملوك مُــــد ـــجُــبـــاتٌ

وبـا ـ الـلــهِ مـــــبــــــذولُ الـفِـنـاء

هــي الأيـامُ تَـكْـلـمـنـا و ـاســــــو

وتـأ ـ بـالـســعـــادة والشـــقـــاء

وجـــــــرّبـنـا وجـــ ـــرّبَ أولـونـا

فـــ لا شـيءَ أعـــــزُّ مـن الـوفــــاء

وإليك قوله بعد نفيه إلى خراسان، وكان وصل إليها ليلاً فحبسه طاهر بن عبدالله، ثم أُخرج فنُصب مصلوباً مجرداً من ثيابه، فلما أُنزل قال يفتخر بنفسه ويذكر صبره على المكاره:

نـصـــبـــوا بـحــمـ ـ اللهِ ملءَ قلوبهم

ـــرفــأ وملءَ صـــدورهم تـبـــجـــيـــلا

مـــــا ازداد إلا رفـــــعـــــةً بـنـكـولـه

وازدادتِ الأعــــــــــداءُ عـنـه نُـكـولا

هل كــــان إلا الـلـيثَ فـــارقَ غِـــيلَـهُ

فــرأيـتَــه فـي مَــحــمـلٍ مــحـــمــولا

مــــا عـــــابه أن بُـزَّ عـنـه ثـيـــابُـهُ

فـالـســيـفُ أهولُ مـــا يُرى مـســلـولا

إن يُبْتَذلْ فالبدرُ لا يُزري به
ان كان ليلةَ تمّه مبذولا
او يسلبوه المالَ يُحزِن فَقْدُهُ
ضيفاً المّ وطارقاً ونزيلا
او يحبسوه فليس يُحبَس سائرٌ
من شعره يدعُ العزيزَ ذليلا
إن المصائبَ ، ما تعدّتْ دينَهُ ،
نِعَمٌ وإن صَعُبتْ عليه قليلا
واللهُ ليس بغافلٍ عن امرهِ
وكفى بربّكَ ناصراً ووكيلا
ولَتَعْلَمُنّ إذا القلوب تكشّفتْ
عنها الأكنّةُ مَن اضلُّ سبيلا

وللشاعر في غير هذا الباب آيات في الشعر تتجلى فيها البداهة والطبع ، من ذلك قوله متغزلاً:

تنكّر حالَ علّتيَ الطبيبُ
وقال ارى بجسمكَ ما يريبُ
جسستُ النبضَ فيكَ فدلّ جَسّي
على الم له خبرٌ عجيب
فما هذا الذي بكَ هاتِ قل لي
فكان جوابَه مني النحيب
وقلتُ: أيا طبيبُ الهجرُ دائي
وقلبي يا طبيبُ هو الكئيب
فحركَ رأسَه عَجَباً لقولي
وقلتُ: بلى إذا رضي الحبيب
فقال: هو الشفاءُ فلا تُقصّرْ
فقلتُ: اجلْ ولكنْ لا يجيب
الا هل مُسْعِدٌ يبكي لشجوي
فإني هائمٌ فردٌ كئيب

وقال في مغنٍّ بارد حضر معه مجلساً، والمعنى لطيف خفيف الروح، قال: كنت في مجلس فقال مغني القوم: كم بيننا وبين الشتاء؟:

فذرعتُ البساطَ منّي إليهِ
قلتُ هذا المقدارُ قبل الغناءِ
فإذا ما عزمتَ أن تتغنّى
آذنَ الحَرُّ كلُّه بانقضاء

وألهف إذ لم يكن في متناول يدي الآن قصيدة علي بن الجهم التي تبتدئ بهذا المطلع الرائع:

عيونُ المها بين الرصافةِ والجسرِ
جلبنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري

ولكن لا يفوتني أن أروي لكم طريفة تتعلق بهذا البيت، وهي تدل على ما شئت من ذكاء وبديهة وسعة اطلاع. قيل إن رجلاً كان يقطع جسر دجلة إلى الرصافة فمرّت به فتاة رائعة الحسن بارعة الجمال فنظر إليها وقال: رحم الله علي بن الجهم، فأجابته على الفور: ورحم الله أبا العلاء المعري، وذهب كلٌ في طريقه، وقد فهم أحدهما ما أراد الآخر.

أما هو فقد أراد بقوله : «رحم الله علي بن الجهم» أن مرور هذه الجميلة على الجسر إلى الرصافة قد ذكّره بقول الشاعر:

عيونُ المها بين الرصافةِ والجسرِ
جلبنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري.

وأما جوابها بالترحم على المعري، فقد أرادت به قول هذا الشاعر:

فيا دارَها بالخيف أما مزارُها
قريبٌ ولكنْ دون ذلك أهوالُ

وفيه من الدلالة على عزة الفتاة وصعوبة التوصل إليها ما فيه، وهذه الحكاية على حسن وضعها لا تخلو في شطرها الثاني على الأقل من مبالغة.

ونختم ما اخترناه لهذا الشاعر بأبياته المشهورة وهي:

قــالوا حُــبِــستَ فــقلتُ ليس بضــائري
حــبــســي وايُّ مُــهنَّدٍ لا يُغــمَــدُ

أوَمـــا رايتَ الـليثَ يـالـف غِـــيلَهُ
كِـــبْــراً واوبـاشُ الســـبـــاع تَرَدَّد

والشـــمسُ لولا انهـــا مـــحــجــوبةٌ
عن نـاظريكَ لما اضـــاء الفـــرقـــد

والبـــدرُ يدركـــه السِّـــرارُ فـــتنجلي
ايامُـــه وكـــانه مُـــتــجــددُ

والحـــبسُ مـــا لم تغـــشَــه لدنيّـــةٍ
شـنعـــاءَ نعم المنزلُ المتـــوردُ

بـيتٌ يُجـــددُ للكريم كـــرامـــةً
ويُزار فـــيـــه ولا يزور ويُحْـــفَـــد

توفي علي بن الجهم سنة تسع وأربعين ومئتين هجرية، الموافقة سنة ثلاث وستين وثمانمئة ميلادية.

ويروي صاحب الأغاني من آخر شعر له قوله:

وا رحـــمـــتـــا للغـــريب بالبلد النا
زحِ مـــاذا بنفـــســـه صنعـــا

فـــارقَ احـــبـــابَه فـــمـــا انتـــفـــعـوا
بالعـــيش من بعـــده ولا انتـــفـــعـــا

ولمن شاء أن يطّلع على حياة هذا الشاعر مفصلة، فليرجع إلى الجزء التاسع من كتاب الاغاني المشهور - طبعة ساسي المغربي - وأنا كفيل له بأن سيجد شاعراً مجيداً يستحق العناية والدرس.

ملاحظة: *الحديث بدون تاريخ.*

****

فوز وعباس

في شعر العباس بن الأحنف شاعر بلاط الرشيد ميزتان اثنتان: إحداهما تخصصه بالغزل دون سائر أغراض الشعر مع انقطاعه إلى حبّ واحد، والثانية فضله على الشعراء بانتقال معانيه إلى الغرب بأوزان أهل الأندلس بواسطة الشعراء المتنقلين المعروفين بالتروبادورز، ونشوء الشعر الغربي المعروف بالوجداني بتأثير هذا الانتقال.

أما الميزة الأولى فغرابتها في أنّ ابن الاحنف لم يتأثر بمحيطه كما تأثر به غيره من الشعراء، ويحسبنا أن نرجع إلى دواوينهم فنقرأ لأبي نواس مثلا غزلاً في جنان وعنان ومكنون ورحمة وعريب وغيرهن مما يتجاوز العشر عدّاً. وفي لقب الشاعر مسلم بن الوليد (بصريع الغواني) برهان على ما نذهب إليه، وكذلك في لقب الحسين بن الضحاك (بالخليع). فبينا أترابه ينتقلون بقلوبهم من حب إلى حبّ وتتنزه أعينهم بين وجه حسناء وقامة هيفاء، كان ابن الأحنف ثابت القلب على حب واحد، قرير العين بحسناء واحدة. وبينا إخوانه يتسابقون على أبواب الخلفاء والأمراء يمتدحونهم ويستدرون جودهم كان ابن الأحنف مكرماً منعماً عند الخليفة الرشيد غير مطالب بمديح ولا متقدم برثاء، وإنما اكتفى الخليفة بأن يقرّب منه شاعراً غزلاً فصيحاً يقول الشعر لنفسه لا لغيره، ويحيا لهواه لا لهوى سواه.

وبينا زملاؤه لا يحجمون عن الدخول في غمار الحزبية القحطانية والعدنانية يضرمون وقودها بألسنة الهجاء والتعصب، ويشقون بها نفياً وتعذيباً وحرماناً كان ابن الأحنف في معزل عن ذلك كله، له من حبه شاغل يشغله عن كل ما حوله.

أما الميّزة الثانية، أعني انتقال معانيه إلى الغرب، فنظرية حديثة صاحبها المستشرق الألماني الدكتور يوسف هل. وقد كنا أذعنا له حديثاً من هذا الميكروفون أثبت الدكتور فيه أن الأدب الغربي قد تأثر بالشعر العربي ، وأسند الفخر والفضل في ذلك لشاعرنا

العباس بن الأحنف، وكفى بذلك للشاعر ميّزة وفخراً وفضلاً على أقرانه الشعراء.وقد تخصص الدكتور يوسف هلّ بدراسة العباس بن الأحنف، وكتب عنه رسالة بعنوان: (العباس بن الأحنف في ظلّ الرشيد)، نشرتها مجلة «إسلامكا» الألمانية، الْمّ فيها الدكتور بحياة الشاعر وتطوراتها إلماماً لا مطمع بعده لكاتب.

هذا هو الشاعر الفريد العباس بن الأحنف، أما حبيبته فهي «فوز» جارية محمد بن منصور أحد أشراف بغداد.

وليس لدينا مرجع للتعرف بفوز حبيبة العباس غير ديوانه الذي وقف شعره عليها وخصّه بها، قال:

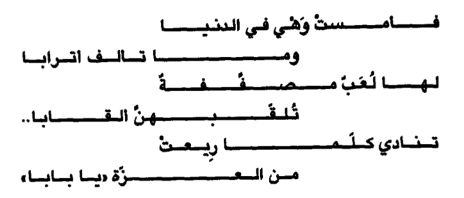
يا من يسائل عن فوزٍ وصورتها
إن كنتَ لم ترها فانظرْ إلى القمرِ
كأنما كان في الفردوس مسكنُها
فجاءتِ الناسُ بالآيات والعِبَرِ

ويرى الشاعر أن كل حسن تقع العين عليه إنما هو من فضل حسنها، فيقول:

إن نفسي مطيعةٌ لهواها
لهجَتْ بالهوى فقد أشقاها
اتّقي سخطَها فراراً من الهَجْـ
ـرِ، وإنْ أذنبتْ طلبتُ رضاها
بنتُ خِدْرٍ أخشى العيونَ عليها
أكملَ اللهُ خلْقَها إذ براها
أين لا أينَ مثلُها إنّما يَحْـ
ـسُنُ من فضل حسنها مَنْ سِواها

ويصفها الشاعر وهي طفلة صغيرة ، فيقول:

وكانت جارةٌ للحُو
رِ في الفردوس أحقابا


فـامسـتْ وَهْي في الدنيـا
ومـا تـالـف اترابـا
لهـا لُعَبٌ مـصـفّـفـةٌ
تُلقّبهنّ الـقـابا..
تنادي كـلّمـا رِيعتْ
من العـزّة «يا بابا»

وما رأيت أسخف من ناقد معاصر لابن الأحنف يتهمه من أجل هذه الأبيات بالسخف، ويجد فيها ليناً ورخاوة.. فكأن الناقد (غفر الله له) كان ينتظر من الشاعر أن يقول عن حبيبته وهي في سنّ الطفولة أنها تفصّل الثياب، وتغشى مجالس العلم والأدب، وتنظم الشعر الرائع، وتقوم بتدبير المنزل. فضلاً عن تفقّهها في الحب والمغازلة وخبرتها بتأثير الهجران والنفور على قلب عاشقها. أترى الناقد أراد هذا أم كبر عنده أن يتدنى الشاعر إلى ذكر اللّعب التي كانت فوز تلهو بها وتطلق على كل لعبة من لعبها لقباً، وكيف رضي الشاعر لنفسه أن يأتي بكلمة (بابا) على لسان فوز، كلّ ذلك يراه الناقد سخيفاً ولكنني أراه في حدود البلاغة، وهل البلاغة إلا الإتيان بالقول بحسب ما يقتضيه المقام، فالشاعر يتكلم عن فوز الطفلة وهذه هي أعمال الطفولة وكلماتها، ولكلّ مقام مقال.

واستمعوا الآن إلى العاطفة الصادقة تتكلم، وإلى الوفاء الأكيد ينطق، وإلى النفس الشاعرة تنظر بين جوانبها فتُخرج روائع الصور، وتنفثها على لسانه سحراً حلالاً وحكمةً بالغة وعلماً بأحوال النفس الإنسانية واسعاً، قال العباس بن الأحنف:

يا فـوزُ يا منيـةَ عـبّـاسِ
قلبي يُفـدّي قلبَكِ القـاسي
اسـاتُ إذ احـسـنتُ ظنّي بكم
والحـزمُ سـوءُ الظنّ بالناس
يـقـلقـني الشـوقُ فـاتيكمُ
والقلبُ مملوءٌ من اليـاس
اعطيتُ قلبي فـيكُمُ سـؤلَهُ
فـعـاد اعطاني على راسي

وقال:

إن الهـــــوى لـو كـــــان يَنْـــ
ـفـــذُ فـيـــه حكمي او قـــضـــائي

لطلبـــتُـــه وجـــمـــعـــتُـــهُ
مـن كـل أرضٍ او ســـــمـــــاءِ

فـــقـــسَـــمْـــتُـــه بيني وبَيْـ
ـنَ حـــبـــيبٍ قلبي بالسَّـــواء

فنعـــــيش مـــا عـــشنا على
مـــحضِ المودّة والصـــفـــاء

حـــتى إذا مـــتنا جَـــمـــيـ
ـعـــاً، والامـــورُ إلى فناء

مـــات الهـــوى من بعـــدنا
او عـــاش في اهل الوفـــاء

وهذه أمنية خالصة ولكنها بعيدة المنال مع الأسف، وقال:

راتْ رغـــبـــةً مني فـــابدتْ زهادةً
الا ربَّ مـــحـــرومٍ من الناس راغبِ

اريد لادعـــو غـــيـــرَها فـــيـــجرُني
لساني إليها باسمها كـالمغالب

ولو كـــان قلبي يســـتطيع تكلّمـــاً
لحـــدّثكم عني بكل العـــجـــائب

لقد قال داعي الحبِّ «هل من مُـجاوبٍ»
فـاقـبلتُ اسـعى قـبل كلّ مُـجاوِب

فتأملوا في هذه السهولة التي في نظمه، وفي هذه الطريقة المبتكرة التي يتناول بها موضوع الحب ، والتنويع الكثير الذي يودعه كل مقطوعة من مقطوعاته، مع العلم بأن ميدان الغزل أضيق من ميادين المديح والرثاء ، والعثرة فيه دانية، ولكن ابن الأحنف شاعر زاخر الشاعرية، مُطّلع واسع الاطلاع، عالم بفنون الكلام وأساليبه.

وإليكم هذه المغالطة الرشيقة يدفع بها عن نفسه تهمة الهوى، وعن حبيبته فوز شبهة الناس وريبتهم في علاقاتها به، قال:

أبكي على الشـرق إن كـانت منازلُهـا
مما يلي الغـربَ خـوفَ القيلِ والقـالِ
أقـول في الخـدّ خـالٌ حين انعـتُـهـا
خـوفَ الوشـاة ومـا بالخـدّ من خـالِ

ومن لطيف ما يروى عنه أنه ضرب غلاماً له وحلف أن يبيعه، وكان في خلق الشاعر شدّة، فمضى الغلام إلى فوز فاستشفع بها عليه، فكتبت إليه فيه وطلبت إليه العدول عن فكرته، فقال:

يـا من أتـانـا بالشـفـاعـاتِ
من عند مَنْ فـيـهـا لجـاجـاتي
إن كـنـتُ مـولاكَ فـإن الـتـي
قـد شُـفِّـعتْ فـيـكَ لمولاتي
إرسـالُـهـا فـيـكَ إلينا لنا
كـرامـةٌ فـوق الكرامـاتِ

ورضي عنه ووصله وأعتقه. جزى الله الشعراء عن طيب قلوبهم وحسن موداتهم خيراً.

ومن نوادرها معه أنها وعدته بلقاء في مساء اليوم التالي، فلما أتى الوعد هيأ نفسه وتطيب ولبس أفخر ثيابه، فلما بلغ المنزل وجد من يخبره أنها رحلت في الصباح الباكر، فقال في ذلك في قصيدة:

همـو كـتـمـوني سِرّهم يومَ أزمـعـوا
وقـالـوا اتّـعـدنـا للرواح وبكّروا

وقد أنشد المأمون هذا البيت فقال: «لقد سخروا بأبي الفضل»! وأبو الفضل كنية العباس بن الأحنف.

واجتمع أبو نواس مع العباس بن احنف في مجلس فقام العباس لشغل ، فسئل أبونواس عن رأيه فيه وفي شعره فقال: هو أرق من الوهم، وأنفذ من الفهم، وأمضى من السهم، ثم عاد العباس، وانتهز الحضور غيبة من أبي نواس فسألوا العباس عن رأيه فيه وفي شعره فقال: إنه لأقر للعين من وصل بعد هجر، ووفاء بعد غدر، وإنجاز وعد بعد يأس، ورجع أبو نواس ودارت كؤوس الشراب فتناول أبو نواس قدحاً وقال:

ابا الفضلِ اشربَنْ ذا الكأ
سِ ، إني شاربٌ كاسي

فقال العباس:

نَعَمْ يا اوحدَ الناسِ
على العينين والراسِ

فقال أبو نواس:

فقد حفّ لنا المَجْلِـ
ـسُ، بالنُسرين والآس

فقال العباس:

وإخوانٍ غطاريفٍ
سراةٍ سادةِ الناس

فقال أبو نواس:

وخَودٍ لذّةِ المسمو
عِ مثلِ الغُصُنِ الكاسي

فقال العباس:

وقد ألبسها الرحمـَ
ـنُ من احسن إلباس

فقال أبو نواس:

وقد زيِنَتْ بإكليلٍ
يواقيتٍ على الراس

واستمرت المساجلة فكان ما نُسي منها اكثر مما حُفظ.

وقد مات الشاعر بتأثير هواه فوز، كما مات من قبله مثله من شعراء الحبّ العفيف الصادق. مرض وهو في الحجاز بعيد عن بغداد مقر حبيبته، ولما أضناه السقام وتحامل عليه اليأس والفراق فاضت روحه وهو ينشد:

يـا بـعـــــيــــــدَ الدار عن سكِنْـه
مُــــفْــــرَداً يـبكي علـى شـــجنِهْ
كلّمــــــا جــــدّ الفـــــراقُ بـهِ
دبّـتِ الأســـــــقــــــامُ فـي بـدنـه
ولـقـــــد زاد الـفـــؤادُ شَـــجــــاً
طـائــرٌ يــبـكــي عــلـــى فَــنَــنــه
شـــــفُّــــه مـــــا شــــفّني فـــبكى
كــلُّـــنــا يــبــكــي عــلـــى وطــنــه

رحم الله العباس بن الأحنف، وغفر الله لحبيبته فوز ما جنته بدلالها وجمالها عليه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إبراهيم طوقان

١٩٣٧/١/٢٧

****

الطبيب الشاعر

تذاع مساء الأربعاء في ١٧ آب سنة ١٩٣٨

الساعة ٧,٠٠

عرفته طالباً في الجامعة، موكلاً بالوجوه الحسان والقدود الهيفاء، يتبعها فيتصيّد من ذلك الجمال لشاعريته عذوبة ورونقاً وسحراً، ويقتنص منه معاني يوقّعها انغاماً مجنحة رقيقة الألفاظ، شجيّة القوافي. وكان له من حفظه للشعر الرصين ومعرفته بأساليب الفصاحة، ذخيرة تجعل في شعره ما يذكرك بعشاق بني عذرة المعاميد وشعرائها المدلّهين.

ولم تكن الجامعة لتبخل على شاعرنا بما يوحي إليه بالقصيدة، وبالمقطع إثر المقطع، فموقعها فوق الهضبة المشرفة على البحر، ومنظر الجبال المطلة على رحابها مكللة بالثلوج، وغدوّ الفتيات ورواحهن كأسراب الظباء، كل ذلك كان غذاء لشاعريته فاطّرد نموها وازدهرت، وآتت جناها شعراً عالياً.

وكان بحكم تخصصه بالطب على صلة بمستشفيات الجامعة، ولا مندوحة له عن التعرف إلى الأوانس الممرضات والتحدث إليهن في الشؤون الطبية بادئ الامر.. ثم في شؤون شتى.. ثم الاستقرار عند إحداهن بسلام وكلام.. فموعد فلقاء..

ولن أنسى هيئته وقد دخل علي يوماً في غرفتي وهو يضرب كفاً بكف ويتأوه ندامة وحسرة.. وأسأله عما دهاه فيقول: «اتعرف من هو أغبى مني؟ فارقتها يوم أمس على موعد لقاء في الساعة الحادية عشرة، ولم أدر ما أصابنا.. إذ لم يفطن أحدنا إلى تعيين مكان اللقاء...!» قلت: دعني من قولك هذا وهات ما عندك، فأنشدني:

الا بابي غانيةٌ: بها للهوى ما بيَهْ

نظرتُ لها نظرةَ الذليلِ الى الطاغيَهْ

وقلتُ الا هل اراكِ في الليلة التاليه

فقالت إلى ملتقاكَ في الساعة الحاديه

وطارت بنا نشوةٌ: فلم نذكرِ الناحيه

فيا من رآها إليَّ رائحةً غاديه

وحُمْتُ على دارها: وحامت على داريه

فلا أنا حاظرِبها: ولا هيَ بي حاظيه

فعادت بأحزانها

وعدتُ بأحزانيه

ومرت تلك السنة وقد صرفه هواه هذا خلالها عن التنقل من زهرة إلى زهرة... وتقلبت شاعريته في أكناف ذلك الحب الواحد فلم تكد تتعداه، وكان من أجمل ما ناجاها به شكوى حمّلها إليها مع طائر وأنطقه بها ، قال:

ولي جارٌ على فَنَنٍ رطيبٍ

أعلّمه أفانينَ النواحِ

تَحمّلَ من عليل الحبِّ شكوى

وطار إليكِ مُنطلَقَ الجناح

رآكِ فظلَّ في الإصباح يشدو

صباحَ النورِ يا نورَ الصباح

تعالَيْ فالحبيبُ يذوب شوقاً

ولبس على ازديارِكِ من جُناح

تعالي فالصبا حُلُمٌ ويمضي

وتَغرَوري الرياضُ من الأقاحي

تعالي عَلّليه بكوثريٍّ؟

يجول على ثناياكِ الوضاح

فلو ابصرته والقلبُ دامٍ

يميل عليه من ألم الجراح

إذن لأقلتِ عثرتَه واضحى

يعلّمني أفانينَ الصُّداح

وقوله على لسان الحبيبة من قصيدة:

واعــــدتُهُ حــــتى إذا وافــــيــــتُــــهُ
الفــيــتُــه وافى على اســتــعــجــالِ

ان الهــوى سـبّــاقُ مــيــعــادِ الهــوى
مــــرتــاده بمطيّــــة الآمـــــال

اهـوى عليَّ يضـــمّني وينــال مـن
شـــفـــتيَّ اولَ عــــهــــده بوصــــال

فـضـمـمـتُـه نشـوى وملتُ ومــال بي
وذُهِلتُ عن دنيــايَ في اســتــرســالي

يا حــبّــذا ولعُ الحــبــيــبِ وحــبّــذا
ولــعــي وفــــــرطُ دلالــه ودلالـي

حــتى إذا مــا الفــجــرُ صــاح نذيرُهُ :
كُــفّــا فــســربالُ الدجنّةِ بال

قلتُ الوداع فــراح يُقــعــدني الهــوى
سَلِمَ الهــوى ويجــدّ في إمــهــالي

ورجـــعــتُ ادراجي وبي لـو تـنـثـنـي
فــتــئــوب زهرٌ آذنت بزوال

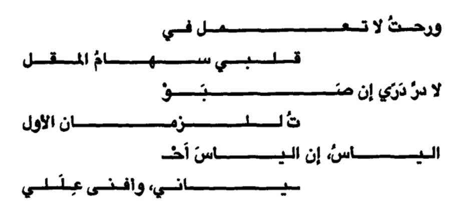
هيــهــات مــا تمُّ الوصــالُ لعــاشقٍ
يا ليت حظي منه طيفُ خــيــال

ثم، مر به دور أيأسه منها، وعقبه فراق لم يكن بعده لقاء، فقال ولم يكن قوله إلا تعلّة الآيس الملهوف:

اصـــبـــحتُ، لا حـــبـــيـــبَ لي
وغِـــــــيـــضَ وِرْدُ الآمــلِ

انــام مـلءُ جــــفــنـيَ الــرُ
رُ قـــــادُ والبــــــالُ خَـلِـي

شــــفـــيتُ باليـــاس حَـــزا
زاتِ الهــــوى المشـــتـــعـل


ورحتُ لا تعمل في
قلبي سهامُ المقل
لا درّ درّي إن صبَو
تُ للزمان الأول
اليأسُ، إن اليأسَ أحْـ
ـياني، وأفنى عِلَلي

وضرب الدهر ضرباته، فإذا الشاعر يوشك أن يتخرّج طبيباً، وقد كان تفوقه على اقرانه موضع عجبي. فما صرفه الشعر عن الطب، ولم يقوَ الطب على العبث بشاعريته. وكان ينظم أحياناً الأراجيز يودعها الاصطلاحات الطبية، وأسماء الأمراض والعقاقير فيقبل زملاؤه على نسخها لما في حفظها منظومة من السهولة. وكان يحيطها بألوان من الفكاهة فيجعل من جفائها طلاوة تسرع بها إلى الرسوخ في الذاكرة، وبينما تراه يناقش رفاق صفّه في بعض نظريات الجراحة، أو يناظرهم في أعراض بعض الأدواء إذا بالمذاكرة تنقلب إلى مطارحة شعرية، وإذا به خبير بطبّ البيان خبرته بطب الأبدان، ويكون قبل لحظة في غرفة التشريح مقبلاً على عمله بين القروح والجراح بلذة ونهم للمعرفة، فإذا سمع بيت شعر رديء آذاه، ورأيته يسدّ منه أنفه، فاعجبْ لهذا التناقض...!

وكان همه بعد يأسه من ذلك الهوى أن يخرج من الجامعة بشهادة وعروس أو بخطبة على الأقل. ولم يطل به المدى حتى كان يفاوض في أمر شريكة حياته.. وأوشك أن يتم ذلك بعد أن رأى الفتاة ووقعت من نفسه موقع الإلهام، وكانت على جمالها الممتاز قصيرة القامة ، فحبّب إلينا شعره فيها قصر القامة، فذلك حيث يقول:

أهوى القصيرةَ في الحسان فإنها
أبداً تظل صغيرةَ الجثمانِ
تُرْبي على الستين وَهْي كأنها
سِتٌّ خلَتْ من عمرها وثَمان
فإذا ضممتَ جمعتَها في ضمّةٍ
وإذا لثمتَ فخدُّها لكَ دان

ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهي سفينته.. إذ أغلى أهلها المهر، وأصرّ هو ألاّ ينفق في سبيل عقد الزواج درهماً، وحجته انه طبيب رأس ماله سماعة وورقة وقلم، وأن تقاليد الزواج اليوم لم يفرضها قرآن، ولا جاء بها حديث، فهي مفسدة للحياة الزوجية واتّباعها يؤدي إلى الفقر ويطرح بالزوج تحت عبء ثقيل من الهموم والديون. وأصر أهلها على العمل بالتقاليد، وأصر هو على فلسفته في الزواج. قال لي: لقد كانت جلسة حامية الوطيس خرجت منها غير آسف، وضربت بقلبي وحبي عرض الحائط.

ولم يمض شهر وبعض شهر على هذا الحادث حتى كان الشاعر يقضي الشهور الأخيرة من حياته المدرسية مستعداً لامتحان الشهادة، وكنت تراه يروح ويغدو وإلى جانبه ابنة خاله، فقد تزوّج منها وأتى بها معه إلى الجامعة، فتم له الفوز بالشهادة والعروس.

عاد الشاعر إلى بلده طبيباً، وكانت أخبار تفوقه قد سبقته ممهدة سبيل النجاح والتوفيق وتضمن له الإقبال الدائم، وخاض معترك الحياة فلم يجده من هذه الناحية عسيراً، ورُزق المال والبنين فتمت له بكليهما زينة الحياة الدنيا.

ولكن قلبه كان في معزل عن ذلك كله، لقد كان خفوقه مستمداً من عالم هواه المخذول، هوى الخطيبة ذات المهر الغالي، وأتيح له بها لقاء هيأه مرضها فكان سبباً لتجديد العهود، لكنّ ذلك لم يطل فخطبت وزوّجت.

فاستمع اليه يروي الحادثة في قصيدة أو ملحمة قصصيّة - على حد تعبيره - هي قصة قلب في شعر عذب، أترك لك الحكم لها أو عليها:

قالوا حبيبتُكَ التي عاهدتَها
نكثتْ عهودَكَ بعد طول ثباتِ

يا لهفَ روحي اذنت بافولها
أسفاً عليها وانطوتْ ماساتي

يا طيبَ دنْياك الأسى لو دام لي
وبقيتُ في البلوى وفي الحسرات

لَهْفي على تلك البشاشة والرضا
لهفي على انفاسها العطرات

كنّا بقلبينا معاً أنّى غدتْ
وغدوتُ رغمَ تَفرُّقٍ وشتات

خـفـيـتْ رسـائلهـا وكنّ كـواكـبـاً
يطلعنَ او يغـربنَ في مِـيـقـات
في كل إصـبـاحٍ كـتـابٌ ذاهبٌ
وبكلّ إمـسـاءٍ كـتـابٌ آت
نـتـبـادل الشكوى ونعـتب كلمـا
عـدنا إلى ذكـرى الزمـان العـاتي
ايامَ في حلبٍ وقـفتُ مـهـدّداً
صلبَ العـزيمةِ مـا تلين قناتي
المهـرُ حبٌ صـادق وتلاؤمٌ
لا اشـتـري بالمال قلبَ فـتـاة
المبدأ الأسـمى اعـتـصـمتُ بحبله
وسُدىً يحـاول أهلُهـا مـرضـاتي
فـاتَوْا بقـاضي الحبِّ يحكم بيننا
وشكَوْا وجـئتُ بحـجّـتي وشَكاتي
وطلبتُ سنّةَ احـمـدٍ حَكَمـاً لنا
وابَوْا بـغـيـر توارثِ العـادات
فـتـمـرّدوا وتمردتْ نفـسي فلم
تـابهْ لما يطغى من الـنّـزعـات
فـهـجـرتُها هجْـرَ البـغـيضِ وفاتني
أني سـابكي الحبَّ بعـد فـوات
حطّمتُ آمـالي وقلتُ سـخـيـفـةٌ
وبرئتُ من نَصَـبي ومن عِـلاّتي
ووجـدتُ في مـغنى النطاسةِ متعـةً
فـدابتُ في مـسـتـقـبلي وحـيـاتي
العـامَ إثر العـامِ اعـمل جـاهداً
حـتى دنتْ بقطوفـهـا ثمَـراتي

فـابحـتُـهـا حـسناءَ تمَّ له الصبـا
تزهو بحلو شـمـائلٍ وصـفـات
امْلتُ فـيـهـا عـصـمـةً عن حبِّ مَنْ
اصـبحتُ احـسـبـهـا صـمـيمَ عُـداتي
وحـسِـبْـتُني اسلو وانعم خـاليـاً
وجـهلتُ طيبَ اواصـري وصِـلاتي
اصـبـحتُ إن ذُكِـرَ الـهـوى عـاد الأسى
كـاشـدِّه وتحـدّرتْ عَـبَـراتي
فـي كل يومٍ لـوعـةً، يا لـيـتنـي
لما تـخـاصـمـنا ملكتُ اَنـاتي
فـرضـيتُ بالغبن الصـريحِ وليـتني
اهفـو واغـضي الطرفَ عن هفـواتي
لكنَّ نفـسي للـحـقـيـقـة تنبـري
سـعـيـاً ولو سـارتْ على الجَـمَـرات
☆☆☆☆
ولقـيـتُـهـا يومـاً فـصـادف طَرْفُـهـا
طرفي، وبادل لحْظُهـا لَـحَـظاتي
فكانما احـتـشـدتْ مـشـاهدُ حـبّنا
وبدتْ كلـمـح الـعـينِ فـي مـرآة
حـالٌ من الذكـرى وحبٌ صـامتٌ
تسـمـو مـعـانيـه عن الكلمـات
في النظرة الـعـجلى على رغم الجَـفـا
مـهَّـدتْ اعـوامـاً من الـعـقـبـات
امنتُ انَّ ندامـةً تجـتـاحـهـا
آثـارُها ارتسـمتْ على القَـسَـمـات
وانتـابهـا داءٌ فـرَوَّع اهلَـهـا
تلك الكابةُ مـوضعَ البـسـمـات

وتاوهتْ المأ فـقـالوا ليـتنا
نـاتـي بمن يُشـفـي مـن الآهـات
ذكـروا لـهـا اسـمـي فـازدهتْ فـتـردّدوا
هيـهـات لا نرضى به هيـهـات
لكنهم ثـابوا إلـيَّ فـعـدْتُهـا
عـجـلانَ والإبلالُ في خُطُواتي
بعـد السـهـادِ المرِّ مـالت للكرى
بـلـذيـذ أحـلامٍ وطِيب سِنـات
انـا بـرْؤُهـا ممـا تـكـابـد وهْـي لـي
برؤٌ مـن الأشـواق والحُـرُقـات
عـادت مـحـبّـتُنا كـسـالف عـهـدها
وثـابـةً وتـوثّـقـتْ عُـروات
وخـشـيتُ أن يردَ الظمـاءُ فـتـرتوي
غـلاتُهم واظلّ في غـلاّتي
حلفتْ لتـمنعَ كلَّ صـادرٍ وِرْدَها
وتُعلّني من ريقـهـا بفُـرات
انـا في رياض الخـلـد ارتـع لاهيـاً
غِـرٌ الأمـاني والـهـوى ملـهـاتي
إن عـاتبـتْني فـالعـتـابُ لبـانةٌ
في إثره فـوضى من القُـبُـلات
نتـبـادل الأنفـاسَ وهْي لـوافحٌ
ونعـالج الزفـراتِ بالزفـرات
واعـتـابني زَهْوٌ فـرحتُ مـعـربداً
اخـتـال بين حـواسـدي ووُشـاتي
هم يبْـرمـون إلى المكايد خلسـةً
وانا قـريرُ العينِ في غـفـلاتي

الفيتُ نفسي في قرارة هُوّةٍ

لا تُستطاع على الزمان نجاتي

☆☆☆☆

يا جنّةً انشأتُها لم اجْنِها

لهفي على أزهاركِ العَبِقاتِ

ابداً يحرّقني هواكِ ومهجتي

تهفو إلى افيائكِ الخَضِلات

يا بلبلاً غنّى وطار على الفلا

اخشى عليكَ غوائلَ الفَلَوات

خلّفتَ لي قفصي وطرتَ مُغرّداً

فانا السجينُ شجيّةٌ رنّاتي

هيهات لن تلقى سوايَ مُتيّماً

يُصغي برقّتِه إلى النغمات

الأهلُ إن عدلوا ملائكُ رحمةٍ

والأهلُ إن ظلموا لفيفُ جُناة

كأنني بالمستمع يود الآن لو اصرح باسم الطبيب الشاعر، ولكن لا، واستميحه عذراً، ولندع العاشق في بلواه هائم القلب على ضفاف العاصي، يقتبس من نواعير الدهيشة انينها وشكواها فيودعها اناشيده الخالدة، وينقل عن رياض «حماه» شذاها فتنقده شاعريته بياناً خلاباً وسحراً حلالاً ، والسلام عليكم.

إبراهيم طوقان

****

ديوان ابن الساعاتي
عُني بنشره
الأستاذ أنيس المقدسي

للجامعة الاميركية في بيروت افضال كثيرة في نشر الثقافة عموماً، والعربية منها خصوصاً، تتجلى في نواح مختلفة من أعمالها. فهي فضلاً عما يتخرج فيها كل سنة من الأطباء والصيادلة وحملة البكلوريا في مختلف العلوم والفنون، لا تنفك تجاري تطور الحركة العلمية والأدبية بما تخرجه هيأتها الثقافية من الكتب القديمة والمخطوطات القيّمة والمؤلفات، فتحيي التراث العربي ، وتغني المكتبة العربية بما تقدمه إليها بطريق البحث والتحقيق والطبع الأنيق. ويبدو أثر هذه الحركة المباركة جلياً في ثلاث دوائر في الجامعة تتجارى في هذا السبيل، اثنتان منهما تفرغتا للعلوم الطبية والعلوم الاجتماعية، تستمدان المساعدات المالية لأعمالهما من هبات سخية تردها من الخارج. وأما الثالثة فهي دائرة العلوم الشرقية تعتمد على قليل من المال - مع الأسف - تخصصه الجامعة لها من سنة إلى سنة. من أجل ذلك نرى أكثر ما تنشره هذه الدائرة إنما يقوم به الأساتذة في أوقات فراغهم، بينما ترى في دائرة العلوم الطبية ودائرة العلوم الاجتماعية أن قسماً من منهاج الأساتذة يُخصّص للبحث والنشر، نرى في دائرة العلوم الشرقية أن الأساتذة يقومون بالبحث والنشر مضافاً إلى منهاج التدريس الكامل.. وعلى بعد ما بين تينك الدائرتين وهذه الدائرة من مجال التفرغ للعمل والإنتاج، تجد هذه الدائرة الأخيرة بفضل نشاطها وهمتها ومحبتها لأن تخدم العلم لوجه العلم لم يقلّ خصبها وإنتاجها عن أختيها. فقد أخرجت حتى اليوم عدداً كبيراً من المؤلفات القيمة فضلاً عما أخرجته بواسطة وقفية ثيودر في الجامعة من كتب تُعتمد للدراسة في الصفوف العليا، نخصّ بالذكر منها كتابَيْ «أمراء الشعر العباسي» و«تطور الأساليب النثرية»، وكلاهما للأستاذ أنيس المقدسي أستاذ الأدب العربي في الجامعة.

هذا وقد خرج من الدوائر المذكورة ونُشِر مباحث شتى في الطب والكيمياء والاجتماع والتاريخ والأدب، فأنت ترى أن الغاية نبيلة ترمي إلى أن يكون لأساتذة الجامعة سهم في تعميم البحث العلمي، والتنقيب عن الحقائق وخدمة العمل خدمة تتعدى نطاق الصفوف وكتب التدريس.

وإننا على اغتباطنا بما نراه من نشاط الباحثين اليوم في الجامعة وسواها وانتشار الروح الثقافية بين الطبقات المتعلمة في كافة الأقطار العربية، اقول إنه لابد من أن تمد حكومات هذه الأقطار يدها بالمساعدة فتكون اكثر حدباً على العلماء والباحثين، فإن الحكومات اقدر دائماً على التنشيط من الأفراد والجامعات، واجدر أن تعدهم بالمساعدات المادية والمعنوية.

هذه كلمة لم نجد بدأ من إيرادها قبل أن نراجع ديوان ابن الساعاتي، إحدى نتائج هذه الجهود الطيبة والحركة الثقافية المباركة.

كان الشاعر ابن الساعاتي في عصر شهد حالة لعلها أعنف ما تمخضت عنه العصور الإسلامية عن عاطفة الدين ووعي السياسة، في مزيج لم يكن من الهيِّن حلُّه إلى عناصره الرئيسية. فقد كان عصر النزاع بين الشرق والغرب، وعهد وقائع فاصلة بين أن يصبح هذا الشرق كله تحت سيطرة الغرب، وبين أن يحتفظ بشرقيته وعروبته وإسلاميته.

لقد كان عصر الدولتين: دولة نور الدين محمود الشهيد، ودولة خلفه صلاح الدين يوسف المشهور بالأيوبي. بدأ هذا الانتباه الممتزج بالدين والسياسة، وأخذ يعنف ويشتد حتى بلغ الأوج الأعلى وأسفر عن وجه النصر المبين.

وتبعاً لهذا الانتباه واشتداده ونتائجه السياسية كان الإنتاج الادبي يقوى وينشط ويكثر، وانفسح المجال لنبوغ الكتّاب والشعراء الممتازين بالجملة، فغير صاحبنا ابن الساعاتي لمع نجم ابن منير الطرابلسي وسبط ابن التعاويذي وعمارة اليمني، ومن الكتّاب: القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، والإخوة الثلاثة أبناء الاثير - صاحب التاريخ

الكامل، وصاحب جامع الأصول في أحاديث الرسول، وصاحب المثل السائر - وغيرهم. ودوّن أسامة بن منقذ في هذا العصر مذكراته في كتاب الاعتبار، وسجّل ابن شداد القاضي سيرة بطله ومولاه صلاح الدين. فأنت ترى كيف يمتاز هذا العصر برجاله الكبار وآثاره القيمة.

وتعليل هذا الامتياز يتضح عند استعراض بين سقوط بيت المقدس بأيدي الإفرنج سنة ٤٨٧ هجرية إلى أن استردها صلاح الدين سنة ٥٨٣، وهي فترة مئة سنة تقريباً.

كان سقوط بيت المقدس بأيدي الإفرنج بدء الانتباه، ثم تلته أحداث جددت الآمال وأحيت العزائم ودعت إلى وحدة الصفوف والجهود، وأهم هذه الأحداث فتح الرها معقل الإفرنج في الأناضول على يد عماد الدين زنكي، ثم فتح حلب وتشكيل دولة دمشق على يد ولده نور الدين محمود الشهيد، وتلا ذلك انتهاء الدولة الفاطمية ورد مصر إلى حظيرة الخلافة الإسلامية، وكان من ذلك كله أن توحدت القوى المبعثرة توحيداً امتد من أقصى العراق إلى أقصى مصر حتى لقد أوشك أن ينتظم بلاد المغرب، ومن سوريا شمالاً إلى اليمن جنوباً، وبنتيجة ذلك تحققت الغاية المنشودة من استرداد بيت المقدس، وكانت الكرّة للشرق على الغرب ودحر النفوذ الغربي، إلا في موضعين أو ثلاثة، متخذاً سبيله في البحر سرباً... في هذا الموجز مواطن لنشوة الاعتزاز بالظفر، وميدان فسيح لازدهار الأدب بشقيه - من شعر ونثر - وخروجه حياً نقياً قوياً....

وابن الساعاتي من ثمرات ذلك العهد الخصيب، وهو ربيب الفتوح والعواطف المضطرمة، ونهضة أدبية لها طابعها الممتاز وألوانها الخاصة. فإذا قدم الأستاذ المقدسي الشاعر وديوانه إلينا فهو إنما يقدم لنا صفحة ذلك العهد في ديوان شاعر يمثل أدب عصره وحياته ومجتمعه، وكفى بذلك للأستاذ المقدسي فخراً وفضلاً.

بين يدينا الجزء الأول، وهو ما طبع إلى الآن من جزأي ديوان ابن الساعاتي، وقد افتتحه الأستاذ المقدسي بقائمة المصادر التي اعتمدها في دراسة الشاعر، وكنا نود ان نرى بينها كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» لشهاب الدين أبي شامة (وهو مقدسي

أيضاً). وتظهر قيمة هذا الكتاب كمصدر حين يعرض الأستاذ في دراسته لذكر من مدحهم الشاعر ومناسبات المديح. ويلاحظ أن في الروضتين أبياتاً سقطت في الديوان، ولكننا نرجو أن تكون هذه الناحية مستوفاة في الجزء الثاني.

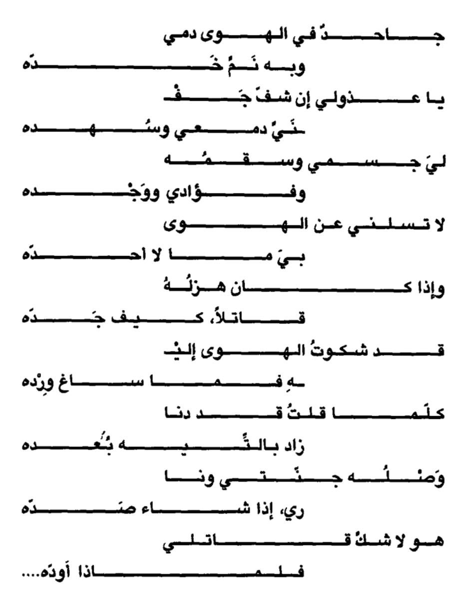
ويلي قائمة المصادر وصف شامل للمخطوطات الأربع التي اعتمدها الأستاذ في إخراج الديوان وتحقيقه، وفي هذا الوصف تتجلى روح العلم الصحيح والجلد على البحث والتنقيب والمقابلة، ولعل هذه الناحية أشق ما يعترض أمناء العلم في طريقهم إلى تأدية أماناتهم العلمية. ثم خص الأستاذ المقدسي الشاعر وديوانه بدراسة استوفاها في نحو ثلاثين صفحة كبيرة جاء فيها على نشأته وشخصيته ومزايا شعره، وهي دراسة تكاد تكون أدبية محضة تتناول حياة الشاعر بكثير من الحيطة والحذر لقلة ما بين يدي الأستاذ الباحث من المصادر التي تعنى بخصوصيات الشاعر، ولاعتماده على استخراج صورة للشاعر من ديوانه، وهذه الطريقة لابد فيها من التأني بالحذر - على حد قول الأستاذ المقدسي - لئلا نرسم للشاعر صورة خلقية لا تنطبق عليهِ تمام الانطباق. فإذا عرض لشعره، أخذ الأستاذ في عرضه على دواوين الشعراء الذين سبقوه فيراه شبيهاً بهم في أغراضه الشعرية «من مدح وفخر، وهجاء ورثاء، ووصف ومجون» كما أنه «على جودة طبعه لم يأت بروائع تُوقد الشعور العالي وتملأ النفس بجلال الحياة». وإنما «قصر همه على الافتتان بالمحسنات اللفظية والمعنوية». ويستشهد على جميع ذلك بقطع يقتطفها من هنا ومن هناك...... أقول، من الإنصاف للشاعر ألا يُحكم عليه هذا الحكم القاسي ما لم نقدم بين يدي هذا الحكم دراسة - إن لم تكن مفصلة، فمجملة - للنزاع الذي كان قائماً بين الشرق والغرب، وأي أثر ترك هذا النزاع في الناحية الأدبية، ثم نعرض قصائد الشاعر على ضوء هذه الدراسة فنحكم لها أو عليها بمقدار تمثيلها لذلك العهد قوة وضعفاً. وقد سبق للأستاذ أن اتبّع هذه الطريقة في استعراض أمراء الشعر العباسي فقدّم بين يدي دراستهم الخاصة مباحث جليلة الفوائد، صوّر فيها عصورهم وما يتعلق بها من الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية، عدا الناحية الأدبية.

وإتماماً للفائدة نورد لابن الساعاتي قطعتين تصورّان شاعريته مادحاً ومتغزلاً، فمن شعره يمدح الخليفة الناصر العباسي قوله:

لقد خَلَفَ المبعوثُ خيرَ خليفةٍ
قؤولٌ لما يُرضي الإله فَعولُ
تَذلُّ له الأيامُ وهي عزيزةٌ
وتصغر حيث الخطبُ وهْو جليل
إذا سار سدَّ الأفقَ والأفقُ واسعٌ
رماحٌ وبِيضٌ، عصبةٌ وخيول
صقورٌ جيادٍ والمواضي مخالبٌ
لها ، واسودٌ والذوابلُ غِيل
ومن كان نورُ الوحيِ فوق جبينهِ
ثَنَى كلُّ طَرْفٍ عنه وَهْو كليل
له شرفُ البيتِ العتيقِ وزمزمٍ
وما ساقه حادٍ إليه عَجول
لقد كان يومُ الفتحِ للدهر غُرّةً
ومنه شِياتٌ جمّةٌ وحُجول
كفيلٌ بردّ الحقّ من مستعيرهِ
له اللهُ في كلّ الأمورِ كفيل
وقد يتداعى الظلمُ بعد انتشارهِ
ويعظم أمرُ الحقّ وَهْو ضئيل

ومن شعره في الغزل قوله:

حالَ في الحبّ عهدُهُ
وسُلُوّي ووعدُهُ
إنْ قسا قلبُه عَلَيْ
يَ فقد لان قدّه


جاحدٌ في الهوى دمي
وبه نَمّ خَدّه
يا عذولي إن شفّ جَفـ
ـنَيّ دمعي وسُهده
ليَ جسمي وسقمُه
وفؤادي ووَجْده
لا تسلني عن الهوى
بيَ ما لا احدّه
وإذا كان هزلُهُ
قاتلاً، كيف جَدّه
قد شكوتُ الهوى إليـ
ـهِ فما ساغ وِرْده
كلما قلتُ قد دنا
زاد بالتّيه بُعده
وَصلُه جنّتي ونا
ري، إذا شاء صَدّه
هو لا شكّ قاتلي
فلماذا أودّه....

هذا، وقد طُبع ديوان ابن الساعاتي في بيروت طبعاً جميلاً نقياً، وشُكّلت أبياته تشكيلاً قليلاً لضرورة الضبط، وجاء في هوامش الصفحات تحقيقات لرواية كثير من الأبيات بالمقابلة بين نسخ الديوان الأربع. أخذ الله بيد العلماء العاملين، وجزى الله الأستاذ المقدسي عن الأدب والعلم خيراً.

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

في ١ آذار، سنة ١٩٣٩

****

وادي الفالق
ومكافحة الملاريا في فلسطين
مقابلة مع المهندس ميشال سماحة، لإبراهيم طوقان

منذ مدة طويلة، وأنا ألح على ميشال أفندي سماحة – مهندس دائرة الصحة العامة – ليُطلع مستمعينا على بعض المعلومات عن مشروع مكافحة الملاريا في فلسطين، وعن الأعمال الجليلة التي قامت بها دائرة الصحة في تجفيف المستنقعات والقضاء على هذه الحمى الخبيثة واستئصال أسبابها. لكن المشغول لا يُشغل، كما يقولون، فقد كان المهندس ميشال أفندي لا تستقر له حال.... وأوقات فراغه أضيق من أن يجلس فيها إلى مكتبه فيكتب حديثاً للإذاعة ، غير أنني لم أزل ألاحقه ويطاولني، حتى دعاني منذ أيام إلى منزله في صباح باكر، هناك ظفرت منه بمقابلة تزوّدت خلالها بكل مفيد طريف عن هذا المشروع الجليل.

الملاريا في هذه البلاد عريقة في القدم، والمستنقعات الواسعة المدى وما يرتع فيها من ملايين البعوض كان لها شأن اي شأن منذ قرون عديدة في تدهور الحالة الصحية. ولا يستغرب السامع إذا أنا زعمت أن هذه الحشرة الخبيثة لعبت دوراً هاماً في تاريخ فلسطين ، فقد أثبت المؤرخ ستانلي لين – بول، في كتابه الممتع عن صلاح الدين أن أعراض المرض الذي توفي صلاح الدين بسببه تدل على انه كان الملاريا، وكان ذلك بحسب تقرير أيده طبيبان من أطباء العصر الحديث اهتما بتشخيص المرض على طبق ما وصفته الكتب التاريخية العربية مفصلاً عن مرض السلطان ووفاته، والطبيبان هما السر وليم كاونز (Gowens) والدكتور ماكينون (Mackinnon) طبيب مستشفى فكتوريا في دمشق. ومن المشهور أن ريكاردوس قلب الأسد قد مرض في فلسطين ورحى القتال دائرة بينه وبين صلاح الدين، فكان يطلب إلى صلاح الدين أن يبعث اليه بالثلج والفاكهة.. يطفئ بهما سورة الحمى. فهل نكون بعيدين عن الحقيقة إذا نحن قلنا إن الملاريا قد لعبت دورها في الحروب الصليبية؟ وانها كانت ذات شأن لا يستهان به في نتائجها من هزائم

وانتصارات وصلح وهدنة. ونظرة في تاريخ هذه الحروب ترينا أن كثيراً من معاركها كانت تدور رحاها في هذه المناطق الموبوءة بالملاريا، كالحولة وعكا والنبي روبين ووادي الفالق...

حدثني ميشال أفندي سماحة قال: كان أول ما بدئ بتجفيف المستنقعات في أول عهد الاحتلال، وكانت الأعمال تجري في دائرة ضيقة، ثم قدمت إلى فلسطين بعثة تابعة لمؤسسة المثري الأميركي المشهور روكفلر، وهي مؤسسة خاصة بمكافحة الملاريا، وكانت البعثة مشكلة من مهندس وطبيب قاما بأبحاثهما وعرضا على حكومة فلسطين بعد ذلك مشروعاً هو أن تبعث الحكومة أحد الوطنيين للتخصص على حساب المؤسسة، فإذا أتم دراسته عاد ليشتغل في مكافحة الملاريا على حساب الحكومة كأحد موظفيها. تم ذلك سنة ١٩٢٨ - ٢٩، وكان أول أعمال المشروع تجفيف مستنقع النبي روبين على حساب المجلس الإسلامي الأعلى.

ومنطقة النبي روبين أوقاف إسلامية، وأهميتها أنها مزار صيفي تُضرب فيه المخيمات كل عام، ويؤمه مالا يقل عن اربعين الفاً، فكان هؤلاء إذا انقضى الموسم عادوا يحملون في دمهم جرثومة الملاريا الفتاكة، ويوزعونها على القرى والمدن التي يغشونها. جُفِّف هذا المستنقع - ومساحته الف وثمانمئة دونم - فانقطع دابر الملاريا، وانقلبت أراضيه الواسعة إلى أراض زراعية ممتازة.

أما تجفيف وادي الفالق فمشروع جليل حقاً. فكِّر، أيها المستمع الكريم، في منطقة مساحتها ثمانية آلاف دونم موبوءة بالملاريا، وهي فوق ذلك، تبسط وباءها على مساحات واسعة حولها تبلغ أربعين ألفاً من الدونمات تتركها غير صالحة للسكنى ولا للاستغلال. هذا هو وادي الفالق، أو بركة رمضان، أو بصة أم العلق كما يسميها البدو، ومنطقتها (في اتساع مستنقعاتها) ثانية المناطق في فلسطين، وأولاها منطقة الحولة.

لوادي الفالق تاريخ لا يخلو من فائدة ومتعة، سآتي على نبذة منه بعد تعيين موقعه.

يقع وادي الفالق على زاوية بين يافا شمالاً على بعد سبعة عشر كيلو متراً، وبين طولكرم غرباً على مسافة عشرين كيلو متراً، قال لي المهندس ميشال أفندي: إن البحث الفني قد أثبت محاولة الرومان تجفيفه في غابر العصور ، فالملحوظ أن الجبل قد

فلق – ومنه أخذ اسم الفالق – ليكون قناة اصطناعية من جانب البحر، وعلى عمق ثلاثة امتار فقط وجدت آثار قناة رومانية طولها خمسة وسبعون متراً في عرض متر ونصف، قد بنيت بالحجر المقصوب، والظاهر أن هذه القناة ضيقة بحيث لم تتمكن من حمل السيول الشتوية، فلم يمض عليها موسم الأمطار حتى طمرها وعاد المستنقع إلى ما كان عليه.

وكتب راهب رافق ريكاردوس فقال: قبل معركة أرسوف التاريخية بليلتين كان الملك مخيماً عند نهر اسمه (روش تييّي Roche Taillie) ومعناه الصخر المنقور، وشرحه المؤرخ ستانلي لين – بول بالاسم العربي وادي الفالق.. أما الكتب التاريخية العربية فلم تسمّه الفالق ولكن (نهر القصب)، وسمته (البركة) بدون إضافة (رمضان) إليها.

نتحدث عن المشروع الآن فنقول: إن تجفيف وادي الفالق بدأ في تشرين الثاني سنة ١٩٣٤ وانتهى في أوائل سنة ٣٦، وكان ذلك على أحدث طريقة فنية لم تتبع إلا في أميركا وحدها، وهي طريقة التجفيف بتفجير الديناميت في المستنقع، فاستخدم في سبيل ذلك خمسة وأربعون طناً من هذه المادة الانفلاقية. وفضلاً عن سرعة هذه الطريقة ونتائجها المضمونة فهي أقل نفقة من الطريقة الاعتيادية المتبعة في سائر البلاد، لقد كانت نفقات المشروع، اثنين وعشرين ألف وخمسمئة جنيه دفعت نصفها الحكومة ودفع النصف الآخر المجلس الإسلامي الأعلى وسكان المستعمرات المجاورة، وهذه النفقات كانت ترتفع إلى ٦٠ الفاً لو اتّبعت في المشروع الطريقة القديمة.

وكان العمل في الفالق على جانب كبير من الصعوبة في بعض أنحاء المنطقة، فقد بلغ عمق الماء في بعضها من ٤ – ٥ أمتار بحيث كانت القوارب تستخدم في تجفيفها. وكان هم القائمين بالمشروع وقاية العمال من إصابات الملاريا، إذ استخدم خلال تنفيذ المشروع مئة عامل يومياً كانت تصل أحياناً إلى ثلاثمائة، وثلاثمائة وخمسين يومياً حسبما يقتضيه نوع العمل، فأقيمت لهم البراكات، والواقيات من البعوض، وأجبروا على اتباع نظام خاص، منه ضرورة الإقامة في براكاتهم قبل الساعة الخامسة في الصيف، ومنه تناولهم جرعات الكينا يومياً، وبذلك كانت الإصابات بين العمال قليلة جداً بحيث أمكن إنهاء المشروع بسلام.

إذا علمت ماذا كان عليه وادي الفالق، وماذا صار إليه بعد تجفيفه قدرت قيمة المشروع وأكبرته.

كان وادي الفالق مأوى الخنازير الوحشية والثعالب وبنات آوى، فكان بغية هواة الصيد، وكان بعض مجاوريه يزرعون البطيخ ونحوه فتخرج هذه الوحوش وتعبث في مزروعاتهم إتلافا وتمزيقاً، وكان بعضهم يضمن ما ينبت على مياهه من القش والقصب لاستخدامه في صناعة الحصر...

أما اليوم وقد جف مستنقع وادي الفالق، فإنه لم يعد وحده صالحاً للزراعة، ولكن جميع ما حوله من الأراضي ، ومساحتها، كما قدمت، أربعون الف دونم.. فقصد المزارعون العرب من كل صوب حتى أصبح يعيش عليه اليوم الف عائلة. وثبت أن تربته من الخصب على جانب عظيم، وإن كانت لا تزال تزرع على الطرق القديمة العقيمة.. لموسم واحد، في حين أنها – على تقدير الخبراء الزراعيين – يمكنها أن تعطي ثلاثة مواسم زراعية، هذا فضلاً عن أن مزروعاتها لا تتعدى الخيار والبندورة والذرة الصفراء، وشيئاً قليلاً من البطاطا واللوبيا والقرع والشمندر والملفوف. حدثني ميشال أفندي عن خصب وادي الفالق فقال: اقتلعت ذات يوم رأساً من الشمندر فلما عدت الى دائرة الصحة العامة وزناه فإذا به أربعة كيلو غرامات وعُشْر كيلو غرام. وقال لي أيضاً : حملت في مقعد سيارتي الخلفي ذات يوم بعض الملفوف مما أنتجه وادي الفالق فلم أتمكن من حمل أكثر من ست ملفوفات في مقعد يتسع لثلاثة ركاب. ولا شك أن حالة وادي الفالق اليوم بعد أن ضُمنت من الناحية الصحية وفُتحت فيه خنادق يبلغ مجموع طولها ٢١ كيلو متراً، وتوسيع القناة الرومانية إلى خمسة أمتار، بعد هذا لم يعد سبيل إلى خطر الملاريا من ركود السيول فيه.

هذه هي الأرض الخصيبة الخيرة، فأين اليد المنظمة المنتجة.. والسلام عليكم.

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

١٩٤٠/٧/٢

****

المقالات التي نُشرت في جريدة الدفاع

بقلم إبراهيم عبدالفتاح طوقـــان

مرتبة حسب التسلسل التاريخي

يوم الجمعة

جريدة الدفاع

العدد الأول، ٢٠ نيسان، ١٩٣٤

الصحافة المثلى

بقلم الأستاذ الشاعر إبراهيم طوقان.

«تمجيد اللغة العربية أُمّ الحضارة الإسلامية الزاهرة»...

هذا طرف من الرسالة التي تحمل «الدفاع» عبء بلاغها إلى الناس، وقبل أن أخوض في التعليق على هذه الفقرة أُورد ههنا فقرتين إحداهما للدكتور طه حسين من مقدمة كتابه الجليل (على هامش السيرة) قال:

«إذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى، واتخاذها موضوعاً قيماً خصباً لا للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما، بل للإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص، فأنا سعيد موفق إلى بعض ما لدينا، وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب أن القديم لا ينبغي أن يهجر لأنه قديم.. فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد».

وأما الفقرة الثانية فهي من مقال جريء نشرته مجلة الرسالة للأديب المرتيني من حلب، وفي المقال حملة نزيهة صادقة على ديوان «الينبوع» للدكتور أبي شادي. جاء في هذا المقال:

«انا اومن إيماناً واثقًا ان كلمات الشعر يجب أن تكون كالكلام المنزل، لو رفعت كلمة من بيت فلن تجد في اللغة بأجمعها كلمة تحل مكانها وتؤدي المعنى الذي كانت تؤديه الأولى..».

لم يكن لي بد من إطالة التمهيد بالاستشهاد لأنني أود أن الفت النظر إلى أن أصحاب «الدفاع» والدكتور طه حسين، والناقد الحلبي، قد اتفقوا على شيء واحد ورموا هدفاً واحداً. وإنما اختلفت طرقهم في الرماية وضربوا الهدف كل من ناحيته: لقد أجمع الصحافي والأديب والناقد على أمر واحد وهو ضرورة الرجوع إلى القديم، والاهتمام بأسلوبه وإحياء تقاليده.

وقد يُخال أن وراء ذلك شيئاً من الرجعية، وقد يكون هنالك من يعجب لفتور تلك الحركة الأدبية الهدامة التي كانت بالأمس القريب تحمل على المقلدين وتتطلب التجديد في كل نواحي الأدب تفكيراً وأسلوباً، بلغ (الحماس) ببعضهم إلى نبذ النحو والصرف... فما عدا مما بدا؟!

وفي الحق أن ليس في الأمر رجعية، وما يحسب فتوراً إنما هو كبح لتجديد أُسيء فهمه، فكان السير فيه إلى أبعد مدى وعلى غير هدى، حتى أصبح أمر الأدب العربي فوضى، وارتكبت أخلاط من الآداب مختلفة العناصر، متسافحة الأساليب، متزندقة الآراء.

تقرأ لبعض الشعراء اليوم فتعجب لهم كيف يرضون لأنفسهم إذاعة هذا الشعر على الناس، وتعجب للصحافة كيف ترضاه لقارئها ، وأنكى من ذلك بعد، أن يكون الموضوع تافهاً فيُسمّى ذلك بساطة... وترى فيه تخنّثاً فيُنعت بالرِّقة.. وتجد ثقل الدم في سائر أبيات القصيدة فيسمى متانة وبلاغة؟!

فإذا أراد ذلك الشاعر أن يذكر وطنه أكثر من العويل كأنما ذلك عنده مقياس الشعر الوطني، وإذا أراد أن يتوجع لكارثة صب نقمته على الدهر وألقى التبعة على عاتق الزمان.. يا هذا، إذا كنت شاعراً فأين الصرخة الحافزة؟! أين النار؟!

من واجب الصحافة أن تُعنى كل العناية فيما تقدمه إلى قرائها وأن تتقي الله فيهم. إن الصحافة التي تعرف مثلها الأعلى تعلم أنها أمينة على جمهور قرائها، وأن في يديها شعوره وذوقه وروحه الوطني. الصحافة المثلى لا ينبغي لها أن تنزل عند رغائب الجمهور

وشهواته في كل حين، بل وجب عليها أن تسمو بهذا الجمهور وترتفع في أكثر الأحيان. لا ينبغي للصحافة أن تكون مثل ذلك الطبيب الذي يعود المريض فيجده – وقد ضعفت نفسه – يطلب من ألوان الطعام أضرها به فيأمر له به ابتغاء مرضاته ، وهو يعلم أن المريض هذا إلى الجرعة المرة والحمية الصارمة أحوج منه إلى أي شيء آخر.

أقول ذلك وأنا على يقين من أن «الدفاع» ستكون شديدة الرقابة على ما يقدم إليها للنشر ، مبلغة لرسالتها في «تمجيد اللغة العربية» على خير ما يكون بلاغ الرسول الأمين.

نابلس

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

****

الدفاع

٢٧ نيسان، ١٩٣٤م

من كنوز الأدب القديم

بقلم الأستاذ إبراهيم طوقان.

لم يختلف الرواة في تقديم امرئ القيس على سواه من شعراء الجاهلية، كما أنهم لم يمنحوه لقب ملك الشعر إلا عن فضل في شاعريته يميزه بين الشعراء، والفضل واضح كل الوضوح حين تعرض لشعر امرئ القيس بألفاظه ومعانيه، وإليك مثالين اثنين: أحدهما للدلالة على أن الرجل كان بعيد المعنى دقيقه، والآخر للدلالة على أن للكلمة في شعره وزناً إذا لم يكن العبقرية بعينها فإنه حجتها وبرهانها.

جاء في المعلقة (قفا نبك) قوله إنه هام بحب فتاة عزيزة الجانب لا يرام خباؤها، فتمتع بزيارتها على مهل متجاوزًا الحراس الذين لا يألون جهداً في السعي لقتله، وقد توصل إلى هذه الفتاة في حين تعرضت الثريا في السماء، وذلك حيث يقول:

إذا ما الثريّا في السماء تعرّضتْ

تَعرُّضَ أثناءِ الوشاحِ المفصّلِ

وما زلت أحسب أن هذا البيت من أبيات الوصف العادية حتى اضطررت مرة إلى البحث والتعمق في أغراض القصيدة، فرجعت مقرّاً لامرئ القيس بملكيته في الشعر، فقد اضطررت أن أرجع إلى القاموس لأبحث عن لفظة (تعرض) فوجدتها بمعنى (التوسط) وهو غير معنى (الطلوع والظهور) الذي يضعه الشراح لهذه اللفظة، ورجعت إلى خارطة فلكية أبحث عن (الثريا) فوجدت أن هذه المجموعة من النجوم تكون (متوسطة) في السماء في فصل الشتاء عند منتصف الليل، وفي وسع القارئ الآن أن يفسر البيت في أفق أوسع وعلى نور أسطع فيقول:

إن امرئ القيس قد وصف نفسه بالمغامرة وشدة الوجد، وهل أدل على هاتين الصفتين من قصده لحبيبته مقتحماً كل عقبة حتى يصل إليها في منتصف الليل، في

فصل الشتاء، وناهيك بليالي الشتاء في الصحراء..! إنها لمغامرة حقاً، وإنه لوجد شديد! وإنه لمعنى رائع أخاذ، وأما طول باعه في اختيار الألفاظ فإليك مثلاً منه، قال في المعلقة حين التقى بالحبيبة الآنفة الذكر:

هصرتُ بفَوْدَيْ راسها فتمايلت
عليَّ هضيمَ الكشحِ رَيّا المخلخلِ

وقال في قصيدة أخرى:

فلما تنازعنا الحديثَ واسمحتْ
هصرتُ بغصنٍ ذي شماريخَ مُيّلِ

والمقصود في البيتين لفظة (هصرت)، والهصر هو التطاول للأخذ بغصن الشجرة العالية لتناول ثمرها، فأصبحت الكلمة تفيد عدة أشياء:

١ – أن حبيبة امرئ القيس طويلة القامة.

٢ – أنها لينة الأعطاف كالغصن.

٣ – انها ممتنعة ليست قريبة المنال.

وهذه معان لا يمكن أن تفيدها إلا هذه اللفظة (هصرت)، فتأمل.

من هنا جاء قول الراجز: (الشعر صعبٌ وطويل سلّمه).

ومن هنا مصدر الدعوة إلى القديم، فإن فيه أسرارًا ومحاسن لا سبيل إلى بلوغها والنسج على منوالها إلا عن طريق العناية بالأدب القديم.

نابلس

إبراهيم طوقان

****

الدفاع ٢٥/٥/١٩٣٤م

صفرة الذهب

كتابان أصفران.

للأستاذ إبراهيم طوقان.

كنت أتطلع إلى الظفر بتلك الكتب التي تُعنى بتحليل الشعر والنثر، وفيَّ ظمأ إلى تفهم مواطن البلاغة في هذا البيت، ولماذا قالوا عن تلك الفقرة فصيحة، وربما وقع لي الكتاب فأصدر عنه بعد ساعات من البحث والتنقيب لم أشف غليلاً، وقد أُطبق ذلك الكتاب وبي من الحنق شيء غير قليل، لأنني وجدت المؤلف يكتفي بقوله: «وهذا من بليغ الكلام»، أو «وفي ذلك من الفصاحة مالا يخفى»... لا يا سيدي المؤلف، واللهِ لقد خفي علي، وكنت أود لو أخذت بيدي وقلت لي هذا هو موضع البلاغة، وهنا سر الفصاحة، وهذه هي الأسباب ومواطن الضعف والقوة، اما أن تملي علي شهادتك وتطلب إليّ أن أختم لك تحتها على بياض فأمر صعب ثقيل.

وقد يكون من باب التفكهة عن هذه الكتب تعليق المؤلف على ما يقدمه من النماذج بمثل العبارات الآتية:

«ومما كدت أرقص له طرباً....».

«ومما قلته في هذا الباب ولم يسبقني إليه أحد....»

«وهذا من الإبداع الذي لا يقدر عليه شاعر....»

وتنظر في منشأ الطرب ومظان السبق والإعجاز في مختاراته ، فتجد سجعة باردة أو تلميحاً غثاً أو جناسًا سخيفاً ، فلا تملك نفسك من الضحك ونبذ الكتاب ومؤلفه ناحية من مكتبتك.

وبعد فهنالك كتابان لا أعلم لهما نظيراً في طريقة تناولهما تحليل الكلام والدلالة على مواطن الجمال والسحر فيه، وفي كليهما شفاء الغليل والضالة المنشودة. على أنني أود أن انبه القارئ الذي يتبرم بالقديم لانه قديم.. إلى ان هذين الكتابين هما من (الكتب الصفراء)، وأن طبعتهما المتداولة حجرية متعبة، وأنهما على طريقة التأليف القديمة من حيث التبويب مما لا يُنشّط القارئ على المضي فيهما، إلا أن إدمان النظر والمطالعة يتغلب على هذه المشقة ولا يطول العهد حتى تصبح مطالعة الكتابين لذة وشغفاً.

أما الكتابان فأحدهما تفسير القرآن الكريم المعروف (بالكشاف) لجار الله محمود الزمخشري، وثانيهما كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لأبي الفتح ضياء الدين الموصلي المشهور بابن الأثير.. ولا أطيل في تبيان فضل الرجلين اطلاعاً وتفكيراً وذوقاً، وإنما اقدم للقارئ شواهد من كتابيهما وأترك له حكمه فيهما.

من الكشاف:

(الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين.)

يشرح الزمخشري هذه الآية الكريمة ويقدم ما قيل فيها من تأويل وإعراب ومختلف القراءات ثم يُجمل فيقول: «والذي هو أرسخ عرقاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً وأن يقال: إن قوله (الم) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و(ذلك الكتاب) جملة ثانية، و(لا ريب فيه) ثالثة، و(هدى للمتقين) رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وذلك لمجيئها متآخية اخذاً بعضها برقاب بعض، بيان ذلك:

نُبّه اولاً على انه (أي القرآن) هو الكلام المتحدى به و(التنبيه في الم).

ثم أُشير إليه (باسم الاشارة ذلك) بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريراً لجهة التحدي، وشداً من اعضاده.

ثم نُفي عنه ان يتشبث به طرف من الريب قوله (لا ريب فيه) فكان شهادة وتسجيلاً بكماله، لأنه لا كمال اكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة.

ثم أُخبر عنه بأنه هدى للمتقين فقرر بذلك كونه لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم لم تخل كل واحدة من الأربع، بعد أن رُتّبت هذا الترتيب الأنيق ونُظّمت هذا النظم السريّ، من نكتة ذات جزالة: في الأولى (الحذف والرمز) إلى الغرض بألطف وجه وأرشَقهُ، وفي الثانية ما في (التعريف) من الضخامة، ومن الثالثة تقديم (الريب) على الظرف (فيه)، فلم يقل في (لا فيه ريب)، ولو قال ذلك لكان معناه أن كتاباً آخر فيه ريب، مثل قوله عن خمر الجنة (لا فيها غول)، فمعنى ذلك وجود خمرة أخرى فيها غول للعقول وهي خمرة الدنيا، وفي الرابعة وضع المصدر (هدى) موضع الوصف (هاد) والمصدر أقوى، ثم إيراد هذا المصدر منكّراً....».

المثل السائر:

وإليك شواهد على ما جاء في كتاب (المثل السائر) من التحليل للكلام الجميل أو القبيح وبيان مواضع جماله أو قبحه، قال الشاعر:

ولما قضينا من مِنًى كلَّ حاجةٍ
ومسّح بالأركان من هو ماسحُ
أخذنا بأطراف الأحاديثِ بيننا
وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح

يشرح ابن الاثير البيتين وينبه بصورة خاصة إلى استعارة الأطراف للحديث، وإلى سيل البطاح بأعناق الركائب فيقول : «إن في لفظة (الأطراف) وحيًا خفيًا ورمزًا حلواً لما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلويح، والإيماء دون التصريح، وذلك أحلى وأطيب، وأغزل وأنسب، من أن يكون كشفاً ومصارحة وجهراً. وأما سيلان البطاح بأعناق المطايا.. فإن هؤلاء القوم لما تحدثوا وهم سائرون على المطايا شغلتهم لذة الحديث عن إمساك الأزمّة فاسترخت عن أيديهم وكذلك شأن من تغلبه نفسه في أمر من الأمور، وعندئذ أسرعت المطايا في المسير فشُبِّهت أعناقها بمرور السيل على وجه الأرض في سرعته... والعرب إنما تحسّن ألفاظها وتزخرفها عناية منها بالمعاني التي تحتها. فالألفاظ إذن خدم المعاني، والمخدوم لا شك أشرف من الخادم، فاعرف ذلك وقس عليه».

ليت دعاة التجديد يقرأون هذا فيروا أنهم لم يأتونا بشيء جديد، ولا فتحوا فتحاً مبيناً حين قالوا بضرورة تضحية اللفظ في سبيل المعنى، لا بل كان الأوائل الطف نظراً وأسمى تكريماً للمعاني. وهل يرضيك أن يبرز خادمك لضيوفك رثّ الثياب عبوساً تقتحمه العين وينقبض منه الصدر؟!

وانتقد ابن الأثير بيت المتنبي في معرض الكلام على مؤاخاة المعاني وهو:

لمن يطلب الدنيا إذا لم نُرِدْ بها
سرورَ مُحبٍّ او إساءةَ مجرمِ

فقال: «إن المقابلة الصحيحة بين المحب والمبغض لا بين المحب والمجرم، فليس كل من أجرم إليك كان مبغضاً لك..».

ومن تعليقاته الظريفة على الكلام القبيح قوله عن بيتين للشاعر المعروف بكشاجم:

والزهرُ والقَطْر في رباها
ما بين نظمٍ وبين نثرِ
حدائقٌ كفُّ كلّ ريحٍ
حَلَّتْ بها خَيْطَ كلّ قطرِ

قال: «هذا البيت (الثاني) يحتاج الناطق به إلى بركان يضعه في شدقه حتى يديره له...»، هذا وأرجو من القارئ أن يفرغ من هذه الكلمة مقتنعاً بنصحي وإخلاصي له في تقديم السمين النافع لمطالعاته دون الهزيل الضار، وعسى أن يكون رأيه قد تغير في (الكتب الصفراء) فأصبح يرى أن هذه الصفرة إنما هي صفرة الذهب، وأن في الزوايا خبايا.

نابلس

إبراهيم طوقان

****

«الدفاع» ١٣/٧/١٩٣٤م

تعليقات......!

بقلم شاعر كاتب يعرفه القراء

الطفولة والعظمة :

قال أبو تمام في طفل صغير:

إن الهلالَ إذا رأيتَ نموَّهُ
أيقنتَ أنْ سيكونُ بدراً كاملا

وقال الشاعر الإنكليزي ملتون:

«إن مخايل العظمة لتُعرف في طفولة العظيم كما يعرف وضح النهار في لمحات الفجر».

ولقد اتفق الشاعران، كما يرى القارئ، في الاعتراف بوجود آثار العظمة في الطفل، كما أنهما اقتربا جداً عند إيراد التشبيه لهذه الفكرة.

ومما يذكر ههنا أن غِلمة صغارًا أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يستعد للخروج إلى غزوة أحد، وعرضوا أنفسهم عليه يريدون الالتحاق بالغَزاة، فنظر إليهم فلم يجد سوى أن يردَّهم لصغرهم، وكان فيهم: عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعرابة بن أوس، فلما رأوا ذلك منه أخذوا يتطاولون بالوقوف على أمشاط ارجلهم كأنما يخدعونه عن حقيقة سنهم! وهو يرى ذلك منهم ويبتسم ويدعو لهم.

ودخل عبدالله وعرابة في دور الرجولة، فكان الأول من أكابر الولاة في الدولة الإسلامية ، وكان الثاني سيد قومه حتى قال فيه الشماخ الشاعر بيته المشهور:

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ
تلقَّاها عرابةُ باليمينِ

الخمر عليّ حرام:

أطالع في (الدفاع) أقوالاً نثرية وشعرية قيلت في الخمر، ونِعمٌ ما تذهب إليه الدفاع في تنفير الناشئة من هذه السموم الفتاكة التي يتجرعها المرء راضيًا مختاراً. والمشروب الذي درجت (موضته) في هذا العهد السعيد هو الوسكي، طبعاً، والناس على دين ملوكهم.. ما علينا. روى ابن أبي الزناد قال:

ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمر استحياء ممّا فيها من الدنس، ولقد عابها عبدالله بن جدعان في شعره وحرمها على نفسه في الجاهلية.

وكان سبب تركه الخمر أن أمية بن أبي الصلت الشاعر شرب معه ذات ليلة فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب، فقال له ابن جدعان: ما بال عينك؟! فسكت، فلما الح عليه قال له: أنت صاحبها، أصبتها البارحة! فقال: «أوَ بلغ مني الشراب ما ابلغ معه من جليسي هذا الفعل؟! لا جرم، لأدينَّها لك ديتين»، فأعطاه عشرة آلاف درهم، وقال : «الخمر علي حرام أن اذوقها أبداً»، وتركها من يومئذ.

الغناء القوي:

وهو ما يسمو بعواطف النفس ويبعث فيها كامن الأمل والألم معاً فيجعل منهما طموحاً وقوة. وليس في الأغاني المعروفة اليوم ما يصح أن تعده في الغناء القوي سوى قطعة أو قطعتين يقذف بهما ذلك التيار المتدفق من أسطوانات الغرام والضنى والدموع والنواح... في كثير من اللين والتخنث والارتخاء في المعاني والألحان على السواء.

وارجو الا يفهم من قولي انني انكر أغاني الغرام، كلا وإنما نريد غناء وغراماً يحفظ للناشئين رجولتهم فلا يعتورها التخنث والخور، وللناشئات عفافهن وخفرهن فلا يلقي بهن في الوقاحة والخلاعة.

وليت لأم كلثوم اكثر من «أراك عصي الدمع شيمتك الصبر» أو «يا آسيَ الحيِّ هل فتشت في كبدي» أو «إن يغبْ عن مصرَ سعدُ»، وليت لعبد الوهاب اكثر من «يا شراعاً وراء دجلة يجري» و«أنا انطونيو وأنطونيو أنا» بتلك المعاني والألحان العلوية السامية، إذن لكان لهما على تهذيب العواطف يد لا تعلوها يد.

جاء في اغاني (كتاب الأغاني) أنه اجتمع المغنون الثلاثة: معبد، وابن سريج، والغريض، بمكة في الثنية العليا، فقالوا: تعالوا حتى نبكي أهل مكة، فاندفع ابن سريج فغنى صوته في شعر كثير السهمي :

إن أهلَ الخضاب قد تركوني
موزَعاً مولَعاً بأهل الخضابِ

كم بذاك الحجونِ من حيّ صدقٍ
وكهولٍ أعفّةٍ وشباب

فارقوني وقد علمتُ يقيناً
ما لمن ذاق ميتةً من إياب

فأخذ أهل مكة بالبكاء، وأتوا حتى سُمع أنينهم، ثم غنّى معبد:

اقرأ على أهل البقيع من امرئٍ
كَمِدٍ على أهل البقيعِ سلاما

كم غيّبوا فيه كريماً ماجداً
شهماً ومقتبلَ الشبابِ غلاما

فنادوا من الدروب بالويل والحرب والسلب، وبقي الغريض لا يقدر أن يغني من البكاء والصراخ، ولا يخفى على القارئ أن المغنين قد اختاروا لغنائهم في هذا الموقف ما يبعث في نفوس أهل مكة ذكريات الشهداء وأكابر قريش.

وهكذا فلتكن الأغاني في أقطارنا المغلوبة على أمرها.

(.........)

****

الدفاع ١٩٣٤/٧/٢٣م
العدد ٧٦، صفحة ٦

تعليقات

بقلم: شاعر الوطن.

سبحان مغير الأحوال:

ليت الزمان يجود للقرن العشرين بأسبوع واحد من أسابيع القرن الثامن أو التاسع، فيتاح لمدينة بغداد العباسية أن تبرز بثوبها القشيب، وتبدو مختالة في ترفها وحضارتها وفتنتها فتضرب باريز اليوم على عينها!!!

في ذلك الزمان، هبط مدينة بغداد وفد من الإفرنج فأمر الخليفة (المتوكل) العباسي باستقبالهم وإكرامهم، وكان هؤلاء الإفرنج أجداد «لويد جورج» و«كليمنصو» و«موسوليني» يفدون بمهمات سياسية تنطوي على تجديد الولاء ودفع الجزية للدولة العربية العتيدة، والتملّق للخلفاء بالتحف والهدايا، وسبحان مغيّر الأحوال..!

والواقع أن الإفرنج في تلك الأيام كانوا من البداوة وخشونة الطباع على جانب عظيم، فلما وطئ هذا الوفد بلاط الخليفة ورأى رجاله من روائع الفنون وبدائع الصناعة ما رأوا أخذهم الدهش وبان عليهم الذهول، ثم وُضع السماط وقدمت أواني الطعام، فظهر من تصرفهم هناك ومن جهلهم بالمألوف من (أتيكيت) المائدة ما أصبح بين رجال البلاط موضع التندر والمفاكهة، ورأى «البحتري» (شاعر البلاط يومئذ) أن يسرّ مليكه بوصف ما شاهده من حيرة الوفد الإفرنجي ودهشته فقال:

ورأيتُ وفدَ الرومِ بعد عنادهم
عرفوا فضائلك التي لا تُجهلُ
لحظوك أول لحظةٍ فاستصغروا
مَن كان يعظم عندهم ويُبجّل
حضروا السِّماطَ فكلما راموا القِرى
مالت بأيديهم عقولٌ ذُهّل

تهوي اكفُهمُ إلى افواههم
فتحيد عن قصد السبيل وتعدل
متحيِّرون فباهتٌ متعجّبٌ
مما راى او ناظرٌ مُتامّل
ويودّ قومُهمُ الأُلى بعثوا بهم
لو ضمَّهم بالامس ذاك المحفل
قد نافس الغيبُ الحضورَ على الذي
شهدوا وقد حسد الرسولَ المرسل

بهذه الدعابة البريئة يمازجها الإشفاق يقول البحتري أبياته، فاحملها لتقارن بينها وبين ما يقوله الشاعر الإنجليزي كبلنج (الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقي التوأمان) بهذه الروح الخبيثة وما تنطوي عليه من غطرسة وأنانية وكبرياء.

أصحاب رسول الله:

لما استولى عبدالله بن يحيى الأباضي على المدينة إثر انتصار الأباضية في معركة «قديد»، بلغه أن أهل المدينة ينتقصون أصحابه بأنهم شباب أغرار، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(ما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أحداثاً شباباً والله، مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة، فقد نظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الله بكى خوفاً كأن زفير جهنم بين أذنيه، قد أكلت الأرض جباههم ووجوههم، ووصلوا كلال الليل بكلال النهار، مصفرّة الوانهم، ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام، موفون بعهد الله، منتجزون لوعد الله، قد شروا أنفسهم، حتى إذا التقت الكتيبتان وأبرقت سيوفها، وفُوّقت سهامها، وأُشرعت رماحها، لقوا شبا الأسنة وشائك السهام وظباة السيوف بنحولهم ووجوههم وصدورهم، فمضى الشاب منهم حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، واختضبت محاسن وجهه بالدماء، وعفّر جبينه بالثرى، وانحطّت عليه الطير من

السماء وتمزّقته سباع الأرض، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فُلق بعمد الحديد، آه آه على فراق الإخوان، رحمة الله على تلك الابدان، وادخل أرواحهم الجنان).

أضع هذا الخطاب بين يدي القارئ الشاب، ليتدبر معانيه ويتمتع بصوره الشعرية الرائعة، وليرى كيف يمسك الخطيب المؤمن بطرفي البلاغة، فيعقد رقيقها الهادئ الوادع إلى جزلها الثائر المتدافع، وكيف يؤلف بين نفحة النسيمة ولفحة الجحيم، فيروض القلوب الجامحة، ويزكي النفوس الغالية في مواطن التضحية أهون ما تكون على أصحابها.

إبراهيم طوقان

نابلس

****

الدفاع - شباط، ١٩٣٥م

ابن خلدون آخر زمان....

ابن خلدون - العالم المؤرخ الشهير - شقي في حياته ومماته على السواء، ولمن أراد الاطلاع على صفحة شقائه أن يرجع إلى تاريخ حياته في الكتب فيرى فيها الكفاية، أما شقاء ابن خلدون في مماته، فقد جاءه من شخص انتحل اسمه ليذيل به ما يكتبه في جريدتَيْ: «الوحدة العربية»، و«الشباب» من النثر البليغ.... والنظم المعصوم...

ولا نعلم سبباً لاختيار اسم ابن خلدون دون سواه من رجال العرب غير هذا الجَدّ العاثر الذي لقيه المؤرخ حياً، ولا يزال يلاقيه ميتاً. فلم يكن ابن خلدون نَظّاماً سخيفاً ولا كاتباً سفسطائياً حتى نجد عذراً لابن خلدون (آخر زمان) عن انتحال اسم ابن خلدون المظلوم، ولعل الجهل بتاريخ حياة الرجل هو الذي أدى إلى هذا الخلط والجاهل دائماً عدو نفسه.

ونتقدم إلى بلاغة نثر ابن خلدون (النكرة) فنبدأ له بقطعة نسلخها من افتتاحية له في العدد السادس من جريدة «الوحدة العربية»، قال ابن خلدون شفاه الله من غروره:

«قالوا: نريد أمة تمسح الماضي مسحاً، وشباباً يهز عروش الزعامات هزاً، وجماعة تدك صروح الأصنام دكاً ...» (نقط وسطر جديد).

«وقالوا: زعامة رخيصة تكاد تودي بالبلاد، وهيئات فانية أوشكت أن تهوي بمقدرات الأمة هوياً ...» (نقط وسطر جديد).

ويظل ابن خلدون يصفّف كلمات ويرص جملاً ويضع نقاطاً ويخرج اسطراً جديدة إلى أن يقول:

«والشباب المغامر يختطّ امامه هدفاً ويركض إليه ركضاً ...»، ثم يفتح الله على الأستاذ ابن خلدون بعبارة «ونحن والله» فيلوكها بين أضراسه مرات إلى أن يفتح عليه بعبارة «يا معشر الشباب» فيفعل بها كما فعل بأختها ثم يخرج.

طلعت علينا «الوحدة العربية» بثوبها الجديد وفي عمودها الأول قصيدة لقبتها (بالدرة الثمينة) للأستاذ ابن خلدون عنوانها بيت شعر هو:

وحطّم بعــــزمكَ هذي القــــيــــود
وإن انتَ لم تفللهـــــا فـــــمنْ؟

ومع أنني أكره العنوان الذي يأتي بيتاً كاملاً أو شطراً من قصيدة، فقد لمحت كسراً في وزن البيت وقع على مفصل الكلمة المسكينة المأسوف على شبابها (تفللها)، فحملني العطف والأسف على قراءة بقية القصيدة، فإذا البيت الثاني قد وقع على عجزه فتحطم وظل في مكانه لا حراك رغم الإسعافات التي اتخذها الشاعر أولاً وثانياً في جبر هذا الكسر، فقد حاول أن يصححه في العدد الرابع تحت عنوان: (خطأ في قصيدة) وأسنده بعكاز فلم يفلح، وطلع العدد الخامس بعنوان تصحيح التصحيح، فظل البيت كسيحاً يلفظ انفاسه الأخيرة، ولا نراه محتاجاً إلى (تصحيح تصحيح التصحيح) ويكفي جريدة الوحدة العربية مؤونة التعب، فنقول بأن الحق ليس على المطبعة ولا على الصفيّف ولكن الشاعر ابن خلدون غرق في هذا البحر وأحاطت به أمواجه.

ومشينا في القصيدة وهي تتعثر بين ضعف الأسلوب وركاكة التعبير ونبوّ القوافي حتى وقفنا عند قوله:

حنانيكَ خَلّ عـــويلَ الجــبــانِ
وخُــضْـــهــا كــريماً حــتى القنْ

وإذا بالشاعر قد خاض إلى قنة رأسه ونتجاوز للشاعر عن هذه القنن التي هوى منها البيت وقائله معاً إلى مكان سحيق فتحطم وتبعثرت أوصاله، وننبه القارئ إلى هذا المعنى المبتدع (الخوض حتى القنن!) يا سلام!

وبعد أن يتوكأ على كلمة حنانيك أربع مرات في أول كل بيت مرة يعفو عنها عند قوله:

حنانيكَ ليس بهـــذا تصـــانُ
مــعــالمُ مــجــدٍ او تُحــتـضنْ

وبين لفظتي: «معالم، وتحتضن» يخرّ مجد هذا البيت صعقاً طامس المعالم دارس الرسوم، لا يجد من يحتضنه.

(حنانيك) يا ابن خلدون، فالبحر ليس من الصعوبة بحيث تشكل موسيقاه على الأذن الشاعرة الحساسة، وليس شرطاً أن يكون القارئ شاعراً حتى يدرك أن القصيدة مطحبشة في عدة مواضع لا في موضع أو موضعين كما حاولت تصحيحها وتصحيح تصحيحها.

قال الشاعر ابن خلدون غفر الله له إزعاج الخليل بن أحمد: (برضه من الدرة الثمينة يا سيدي القارئ) :

عـــجـــبت لمن قـــال هيـــا إلى المو
تِ كـــيـف يُولّي إذا مـــا امـــتـــحنْ

لقد (مات) البيت محطماً عند بلوغه لفظة الموت فرحمة الله عليه.

ولما بلغ الشاعر في الدرة الثمينة إلى قوله :

ايدعـــو إلى المكرمـــاتِ القـــعـــودُ
لقـــــد هـزلتْ حـــــالـتُـنـا إذنْ

حصل عندنا يقين أن حالة الشعر قد هزلت ايضاً، وأن حالتنا معاشر القراء قد أصبحت تحت رحمة هذا الشعر وغثاثته، ويؤسفنا ان تكون المقدمات الضخمة والألقاب الثمينة في جريدة الوحدة من نصيب هذا السخف الظاهر، والهراء المبين.

****

٢١ شباط، ١٩٣٥

نابلس

أخي إبراهيم ! (*)

سلام عليك، وبعد، فلم يكن ابن خلدون الذي انتقدته بكلمتي (الشعر الكسيح) غير رفيق اللبابيدي. ولقد أحسنت الظن جدًا حين قدرت أن يكون هو محمد خورشيد كما أخبرتك، فالمسألة إذن مسألة (حسد) لا منافسة. وإذا كانت الكلمة التي انتقدت فيها قصيدته لم تُنضّد حروفها، فليس عندي أفضل من إهمالها لأنه لا يستحقها، فليس اللبابيدي هذا بشيء حتى يقام له وزن، ويُتناول هراؤه بالنقد والتجريح.... ويجعل له شأن قليل أو كثير.

لديّ ما هو أهمّ من ذلك أحدثك به.

طلعت الجرائد اليوم (برجاء إلى الصحف) بتوقيع عبدالرحيم التميمي وعبدالفتاح طوقان، ولهذا الرجاء حديث طريف ووراءه فكرة خطيرة مما لا يذاع في الصحف، ولكنني أودّ أن أطلعك عليه عسى أن يكون لديك رأي أو طريقة لنشره.

الوالد يرى أن المجلسيين والمعارضين على السواء في غفلة عمّا يصيب المسلمين في فلسطين بسبب منازعاتهم الحزبية. لهؤلاء جريدة يديرها مسيحيّ معروف بكرهه للمسلمين وانتهاز كل فرصة للتشهير بوجوههم ورؤسائهم، ولأولئك جريدتان يديرهما مسيحيّ أيضاً لا يمكن أن يقلّ للمسلمين كراهة عن زميله، والوالد يضرب لك مثلاً عن حالة هذين مع المسلمين، بأوروبا مع الشرق: أوروبا متطاحنة بعضها مع بعض ولكنها متفقة على الكيد للشرق، وهذان مختلفان وبينهما ما صنع الحداد ولكن المسلمين بينهما بين حجري الرحى وفكيّ الذئب: مأكولون، مهانون، مشهّر بهم، لا بل يُدفع لهما المال عن رضى وطيب خاطر في سبيل الإهانة والتشهير، وتراهما كلما أراد مريد أن تخمد هذه النار قاموا فقذفوا إليها بالحطب فعادت إلى الاضطرام.

(*) المقصود : إبراهيم الشنطي صاحب جريدة الدفاع.

هذا، في الحقيقة، ما دفع الوالد إلى الاجتماع بوجوه نابلس وكتابة ذلك (الرجاء إلى الصحف)، فليست المسألة متعلقة ببلد وقع الخصام بين فريقين من أهله فأراد إصلاح بينهما فحسب، وإنما كان مما جرى في ذلك الاجتماع بحث الفكرة التي حدثتك بها والتنبيه إلى حقيقتها وخطورتها.

واليوم، حين يقوم من يرغب في إيقاظ المسلمين في فلسطين عن هذه الطريق يجد من يصرخ في وجهه: متعصب، ما هذه النعرة؟! أتريد أن تفرّق بين العناصر الدينية! وإلى آخر ما هنالك من النغمات التي يطرب لها بسطاء القلوب، وهيهات أن تقنعهم أنّ هذا التعصب وهذه النعرة هما خير ما ينفع المسلمين ويقضي على خصومتهم الضارّة.

لا أعلم كيف نتوصل إلى تعميم هذه الفكرة بين رجال الفريقين المختصمين لأنها ليست - كما قلت - مما يسهل إذاعته في الصحف وإلقاء مسؤولية عواقبه على شخص أو شخصين، مع ملاحظة أن الفكرة قريبة التناول سريعة الرواج بعيدة مدى المفعول شديدة التأثير.

وها هي بين يديك فقلّبها وانظر في وجوهها، فلعلّك بالغ فيها مأرباً فيه خير خدمة لهذه القضية المتهالكة، والسلام عليك.

إبراهيم طوقان

****

الدفاع ١٩٣٥/٥/٦

غـذاءان عند أديب العربيـة

ما أشبه الليلة بالبارحة.

كانت المحاولة الأثيمة لاغتيال الملك ابن السعود - حفظه الله - وأعجوبة نجاته منها حديث الناس، وكنا في ضيافة طراز الأدب الأستاذ النشاشيبي، فقصّ علينا - بالمناسبة - حادثة شبيهة بها وقعت لبطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي:

كان صلاح الدين في إحدى حروبه ضد الصليبيين في شمالي سوريا. وفي ذات يوم، بينما كانت المعركة حامية الوطيس، والملك البطل جمرتها، وقطب رحاها، انقض عليه فارس، طلع عليه من المقاتلين معه، يريد قتله، فحاد صلاح الدين عن ضربته، ولم يكد يتقيها حتى انقضّ عليه أربعة آخرون وفي أيديهم السيوف، ولو لم يكن بعض الجنود أسرع من المنايا إلى تفدية أميرهم لمزقه المغتالون بسيوفهم...!

أُلقي القبض على المتآمرين وجرى التحقيق، وإذا بهم جماعة من الإسماعيليين قد دخلوا جيش صلاح الدين متنكرين بملابس جنوده، وانتهزوا فرصة اشتداد المعركة واشتغال الجند بالأعداء فأحاطوا بصلاح الدين فلم ينكر عليهم أحد فعلهم، فلما قاموا بتنفيذ خطتهم الهائلة رد الله كيدهم في نحورهم وحفظ للإسلام بطله الخالد صلاح الدين.

وحادثة أخرى:

قال أديب العربية حفظه الله: وثمة حادثة أخرى.. أفاق صلاح الدين من فراشه ذات صباح وإذا عند رأسه خنجر قد غار في الأرض إلى نصابه، وقد نفذ نصله من صحيفة كتب عليها عبارة إنذار وتهديد. من يكون الفاعل؟ كيف تجاوز المعسكر إلى خيمة الملك؟ كيف صار إلى فراشه وحوله من الحراس أيقظهم عينًا وأشدهم جنانًا؟!

لقد كان لهؤلاء الإسماعيلية من الوسائل والأساليب ما لا يقل دهاء ومغامرة عما لرجال دائرة الاستخبارات عند القوم..! وكان راشد الدين رأس الإسماعيلية عظيم النفوذ، واسع السطوة، شديد البأس يحالف الصليبيين على المسلمين خيفة صلاح الدين وحرصاً على سيادته أن تزول..! ومع ذلك فقد كان لصلاح الدين من بطولته الفذة وإخلاصه لدينه ولبلاده ما كفل له نصراً خالداً ومجداً مؤبداً، وبه حفظ الله الإسلام في أشد عهوده حرجاً وانقساماً. وما مسلمو هذه البلاد اليوم إلا بقية من نعمة أنعم الله بها على صلاح الدين جزاء جهاده في سبيله ودفاعاً عن دينه.

ثالثة الأثافي:

ومن أعجب ما رواه لنا حفظه الله، أن صلاح الدين كان في مجلسه وقد غص بالوزراء والقواد والحاشية، فاستأذن الحاجب لرسول راشد الدين يفاوض صلاح الدين في بعض الشؤون، فأذن له.

قال الرسول: لو شاء مولانا فصرف القوم لأن مهمتيُ خاصة، فانصرف بعض من في المجلس وبقي صلاح الدين في وزرائه: قال الرسول: رسالتي تتعلق بالملك خاصة لا ابلغها سواه! قال صلاح الدين: ولكن هؤلاء رجالي وأهل مشورتي وبهم اقطع أمري.

وألح الرسول بطلب الخلوة فكان له ذلك، وخرج الوزراء ولم يبق غير الحارسين القائمين عند رأس صلاح الدين. قال الرسول: ولا هذان! قال صلاح الدين: لا! هذان هما حرسي الخاص لا يفارقانني في ليل ولا في نهار، هذا ومهما كان السر فهما مؤتمنان عليه، قال: أواثق أنت منهما!؟ قال: لا ريب عندي في ذلك، وما كنت لأرتاب في أحدهما لحظة واحدة في يوم من الأيام!!

التفت الرسول إلى الحارسين وخاطبهما قائلاً:

«لو أمركما مولاي راشد الدين أن تقتلا صلاح الدين فماذا تفعلان؟! فاستل كل منهما خنجره وصوبه بين كتفي مولاه صلاح الدين!!

لقد كان كلاهما مستعداً لتنفيذ أمر راشد الدين!!

بُهت صلاح الدين لهذه المفاجأة المدهشة يفاجئه بها أخلص رجاله وأوسعهم اطلاعاً على أسراره، ولم يكن منه إلا أن يصرف الحاجبين ليسمع ما يمليه راشد الدين على لسان هذا الرسول.

وإذا علم القارئ ما كان لصلاح الدين من الهيبة في القلوب ومن المحبة في نفوس رجاله وأعوانه استطاع من هذه الحادثة أن يقدر ما كان عليه هؤلاء الإسماعيلية من الكيد والدهاء، وأن يعلم أن صلاح الدين كان يحارب الشياطين إلى جانب الصليبيين!! ولكنها «يدُ اللهِ مُدّتْ وهو فيها المهنّد»!!

كان الأستاذ الكبير يحدثنا بقلبه وجوارحه فيذهلنا عن بطون تنتظر مائدته الأنيقة وألوانها الشهية، وعند الأستاذ النشاشيبي فقط، تبطل الحكمة القائلة: «عند البطون ضاعت العقول»، ولكننا لم نلبث أن وجدنا عنده عقولنا وبطوننا فظفرنا بالغذاءين معاً.

أبو جعفر

****

المقالات التي نُشرت في جريدة فلسطين

بقلـم إبراهيـم طوقـان

مرتبة حسب التسلسل التاريخي

«فلسطين في ١١ حزيران، سنة ١٩٣٣»

خواطر مريض

كلمة سياسية....

لا أدري والله متى تنقطع هذه العلائق الودية غير المرغوب فيها بيني وبين الأطباء والمستشفيات. ولئن كانت هنالك «معاهدة صلح» بيني وبين معدتي، فإنها لم تعقد إلا بعد إشهار السلاح وإراقة الدماء، رغم المساعي الطبية التي بذلها الدكتور كميلين الجراح الألماني العظيم وطبيب المستشفى الألماني في القدس، وقد كان بودّ الدكتور الجراح أن يسوّي الخلاف بيننا على أساس (نزع السلاح)... ولكن تأبى المعدة إلا أن تكون مع الدول الكبرى على قدم المساواة، حتى اضطرها ذلك العنت أخيراً إلى الإذعان وقبول ما فرضه عليها السلاح من (تحويل في أوضاعها الجغرافية الأصلية؟).

وقد شاءت الظروف، وكلها قاسية في هذه الأيام، أن أدخل المستشفى المذكور مرة ثانية لمدة خمسة أيام، والسبب وعكة (في الأمعاء هذه المرة؟) نشأت عن مفاجآت لهذا الطقس المذبذب... وقد كان لهذه المفاجآت الجوية، من برد وحر وهواء جاف ورطب، أثر على كثير غيري، وإنما الأمزجة - كما يعلم القارئ - بعضها (خشن) يقوى على الاحتمال وبعضها (رقيق) جداً - ولا مؤاخذة - لا تنجع فيه إلا عناية المستشفى...

في المستشفى...

حان اليوم الذي أغادر فيه المستشفى متمتعاً بكامل الصحة والعافية والحمد لله، فأفقت في الساعة الرابعة صباحاً من نومة ابتدأت الساعة السادسة ونصفاً من مساء الأمس...؟ وماذا عسى أن يصنع المريض غير الإخلاد إلى الراحة والنوم؟ ولعل في الفراش المعد للنوم دائماً وفي بقائه تحت النظر مجلبة للنعاس المستمر.

للجرائد فضل على المريض لا يجحد، فهي خير تسلية له في تلك الساعات الطويلة المملة. تناولت عدد الأحد من جريدة فلسطين (وهو أحبها إلي لأن فيه صحيفة أدبية..) فقرأته كله حتى إعلانات دائرة الإجراء، وحفظت من عباراتها التركية: «شمالاً ترلا، شرقًا

بودخي...» وتفرجت على الصور حتى إعلان البودرة توكالون، وصورة الكلب المصغي إلى جرامافون، (وكلام بسرك) اطلعت على التحرير (الشخصي) المرسل إلى إميل بخصوص الراديو.

من هنا يعلم القارئ مبلغ السأمة المستولية علي، وأنا وحدي في الغرفة أجيل بصري فأرى إبريق الماء الزجاجي فوق الطاولة الصغيرة وإلى جانبه صحن صغير فيه حبوب سوداء، أمد يدي كل نصف ساعة فأتناول منها حبة (واصرفها) بجرعة من الماء.

وهناك مرآة فوق المغسلة امشي إليها متثاقلاً آونة واخرى، واقف امامها متشاغلاً بالنظر إلى أسناني ولساني، وفي الغرفة صورة كبيرة في إطار وقفت أمامها مراراً ولا أعلم انني فكرت دقيقة واحدة بما اشتملت عليه تلك الصورة، ولو كان فيها ما يجلب الانتباه.. لحدثت القارئ عنه.

اكبر ما شعرت به من الضجر يوم قال لي الطبيب: «غداً تغادر المستشفى ..»، وفي المستشفى غد لناظره (غير) قريب.....!

****

لذة النهوض الباكر

أتيح لي أيام إقامتي في المستشفى أن أستيقظ باكراً قبل شروق الشمس. كنت أستيقظ كل صباح على تحية الممرضة بلغة ألمانية عذبة، وسؤال رقيق فيه عطف وحنان عن حالة نومي في تلك الليلة، وأية لغة مهما خشنت.. فإنها ناعمة ساحرة حين تنظم كلماتها شفاه وردية ساحرة، وأرد التحية بمثلها، وأجيب على السؤال شاكراً بلغة ألمانية كذلك، ولكن أين أنناك يا (غوته) تنقل عني سحر البيان الألماني...!

النهوض الباكر متعة من متع الحياة لا يعرفها أهل الحواضر كالقدس ويافا، وأسف أن هذه المتعة لا تُيسّر لنا ما دمنا لا نعرف النوم الباكر، بل أكثر ما تكون الحركة في الحاضرة عند المساء وتستمر حتى ساعة متأخرة من الليل، نتردد بين سينما وقهوة وبار، ونعود إلى نوم (كثيف) نستيقظ منه متثاقلين إلى العمل، نستيقظ والجسم لم يأخذ حظه من الراحة رغم النهوض المتأخر من الفراش، هي نتيجة السهر في الهواء الفاسد أو في الهواء الطلق المثقل بالندى.

في القرآن الكريم قَسَمٌ يشتمل على استعارة عجيبة وهي: (والصبح إذا تنفس)، استعارة (التنفس) للصبح لا يقدّر جمالها، فإنك لا تكاد ترى مخلوقاً من حيوان ونبات إلا وقد دبت فيه الحياة وسرى فيه الانتعاش، وأن الجماد ليكاد يغمره المرح والانشراح حين يبتسم له وجه الصباح.

من خلال الشباك:

شباك الغرفة يطل على حديقة فسيحة الأرجاء تبيت على مناكب أشجارها الباسقة عصائب من الطير مختلفة الأشكال والألوان، ولا يكاد النور يلامس أهدابها حتى تهب وتختلط أصواتها بعضها ببعض، فمن هدير يجاوبه صفير إلى صرصرة حادة يعقبها

نعيق جاف عميق، وترى هذه الطيور تنتفض من ندى الليل حيناً، وتنشنش ريشها بمناقيرها تارة فيتطاير في مهب النسيم الهادئ.

وأجمل ما شاهدته في هذه البكرة طير السنونو الخفيف يصعد بجناحيه المُضْطرِبَين محلقاً في الفضاء حتى يشرف على الشمس وهي لم تظهر من وراء الأفق بعد، فتعرف انه شارفها حين تضربه بشعاعها تحت جناحيه فيتألق ريشهما بذلك الشعاع وينعكس للناظر ذهبياً ساحراً، ثم يتخطف هذا الطير نفسه تارات لا تعد بين تحليق وإسفاف متقلباً على جسمه الضئيل بين ذلك، او باسطاً جناحين كأنهما خنجران انحناءً وتحديداً.

جناية عصر الغازولين:

الحاضرة ضجيج مستمر، وغبار لا ينجلي مشرَّب الذرات برائحة بنزين السيارات وزيوتها ، وإنها لرائحة كريهة حقاً ، ولكن العادة أنشأت بين هذه الرائحة وبين أنوفنا ألفة، وكونت في صدورنا مناعة قاهرة ضد الغبار، وكدنا لا نعيش إلا في الضوضاء؟ فقدنا نعمة الصفاء والهدوء في عصر الغازولين، وافقدتنا (سرعته) الجنونية نعمة التأمل فيما يحيط بنا من فتنة الكون وسحر جماله، ونعمة التفكير بما تقع عليه العيون من صنع الله وجلاله.

كنت في العام الماضي أساعد المستشرق الكبير الدكتور نيكل في الشغل في كتاب «الزهرة»، وهو كتاب مخطوط يرجع عهده إلى زمن الخليفة المتوكل يشتمل على عدة آلاف من أبيات الشعر الغزلي مبوبة بحسب أبواب الحب وحالاته ودرجاته، وبينما نحن نُعدّ الكتاب للطبع بالقراءة والمقابلة مرّ بنا بيت لأحد الشعراء فيه لفظة (الحبوة)، وكانت غريبة على الدكتور، فشرحت له أنها كانت تطلق على رباط يشده الجالس حول ركبتيه المنتصبتين ليتمكن من جلسته وذلك حين ينتوي إطالة الحديث على سامعيه، واشتقوا منها فعل (احتبى) لمن يجلس هذه الجلسة عاقداً الحبوة، وتوقف الدكتور فترة كأنما يصور لنفسه هيئة الحبوة والمحتبي وما وراء ذلك من معنى الهدوء والتأمل، وكأنما أخذ يقارن بين تلك الأيام البعيدة وما فيها من صفاء وسكون، وبين أيامنا هذه وما فيها من كدر وضوضاء لا حد لهما، توقف الدكتور فترة ثم هزّ رأسه الأشمط وقال بلغة عربية فصحى:

«ما احوجنا في هذه الايام إلى تلك الحبوة».

مـرت بي هـذه الخـواطر وأنا أمـــام الشـبـاك أطل منه سـاهم البـال على الحـديقـة الفسيحة، وقد ملك علي صفاء الجو وهدوء الصباح جميع حواسي.

ولم تمض ساعة حتى استيقظت القدس تعكر بسياراتها ذلك الصفاء، وتخترق حرمة ذلك الهدوء، وليست السـيـارة بالجناية الفريدة على الصـفـاء والهدوء، فكم للمدينة عليهما وعلينا من جنايات!

نابلس

إبراهيم طوقان

****

أركيلة...!

كر كر كررررر.. بف!

تفضل اقعد نعبئ لك أركيلة.. الأركيلة في بلادنا مرض عضال من أمراضنا الاجتماعية. ولعلك ترى معي يا سيدي القارئ أن (القعود) من ضروريات الأركيلة، وأنه يستحيل عليك أن تدخنها إلا قاعدًا..! وهل القعود غير الخمول والجمود؟ وهل يمكن للأركيلة إلا أن تكون رمزاً للقعود في هذا الشرق، وسرًا من أسرار الجمود فيه؟!

ليس للوقت الثمين قيمة عند الأركيلة، كما أنها أنانية لا حد لأنانيتها، فهي ترغمك على أن تصرف شيئاً من وقتك على كل قطعة من أجزائها، (الراس) يجب أن يكون كل ثقب فيه نافذًا نظيفاً، (القلب) يجب أن يكون لماعاً، مجلواً مشدود الوسط بخرقة رطبة على مقدار حلق الجوزة، (الجوزة) هذه يجب أن يشف جسمها المنتفخ عن الماء الصافي، ولا بأس من حبة بندورة أو حبتين (تتشقلبان) فيها كلما قرقر الماء.. عندئذ يصح لمغرم الأركيلة أن يطرب ويقول: بف، عاقداً لواء الظفر، ولكنه لواء (مع الأسف) من دخان!

(والبربيش) أسخف قطعة في الأركيلة، لا بل هو كريكاتور هذه العدة المكيفة في اسمه وشكله ولونه، مضحك في الثلاثة جميعها. فإذا قُدّر لي أن أبتلي بتدخين الأركيلة يوماً ما فأنا تاركها، لا محالة، إكراماً لخاطر هذا الجسم الطويل الأحمر الأفعواني الخطر الذي يُسمّى البربيش.

وثقل الدم والغلبة صفتان ملازمتان للأركيلة، وأكثر ما تتجليان في صالونات الاستقبال المفروشة بفاخر السجاد العجمي، وأنا على يقين من أنك يا سيدي القارئ قد نلت نصيبك – ولو مرة واحدة – من ثقل دمها وغلبتها.

تُنصب الأركيلة فوق البساط الغالي، ويتأنق الخادم بتقديمها لعاشقها، فيناوله البربيش مطوياً ، وهذا العمل – طي البربيش – من الآداب التي لإغفالها معنى قبيح عند أرباب الكيف الأركيلي....!

يأخذ المدخن (بالسحب) على الأركيلة، وترتفع هذه النقرات المتقطعة المطرية:

كر.. كر.. كر..

(١) يا فلان – للخادم – البربيش لا يسحب، هات غيره!.

(٢) التنباك مبلول كثير.. اقطع عصيره!

(٣) النار (شحرت) هات ولعة!

وبعد مدة استغرقتها الأركيلة في إشباع أنانيتها، وشغلت العيون والأيدي والأرجل والأفواه (في الكلام عنها والنفخ على نارها) وأهل البيت داخل الصالون وخارجه (وربما تعدتهم إلى الجيران).. بعد هذا كله قرقرت الأركيلة الثرثارة ضاحكة، وتشقلبت في بطنها البندورة، وانتشر دخانها صاعداً في الفضاء معتزاً..

الأبصار مصوبة نحو الراس الآن، لقد جف التنباك وتكمّش، فاضطربت فوقه الجمرات وأخذت تفقد توازنها، الآذان تسمع حديث الجلسة ولكن الأذهان منصرفة إلى ذلك الرأس (الناشف) تتوقع سقوط النار عنه، واشتركت الأعصاب في التيقظ للفاجعة المقبلة، وانسحب القوم في ذهولهم عن مقاعدهم إلى الأمام، فهم جلوس على حافاتها جلسة المتحفز للوثب.

كر كر كر ررر طن، طب!

سقطت النار وقفز القوم بحركة عصبية عنيفة يلتقطون النار بأطراف أصابعهم، فإذا كوتهم لعقوها بألسنتهم، ورجعوا منكبين على وجوههم ينفضون السجادة الثمينة من الحرق.

وكان اشدهم عصبية، اسبقهم إلى عملية الإنقاذ وأبعدهم قفزة، فعلقت رجله بالبرييش فرقصت الأركيلة على جانبيها رقصتين، ودارت على قاعدتها الضيقة دورتين، ثم خرّت صريعة مبعثرة الأوصال، فاندلق ماؤها، وانتثر تنباكها، وعوض الله عليكم يا أهل البيت بالسجادة العجمية النادرة....!

يا ناس، يا عالم، إن هذه الأركيلة سمجة ثقيلة. إنها تشهد علينا بأننا لا نعرف للوقت قيمة. الأركيلة رمز القعود، وسرّ من أسرار الخمول والجمود.... فهل من سميع؟!.

اما انتِ يا سيدتي المرأة، فإذا كنت مولعة بالأركيلة فإليك الحقيقة التي يراك فيها الرجل حين تعلق أناملك الجميلة برييش الأركيلة.

ما أسرع ما ينهزم سحرك وفتونك أمامها، وما أفجع ما يتلاشى جمالك وانوثتك معها، ولهفي على نفحاتك الرضوانيات يا سيدتي تتغلب عليها رائحة التنباك الخبيثة!

وأسفي على ابتسامك الفتان كيف تحجبه سحابة من الدخان..!

نابلس

إبراهيم طوقان

****

جريدة فلسطين

١٩٣٤/٧/١

للأستاذين إبراهيم طوقان وأبي سلمى

هذه صفحة أدب سيستقل بتحريرها في كل أسبوع الأستاذ إبراهيم طوقان والأستاذ أبو سلمى، وسيعرضان فيها على القراء ألواناً شائقة من عالي أدبهما المعروف.

المحرر

المغنية الحسناء

ذات الخال

ألا يفتنك هذا الخال الذي يطل من صفحة الخد؟ ألا يطير لبك إذا رأيت «خالاً» نائماً في جانب الثغر تحت «الغمازة»؟ ألا يضج قلبك بالخفوق إذا اعترضك خال فوق المبسم أو تحت الشفة؟

إذاً فالتفتْ إلى قصة مغنية حسناء اشتهرت بذات الخال في تاريخ الأدب والفن.

اسمها «خنث»، وكانت أحسن النساء وجهاً ، وكان لها خال فوق شفتها العليا لم ير الناس أحسن منه في موضعه ، فعرفت بذات الخال.

كانت مغنية محسنة في عصر الرشيد، بين أيادي المغنيات في ذلك العصر تترامى قلوب الشعراء والمغنين، وإذا فازت مغنية بقلب شاعر – ودائماً تفوز – ترقرق اسمها في شعره ، وشاع في الأجواء كما تشيع رائحة الأزهار في الأرجاء، فيلمع نجمها ويشتهيها الأمراء والخلفاء، «وذات الخال» غنت فأطربت، وبدت فسحرت، جمعت بين الغناء والجمال فأصبحت الحاكمة بأمرها في ميادين الصبابة.

وجاء المغني الشاعر إبراهيم الموصلي يلتمس الهوى ، فما هي إلا نظرة وابتسامة حتى شغفته حباً ، استنجد الشعر ليخفف ما به فواتاه، واستعان بالغناء يهدهد جواه فأطاعه، فمرة يمسك بالعود ويغني:

اتحسب ذاتَ الخالِ راجيةً ربًا
وقد سلبَتْ قلباً يهيم بها حُبًا
وما عذرُها، نفسي فِداها، ولم تدعْ
على اعظمي لحماً ولم تُبقِ لي لُبًا

فإذا تجاهلت أمره – شأن ربات الدلال – وأنكرت غرامه حنا على جرحه وأنشد:

اما تعلم ذاتُ الخا
لِ فوق الشفةِ العليا
باني لستُ اهوى غيـ
ـرَها شيئاً من الدنيا

ويشتده الحب حتى يملك شعاب نفسه، فإذا لامه أحد الناس صاح:

لا تلمني إن ذاتَ الخا
لِ دنيايَ وديني
إن بي من حب ذات الخا
لِ شيئاً كالجنونِ

ثم يعرض ويصد وفي قلبه لهيب حتى تتبعه وتحنّ إليه فتضحك غفر الله لها، مشفقة مستهزئة، وترن ضحكتها في أذنه فيئنّ:

وقالوا لها هذا محبُّكِ مُعرِضاً
فقالت لهم إعراضُه ايسرُ الخَطْبِ
فما هيَ إلا نظرةٌ بتبسُّمٍ
فتصطكَّ رجلاه ويسقط للجنب

تَنقّلت أشعاره في كل مكان، وردد أغانيه كل لسان، حتى نفذت إلى الخدور والقصور، وبلغت على استحياء إلى قصر الخليفة، وتهادت أمام جلال الخلافة فترنّح الرشيد ومال به الهوى، وإذا بذات الخال ترفل في قصر الرشيد، وطفق الشعراء ينشدون بلسان الخليفة ويظهرون العاطفة الملكية في أشعارهم، ويرتفع قول العباس:

الا ليت ذاتَ الخـــالِ تلقى من الهـــوى

عُـشَـيْـرَ الذي القى فـيلتـئم الشّـعبُ

وِصــــالُكمُ هَـجْــــرٌ ، وحـــبّكُمُ قِلىً

وعطفُكُمُ صــــدٌّ، وسلمُكُمُ حـــــرب

وكان محمد بن موسى يعجبه التقسيم في الشعر فقال: ما أحسن ما قسّم العباس حتى جعل بإزاء كل شيء ضده ، والله إن هذا لأحسن من تقسيمات إقليدس. وإقليدس هذا نابغة عند قدري طوقان وإخوانه من علماء الرياضيات الذين يتمتمون بكلام لا نفهمه، وإنني أخشى أن (ينفلق) أخونا قدري عندما يقرأ من يحط من شأن إقليدس ويغضب لأستاذه، ولكن غضبه لا يهمني لأنني شجاع – أستغفر الله – بل لأنني سأحتمي بأخي النابغة جلال زريق. قالوا إن ذات الخال دعت الرشيد يوماً فوعدها أن يصير إليها ، وخرج يريدها فاعترضته جارية فسألته ان يدخل إليها فدخل وأقام عندها، فشقّ ذلك على ذات الخال وغضبت، وويلي من غضب ذات الخال.

وقالت لأطلبّن له شيئاً أغيظه به، ودعت بمقراض فقصّت الخال – وا أسفاه – وبلغ ذلك الرشيد فشق عليه وبلغ منه، ونادى من في الباب من الشعراء، ولم يكن غير العباس بن الأحنف فقال:

تَخلّصتُ ممن لم يكن ذا حـــفـــيظةٍ

وملتُ إلى من لا يُغـــيّــره حــــالُ

فـــإن كـــان قطعُ الخـــالِ لما تعطّفتْ

إلى غـيـرها نفسي فـقـد ظُلِم الخـــال

وعاد فصالحها.. ولكن الخال مظلوم أيها المحروم. سألها الرشيد يوماً عن صلتها بإبراهيم الموصلي وأقسم إلا صدقته، فأعلمته أن الغرام انتهى إلى الوصال، فعافتها نفسه وزوّجها من وصيفه حمويه، وكان يزورها في بيتها لتغنيه وغنته ذات ليلة فأطربته، فسألها

أن تطلب منه ما تريد فطلبت أن يولّي زوجها سبع سنين، فولاه وشرط على ولي عهده أن يتمها له إن لم تتم في حياته، وهكذا طُويت الصفحة الزاهية من حياة ذات الخال تاركة وراءها إبراهيم الموصلي في بلده يقول:

يا ليت شعري كيف ذاتُ الخالِ
أم اين تحسب حالَها من حالي

واللهِ ما استحسنتُ شيئاً مُونِقاً
التذّه إلا خطرتِ ببالي

****

مجانين الأدباء الناشئون
في مصر

... وماذا نطلق على هذه الفئة الناشئة في الأدب التي تريد أن يكون المستقبل لها وهي لا تملك من حاضرها غير الادعاء والضعف والوقاحة؟!..

نزل رجال هذه الفئة إلى الميدان واقبل عليهم المحدثون الذين لم يبصروا النور، وتمادوا في الضلال حتى تحرك لهم أعلام الأدب ونشدوا إصلاحهم، فنفح طه حسين الطبيب إبراهيم ناجي بمناسبة ديوانه (وراء الغمام) نفحة على خده الأيسر لم يحتملها، ثم ثنّى العقاد وصفعه على خده الأيمن صفعة أطارت صوابه، وتصدّى المازني لعلي محمود طه وهو كبير شعرائهم الذي أخرج ديوانه «الملاح التائه» فظل تائهاً.

ثار ثائرهم وجُنّ جنونهم، فهددوا واجتمعوا ليطفئوا أنوار طه والمازني والعقاد، مساكين... عميت بصائرهم فوقف كاتبهم إبراهيم المصري يقول : إن طه حسين في كتابته «بهلوان» يسعى في طلب الرزق، ولا أثر للفكر في كل مما يكتب.

ونهد إبراهيم ناجي يقول: إن العقاد لا قيمة له، وأخذ علي محمود طه يطعن في شعر المازني الذي يتبرأ منه ، وهو شعر لو أذن له المازني بالظهور لكان كعصا موسى ولقف ماصنعوا.

أرادوا أن يثيروا الغبار، فاتخذوا من الذين يدبون في الأدب إخواناً، ومن اللواتي ينشرن قصائد طلاب المدارس فيهنّ على انها لهن دون أن ينتبهن إلى لغة المذكر والمؤنث أعواناً، وهم لو عقلوا لالتفتوا إلى مواطن الخطأ وأصلحوها شاكرين لمن دلّهم عليها، ولكن للغرور حمّى قاتلة تدفع بأصحابه إلى حفر قبورهم بأيديهم.

يظنون – هداهم الله – أن الأمر هين، وأن مقاومة طه والمازني والعقاد أسهل من النظر إلى حسناء، ولا يحتاجون إلى مقالات طعن ونم حتى يهزموهم من الميدان ويحملوا الراية، أيجهلون ان واحداً من هؤلاء الثلاثة إذا أهوى بيده عليهم جعلهم يسيرون بلا رؤوس؟ الا يعرفون انهم بكتاباتهم هذه يُطيّرون من أيديهم من يُحسن بهم الظن تشجيعاً ويجعلونهم في وادٍ غير ذي زرع حيث لا حاضر ولا مستقبل وحيث لا قوة ولا أمل.. مجانين.

ومن العلم ما قتل

سبب نكبة طبريا:

ليطمئن العلماء فانا سوف لا أنكر سبباً طبيعياً او سماوياً الآن، الأمر ابسط من ذلك، كنت راكباً في سيارة فمرّ بنا سرب من النساء سافرات يداعب النسيم الواحد مناديلهن الشفافة، وإذا بالحوقلة ترتفع من ورائي، وما عتمتْ أن تحولتْ إلى شتائم، التفّت فإذا بخطيب القوم يكاد الزبد يخرج من شدقيه، وتكاد عيناه ان تفرَّ من راسه، قلت له:

ما المسألة???

فأجابني بصوت قاصف:

أتعرف السبب في نكبة طبريا.

قلت: لا.

قال: هذا هو السبب – أشار بيده إلى سرب الظباء ثم تابع كلامه – السفور سبب النكبة.

حقيقة يا ناس ومن العلم ما قتل.

المازني وأبو ظريفة:

سئل مرة أستاذنا المازني: ماذا تحب أن تكون؟

فأجاب: بائع طعمية!..

بائع طعمية!.. يا خبر أسود كما يقول إخواننا المصريون. ولماذا يا أستاذ؟

- المعلم أبو ظريفة بائع طعمية عندنا في مصر جمع من وراء الطعمية ثروة عظيمة فأصبح صاحب القصور والأطيان، وأنا اشتغلت في الأدب ستاً وعشرين سنة وقد يمر بي يوم لا أملك فيه ثمن طعمية أشتريها من العم أبي ظريفة!.

يقول هذا أستاذنا المازني الذي هو مفخرة من مفاخر البيان وصاحب الاسم الداوي في العالم العربي، ثم يأتي الأطباء والمهندسون والتجار فيزاحمون الأدباء ويتخاصمون على (اللحاف)، لماذا أيها القوم؟ لو طلبتم من الأدباء أن يبادلوكم لقبلوا فرحين مغتبطين، والله العظيم.

****

١٩٣٤/٧/١٥ - فلسطين

صفحة أدب

للأستاذ إبراهيم طوقان وأبي سلمى

إلى المحرر:

عفا الله عن الصديق المحرر فقد أراد أن يجعل قراء فلسطين ينتظرون كل أسبوع «الواناً شائقة من الأدب العالي..!» بجعلنا امام الأمر الواقع، وفرض علينا تحرير صفحة الأدب فرضاً.

يا أستاذ! إذا شئت أن تكون رحيماً بنا، رفيقاً بقراء فلسطين فاجعلها كل أسبوعين مرة (وليس كل أسبوع)، لأن الأدب «العالي» غاية لا تدرك ولم يكن يوماً بضاعة (تحت الطلب) سواء في ذلك النثر والشعر، وإنما هو صور تنعكس عن حالات النفس المختلفة فتعلنه أحياناً غالباً عبقرياً، وأحياناً سخيفاً مبتذلاً.

نقول ذلك التماساً للعذر عند القارئ الكريم يوم نُخفق في نيل رضاه، ولا نقع في كل ما نكتب على هواه.

الأديب والجمهور القارئ:

قال جي دو موباسان: «إن الجمهور القارئ مكون من جماعات شتى الأهواء والعواطف، وكلهم يهيب بنا معشر الكتاب قائلاً: رفِّه عني، أطربني، احطني بالأحلام والخيالات أضحكني، ابكني، هيِّجْ عواطفي، احملني على التفكر والتدبر.. ولكن قلّ بين هؤلاء من ينصف الأديب فيقول له: قَدّم إلي ما شئت مما تراه جميلاً، وهات ما يروق لعينك انت، وما تجود به طبيعتك ومزاجك» يا مسيو «موباسان»، لقد نسيت أن من غضب الله على الأدب، أن يجعله ساحة لا باب لها ولا سياج فيستبيح حماها من شاء... وغاب عنك ان من سخطه (جلّت حكمته) على الأدباء ان يقيّم لهم من كل قارئ قاضياً معصوب العينين في إحدى يديه السيف والأخرى الميزان.

إن من البيان لسحراً:

سمعت الأستاذ دياب يخطب الجماهير في أحد الأندية أثناء زيارته الأخيرة لفلسطين، فما فارق المنبر حتى أدركت معنى الحديث: «إن من البيان لسحراً»، وتجلت حقيقته ملموسة ماثلة أمامي في تلك الخطابة الساحرة، فقد تكلم الأستاذ نحو خمس وأربعين دقيقة لم يشعر أحد من سامعيه أنها كانت أكثر من خمس دقائق! ارتجل الخطيب ارتجالاً فكان كمن يقرأ في كتاب لما في خطابته من التبويب والتناسق وأخْذ آرائه بعضها برقاب بعض، مع غزارة المادة واستيفاء النضوج، والذهاب بعواطف السامعين كل مذهب.

والذي استفدته أنا من هذا الموسم الخطابي هو التمييز بين الشعوذة وبين الخطابة ومعرفة كون الخطابة شيئاً والجمباز شيئاً آخر.. لقد تعلمت أن الخطابة حديث إلى العقل والقلب معاً له نبرات هادئة وإشارات طبيعية، وفيه علم ومغناطيس، وأنها ليست صراخاً وقفزاً، ولا تكلفاً في الصوت والحركة، ولا كلاماً فارغاً يصمّ الأسماع، ويغمّ القلوب..!

غزل وغزل:

الدكتور وجيه البارودي (من أهل حماه) صديقي شاعراً لا طبيباً، والحمد لله....!

جاءني ذات يوم فقال لي: «ما رأيت ليلة كالبارحة...! تواعدنا أن نلتقي أنا وهي، فحددنا الوقت ولم نعين موضع اللقاء!! فظللنا يبحث أحدنا عن الآخر، ولكن بدون جدوى، فعدنا إلى مضاجعنا وفي نفس كل منا من الخيبة مالا يوصف».

قلت: «ألا ترى أن تقول في هذا الموقف الطريف النادر شيئاً؟!» فكأنما وجد مفقوداً، وقال: «بلى والله!»، ثم عاد إلي في المساء ينشدني قوله وقد أبدع ما شاء:

ألا بـأبـي غـانـيـه
بـهـا لـلـهـوى مـا بِـيَـه
نـظـرت لـهـا نـظـرةَ الـذْ
ذَلـيـلِ إلـى الـطـاغـيـه

وقالتُ الا هل أرا
كِ في الساعة التاليه

فقالت إلى ملتقا
كَ في الساعة الحاديه

وطارت بنا نشوةٌ
فلم نذكرِ الناحيه!

فيا من رآها إليْ
يَ رائحةً غاديه

فحمتُ على دارها
وحامت على داريه

فلا انا حاظِ بها
ولا هي بي حاظيه

وعادت باحزانها
وعدْتُ باحزانيه

****

البرلمان النسائي

الجلسة الأولى

فُتحت أبواب البرلمان النسائي العتيد وأقبلت النائبات المحترمات يتهادين بدلال وعزة، وأخذن يتجولن في حديقة البرلمان وهن يكدن يطرن من شدة الفرح، وارتفعت (الزغاريد) تصدع الجو لنيل الأمل حتى نفرت الأطيار المختبئة في أشجار الحديقة، وذعرت الأرانب التي تربيها الحارسة لرئيسة البرلمان المقبلة.

وأخيرًا دق جرس الدخول إلى القاعة فأخذنَ يتدافعن بالأكف مقهقهات حتى غصت القاعة، وجلسن في محلاتهن، أما مكتب الرئاسة فكان خاليًا، وبعد أن امتلأت الأماكن وقفت نائبة بدينة من حزب اليمين وصاحت بصوت رنّان: هسْ...

فخفتت الأصوات والتفتت العيون إلى مصدر الصوت،

المندوبة: أيتها الزميلات المحترمات لقد ابتسم لنا الزمان، وهذا هو اليوم الذهبي في تاريخ حياتنا، فيجب أن نبرهن أننا أهل لأن نأخذ حقوقنا كاملة (تصفيق من حزب اليمين، وصفير وضجة من حزب الشمال).

مندوبة من حزب الشمال: كلامك أيتها الزميلة محترم، ولكن يجب أن لا تكوني رجعية في ملبسك، فإن فستانك هذا الذي تلبسينه من مودة العام الماضي.

المندوبة الأولى: يوه.. الحمى تنزل عليك.. وحياة عيوني إنه من مودة هذا العام.

المندوبة الثانية: العين تصيبك، أنت جاهلة ولا تعرفين تطور الأزياء، ولوحت لها بجورنال للمودة كان في يدها.

فتهجمت مندوبة اليمين عند هذه التهمة الفظيعة على زميلتها وتماسكتا بالأيادي أولاً، ثم امسكت كل واحدة بشعر الأخرى وجرى الشد والتقطيع، فقامت النائبات «وفزعن» وأبعدن كل واحدة عن الأخرى، وقالت المندوبة الأولى وهي تنتفض غضباً وترفس برجليها وتهز راسها، آه لو لم يكن شعرك «مقصوصاً» لأريتك.. فضاع صوتها بين الصياح والضجيج، وما سكنت الحركات قليلاً حتى وقفت مندوبة من حزب الوسط وقالت والوقار بادر على محياها:

أيتها الزميلات! لقد جرى ما كنا نتوقعه في أول جلسة بل قبل أن تبدأ، فأرجو منكن أن تمسكن السنتكنّ إذا خرجتنّ من البرلمان حتى لا يعرف الرجال ما حدث فنأمن ضحكهم وسخريتهم.. هم يتهموننا بأننا لا نضع السنتنا في أفواهنا.. آه من الكذابين «تصفيق حاد».

والآن بما أن قاعدة البرلمانات أن يترأس الجلسة الأولى اكبر الأعضاء سنًا حتى تتم عملية الانتخاب، لذلك يجب أن تتقدم كبيرة «النائبات» سناً إلى منصة الرئاسة. تتقدم كبيرة النائبات سناً؟!... وجم كل من في القاعة حتى كأن على رؤوسهن الطير، وأين المرأة الشجاعة التي تبرز إلى الميدان؟!.

- تقدمي أنت أيتها الخطيبة إلى منصة الرئاسة، قالت ذلك فتاة خبيثة في آخر القاعة.

- يا قطيعة... أنا صغيرة عائلتي، وفي الزميلات الموجودات من حضرت يوم ميلادي والبركة في أعمارهن... ثم ضحكت الخطيبة مستهزئة فظهر فمها كأنه مغارة فيها بقية من الحجارة المتكسرة، وأسرعت إلى حقيبتها وفتحتها وتناولت علبة (البودرة) بيد مرتعشة وأخذت تعفر وجهها لتخفي ما عملت به يد الدهر.

وهنا دارت الأحاديث وحميت المناقشات:

- انت أكبر مني.

- انا.. لا يا أختي.. انا اصغر من فلانة التي هي من سنك.

وهكذا شغلت كل واحدة زميلة لها ، ثم علت الأصوات وارتفع الصراخ وكادت تشتبك الأيدي.. فجاءت قوة البرلمان تحت رئاسة قائدتها ودقت جرس الانصراف.

فقامت كل نائبة وتوجهت إلى الباب وهي تهدد نائبة أخرى وتقول: «إلى الجلسة القادمة... لأن قلبي ملآن».

****

فلسطين ١٩٣٦/١/١٢

حقائق مجهولة في حياة المتنبي

للشاعر الكبير الأستاذ إبراهيم طوقان

صدر عدد يناير من مجلة «المقتطف» الشهيرة وهو: «يختلف عن كل عدد صدر منذ ستين سنة إلى يومنا هذا ، فهو في موضوع واحد ولكاتب واحد. أما الموضوع فأبو الطيب المتنبي، وأما الكاتب فالأستاذ محمود محمد شاكر» ولا أظن المناسبة خافية على القارئ، فإن ذكرى الشاعر لمرور ألف سنة على وفاته كانت أهم الحوادث الأدبية التي سجلها عام ١٩٣٥، وكان الشاعر فيها هو بعينه ذلك الرجل الذي «ملأ الدنيا وشغل الناس»..

المتنبي عند مؤرخيه شاعر يتعاظم وليس بعظيم، ويتظاهر بالقوة والشجاعة وهو الضعيف الجبان، ويشكو لوعة الحب وتباريح الشوق ويبكي على فراق الأحباب وما هو بعاشق وما دموعه إلا دموع التماسيح.. هذا هو المتنبي عند مؤرخيه منذ كان وإلى يومنا هذا، حتى طلع علينا الأديب المحقق والعالم المدقق الأستاذ محمود محمد شاكر، فإذا المؤرخون إما متخرص حسود، أو خصم لدود، أو جاهل مدع، أو ناقل عن أحد هؤلاء من غير تمحيص ولا تحقيق.... جاء الأستاذ محمود فانقذ المتنبي من هؤلاء جميعاً ورفعه إلى مقامه بين أشراف الناس ودهاة الرجال وعباقرة الأدب، ولم يكن الكشف عن حقيقة المتنبي بالأمر الهين، بل كان لابد للباحث أن يكون شاعراً عليماً بأسرار اللغة وبلاغتها، كامل الاطلاع على تاريخ العصر الذي نشأ فيه أبو الطيب، محيطاً بحوادثه ومشكلاته السياسية ونزعاته الحزبية، واقفاً على نواحيه الأخلاقية والاجتماعية، حتى إذا قام ينقض ما قرره المؤرخون منذ ألف سنة تناوله بيد الجبار من اساسه، ثم أخذه بمعوله أخذ عزيز مقتدر.. بهذه العدة المستكملة تقدم الأستاذ محمود محمد شاكر يؤرخ للمتنبي من جديد، وبهذه الثقة بالنفس أخرج إلينا الكاتب النابغة حياة المتنبي في أصدق ألوانها وأسطع حقائقها.

وإليك حقائق أربع كانت مجهولة في حياة المتنبي فانكشفت وأثبتها الكاتب لما لا سبيل إلى دفعه من البينات والبراهين:

أولاً: المتنبي شريف من أشراف العلوية «العربية» وليس ابن سقاء مغمور النسب كما اشتهر عنه:

وإني لمن قـومٍ كـان نفـوسَـهم
بهـا انفٌ انْ تسكنَ اللحمَ والعظمـا
وبهم فـخـرُ كلِّ من نطق الضـا
دَ، وعـوذُ الجـاني وغـوثُ الطريدِ

ثانياً: ادعاؤه النبوة إنما نُبز به نبزًا، ولم يكن حبسه من أجله بل من أجل دعوى العلوية تلك، وهي حق له ولجدته نشأ على المطالبة به والسعي لاسترداده، وكان القبض عليه وحبسه سنة ٣٢٢، ولكنه لم يلقب بالمتنبي إلا بعد سنة ٣٢٥، وإن حاسديه قد كثروا ورأوا كوكبه لا يزال صاعداً.

ثالثاً: المتنبي داعية سياسي اشترك في العمل لإنقاذ العرب من العجم والترك والديلم، وإقامة دولة عربية «علوية» خالصة، ولم يكن ممدوحاه بدر بن عمار، وأبو العشائر الحمداني إلا بعض من آنس بهم هذه النزعة ورأى عندهم هذا الأمل، ولم تكن صلته بسيف الدولة صلة مادح بممدوح فحسب وإنما كانت صلة سياسية أيضاً، وراءها خطة انقلابية تترقب الفرص لتنفيذها، هذا ويكاد يكون قتله تخلصاً منه كداعية سياسي خطير، لا كشاعر هجاء.

رابعاً: المتنبي عاش صادق الوجد واللوعة، (وما من مؤرخ إلا نفى عنه صفة العشق...) أما معشوقته فهي خولة أخت سيف الدولة الحمداني، وكان يرجو أن يتزوج بها عن رضى أخيها، وكان هذا العشق سببًا لما لحقه من الاضطهاد والتعرض للقتل من قبل أبي العشائر وأبي فراس الحمدانيين:

متى تزرْ قومَ من تهوى زيارتَها
لا يُتحفوكَ بغير البيضِ والأسَلِ

مما أدى إلى هجر بلاط سيف الدولة ورحيله عنه الى مصر:

رحلتُ، فكم باكٍ بأجفان شادنٍ
عليَّ، وكم باكٍ بأجفان ضيغمِ
وما ربّةُ القُرطِ المليح مكانُهُ
بأجزعَ من ربّ الحسامِ المصمَّمِ
فلو كان ما بي من حبيبٍ مُقنَّعٍ
عَذَرتُ، ولكن من حبيبٍ مُعَمَّمِ
رمى واتّقى رميي ومن دونِ ما اتّقى
هوىً كاسرٌ كفّي وقوسي وأسهمي

وماتت خولة وهو في العراق بعيد عنها فانهارت صروح آماله بالزواج منها:

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ
فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم يدع لي صدقُه أملاً
شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي

هذه حقائق أربع في حياة المتنبي أثبتها الأستاذ محمود محمد شاكر بالأدلة القاطعة والحجج الدامغة، فغيّر بذلك وجه التاريخ في حياة شاعر العربية الأوحد وعلم الشعر المفرد.

«والذي يقرأ هذا البحث»، يقول الأستاذ صروف في مقدمته «ويعود إلى مطالعة ديوان المتنبي متدبرًا تنكشف أمامه معاني شعره وصلتها بنفس صاحبها من ناحية، وبتاريخ عصره من ناحية أخرى»، وإذا كان الموت لم يمهل المتنبي حتى يتم له قوله:

سأطلب حقّي بالقنا ومشايخٍ
كأنهمو من طول ما التثموا مُرْدُ

فإن الأستاذ محمود قد طلب له ذلك الحق بعد ألف سنة وأدركه وظفر له به بالصبر على البحث والدأب في التحقيق ، فانهار ذلك الصرح الممرد من الأكاذيب التاريخية والتخرصات التي كانت أُلحقت بحياة الرجل الكامل العظيم.

لم يأت الأستاذ محمود محمد شاكر في هذا العدد من المقتطف على كل ما لديه من الحقائق عن المتنبي وإنما أجمل ذلك إجمالاً في (١٦٨) صحيفة، «وليس هذا العدد الكامل إلا موجز سِفْر في المتنبي ينوي أن يجعله في أربعة مجلدات أو أكثر».

هذا فتح مبين في عالم الأدب العربي نهنئ عليه الأستاذ محمود محمد شاكر ونستقبله وما يليه بقلوب ملؤها الابتهاج والرجاء.

نابلس

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

****

جريدة فلسطين

١٩٣٦/١/٢٦

الشوقيات - الجزء الثالث

بقلم الشاعر الكبير إبراهيم طوقان

أكرمني أديب العربية وأثرني على نفسه، بإهداء أول نسخة وردت إلى فلسطين من الجزء الثالث من ديوان شوقي رحمه الله. والنسخة هذه، هدية من ولديْ الشاعر الخالد الأديبين: علي، وحسين، ومن أولى بها من الأستاذ النشاشيبي صديق شوقي الحميم؟! ولئن توفي الشاعر فما زال وده باقياً في ولديه، حفظهما الله، فإنهما قد حفظا للأستاذ الكبير ما حفظ له والدهما من الصداقة ومحض الوداد، وإنهما ليزهوان بما كان يكنه أمير الشعراء لأديب العربية من الإكبار والإعجاب... أكرمني أبو الفضل وأثرني على نفسه بإهداء النسخة الأولى والوحيدة من الشوقيات، وأبى له حسن ظنه بي، وعطفه علي، إلا أن يطوقني ويزين النسخة بكلمة بارعة من كلماته التي لا يحسن المفاجأة بها سواه.

له أيادٍ إليَّ سابقةٌ
أَعُدَّ منها ولا أُعَدِّدُها

قال أمير الشعراء:

يقولون يرثي كلُّ خِلٍّ وصاحبٍ
أجلْ إنما أقضي حقوقَ صِحابي
جزيتهمو دمعي فلما جرى المدى
جعلتُ عيونَ الشعرِ حُسْنَ ثوابي

تالله يا سيدي القارئ إنها لعيون الشعر، وإنها لدموع الشاعر الخالد تترقرق في هذا الجزء من ديوانه، وكله من أوله إلى آخره في الرثاء فإنه يشتمل على تسع وخمسين مرثية كان اختار لها الشاعر عنواناً غير المراثي كما علمت من أديب العربية، فسماها (سير الرجال)، وهذه التسمية تحيط بمعنى الرثاء وتزيد عليه وهي، بعد، أكرم لفظاً، وأقرب إلى الابتكار، وأبعد عن الابتذال.

وقد خرجت عن نطاق الرثاء الضيق بما أودع الشاعر في قصائده من خطرات نفسه ونظراته في الحياة والموت، وبما بث فيها من ضروب الحكمة، وبما ضرب فيها من الأمثال السائرة فجاء الديوان دستور الأخلاق الفاضلة والحياة في مثلها العليا، وبذلك حقت تسميته بسير الرجال كما شاء الشاعر، وكما روى أديب العربية. وبهذه المناسبة لابد من الإشارة إلى أن الأستاذ النشاشيبي يعرف من حياة شوقي الخاصة ما ليس يعرفه سواه ولعله، حفظه الله، طالع علينا يوماً بكل طريف من نوادر الشاعر الخالد وخواطره.

ونعود إلى «سير الرجال» فنذكر منها قصائد قالها الشاعر في رثاء عظماء شرقيين وغربيين، ساسة وأدباء وزعماء.. مثل: سعد زغلول، حافظ إبراهيم، وزيدان، ومصطفى كامل، من مصر، ومنهم: أبو الثورة العربية الملك حسين، وفقيد سوريا فوزي الغزي، وشهيد طرابلس عمر المختار، وابن إمام اليمن سيف الإسلام، ومنهم: فردي الإيطالي، وهوغو الإفرنسي وتولستوي الروسي، بهذه الإحاطة في الإحساس كان شوقي جديرًا بلقب أمير الشعراء، وبهذا العطف الشامل على الشرق العربي كان شوقي لسان العرب الناطق وقلبهم الخافق.

وهناك قصائد غير قليلة العدد رثى بها شوقي رجال الموسيقى كالشيخ سلامة، وسيد درويش، والحمولي، وعبدالحي، وحسن أنور، وعثمان، وفي هذه القصائد تتجلى روح شوقي الطروب المرح، وتنعكس عنها تلك النفس الكريمة المنطبعة على تمجيد الفن وتقدير ذويه.

✲✲✲✲

وفي هذا الجزء من الشوقيات، أخطاء هي غير «مطبعية» على كل حال، وأخص بالإشارة قصيدة الشاعر في رثاء الحسين التي مطلعها:

لكَ في الأرض والسماءِ مآتمْ
قام فيها أبو الملائكِ هاشمْ

فقد اتفق لي أن اطلعت على هذه المرثية مكتوبة بخط يد الشاعر، أعني النسخة المحفوظة الآن بين ذخائر الأستاذ النشاشيبي، وهي التي بعث إليه بها «ورفعها على يد صديقه ولسانه» ليلقيها في حفلة تأبين المغفور له الملك حسين في القدس، وأنا أظن ظناً هو إلى اليقين أقرب أن الشاعر حين كان يُبيّض القصيدة ليبعث بها إلى فلسطين قد بدا له

فيها ما يحتاج إلى تبديل وتحوير وزيادة، وفاته أن يجعل ذلك في مسودتها فلما جمعت المسودات بعد موته للطبع، كانت هذه القصيدة بينها على حالها التي كانت عليها قبل التنقيح، ولعل في مقابلة نسخة الديوان ونسخة الأستاذ النشاشيبي ما ليس يخلو من فائدة، البيت الثاني في نسخة الأستاذ النشاشيبي هو:

عــبــراتٌ (الكتــابِ) فــيــه جَــوارٍ
وعــيــونُ (الحــديثِ) فــيــه سَــواجمْ

وقد سقط هذا البيت برمته من الديوان.

وفي نسخة الأستاذ:

سنةٌ احــســنتْ واخــرى اســاءت
لم يدم في النعــيم والكرب حــالمْ

وفي الديوان سنة (أفرحت) والأولى طباق (أساءت) ولا ينزل في موضعها أحسن منها.

وفي النسخة المخطوطة:

واديروا ليَ العــتــيقَ حــســيناً
يعــتــدلْ ركنُه وتقــوَ الدعــائمْ

وفي الديوان: (يبتهل) ركنه و(ندعو) الدعائم.

وليس هذا من ذاك في شيء، فالأولى أجمل وقعاً، وأكرم لفظاً، وقوله:

يظمــا الحــرُّ للديار وإن كــا
نَ عــلــى مــنــهــلٍ مــن الخُــلْــد دائــمْ

وفي الديوان (ظمئ الحر)، والأولى ادنى إلى تسيير المثل وهو المقصود.

وبعد فإن الأستاذ محمود أبو الوفا القائم على تصحيح هذه الطبعة، لا لوم عليه في مثل هذه الأخطاء، ولا يسعنا إلا أن نشير في ختام هذه النظرة المستعجلة إلى عنايته الظاهرة في ضبط الديوان وشرحه.

إبراهيم طوقان

****

جريدة فلسطين
العدد ٢٨٤ - ٣١٦٨
الأحد ١٩٣٦/٢/٢

«مستشرق»

للشاعر الكبير الأستاذ إبراهيم طوقان

كنت مدرساً في جامعة بيروت الأميركية يوم قدّمني أحد زملائي الأساتذة إلى المستشرق الدكتور «نيكل»، وهو يقول: أرجو أن تجد عند صديقنا الشاعر ما يسرك من الاطلاع على الشعر العربي ونوادر العشاق.. وصافحني الدكتور المستشرق وهو يرد على زميلي عبارات الشكر بلغة عربية فصيحة تتذبذب نبراتها بين اللهجة المصرية والمغربية.. والتقينا في ذلك المساء على مائدة العشاء، فعلمت أنه يشتغل في معهد شيكاغو الشرقي وأنه تخصص في الغزل العربي، فهو يتنقل بين عواصم الشرق والغرب باحثاً في مكاتبها الكبرى عن الكتب المتعلقة بموضوعه، وكان من نتيجة ذلك أن ترجم إلى اللغة الإنجليزية كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي نقلاً عن المخطوطة المحفوظة في «بطرسبرغ» (لينينغراد اليوم)، والكتاب يبحث في الحب وأدواره والمحبين وأحوالهم، أما عمله الثاني فقد كان على نية الابتداء بتصحيح كتاب (الزهرة) لابن داود الأصفهاني وتعليق حواشيه وتنظيم فهارسه، وكتاب «الزهرة» هذا لم يجد منه غير نصفه الأول في نسخة فريدة محفوظة في دار الكتب المصرية، وعسى أن أحدثك عن هذا الكتاب في فرصة أخرى.

ولقد شوّقني الدكتور المستشرق بحديثه عن كتاب الزهرة إلى الاطلاع عليه، فكان لي ذلك، رأيت عند الدكتور نسخة فوتوغرافية للكتاب وقد أُخذت صورة واضحة لكل صفحة من صفحاته، ثم حُبكت هذه الصفحات وجلّدت كتاباً.. وكنت ألمح أخطاء نسخية هنا وهناك حين أخذت أتصفح الكتاب فأنبهه إلى صحيحها أو أرده إلى مرجع ضبطها، ولم تمض بضع دقائق حتى دعاني إلى العمل معه في تصحيح الكتاب وإخراجه باسمينا معاً،

وباشرنا بالعمل في اليوم الثاني وعدّل الدكتور برنامج رحلته الأدبية فأقام في بيروت سبعة أشهر بدلاً من اسبوعين، وكان مقدار ما نعمله يومياً لا يقل عن أربع ساعات.

كانت هذه المرة بصحبة الدكتور (نيكل) كافية لتعطيني صورة جلية عن المستشرق المخلص، المتفرغ لأعماله، الواقف حياته عليها، ورايت من جلده على البحث والتنقيب والصبر على معرفة التافه والجليل من الأمور ما أدهش له وما يضايقني أحياناً، فربما قرأنا عشرات الكتب للتثبت من بيت الشعر الواحد وللوقوف على رواياته المختلفة ونسبته إلى قائله، فندوّن كل ذلك ونعلق على الحواشي المفيدة، وللدكتور في ذلك من الملاحظات الصائبة ما ليس يخطر على بال.

لم يكن عجيباً عندي بعد الذي رأيته من صبر هذا المستشرق وجلده أن يتوصل إلى ما توصّل إليه من النظريات القيّمة، فالقارئ الأديب يعرف النظرية القائلة بأن عرب الأندلس قد نقلوا فن التوشيح عن الإفرنج، ولكن الدكتور يقول بعكس ذلك ويرى أن أصل الشعر الإفرنجي يرجع إلى عرب الأندلس، فهم مبتكرو هذا التوشيح والبالغون فيه الى ما نراه من اللطف والذوق، وفي مقدمة «طوق الحمامة» يعلن الدكتور رأيه هذا ويدعمه بالمقنع العجيب من البراهين ومقابلة الشعر بالشعر والأوزان بالأوزان!!

وكان اغرب ما عرفته عن تفرغ المستشرقين وانصرافهم إلى فروع اختصاصهم أننا في أثناء عملنا في كتاب «الزهرة» افتقدنا صحيفة من صفحاته فلم نجدها، ولم يترك الدكتور «نيكل» موضعاً بين كتبه وأمتعته إلا بحث فيه عنها، وكأنما سها المجلد عنها فسقطت من الكتاب، فاقترحت عليه ان يكتب إلى دار الكتب المصرية في طلبها، وفي اليوم الثاني لم يكن الدكتور معنا على طعام الفطور وافتقدته كذلك على الغداء والعشاء، وكنت اسأل عنه زملائي الأساتذة فلا اجد بينهم من رآه، حتى كان اليوم الثالث فإذا به على المائدة، فقلت له: أطلت علينا الغيبة يا دكتور، خيراً إن شاء الله، قال بلهجة الظافر: كل

الخير، هذه هي الصفحة الضائعة.. فقلت هنيئاً لك أين وجدتها؟ قال: (ذهبت إلى القاهرة وأتيت بها من دار الكتب، وقد أخذت القطار أمس مساء فصبّحت حيفا وها أنذا!!.

يقول ذلك كأنما ذهب من الجامعة إلى رأس بيروت، ولا تسل سيدي القارئ عمّا استولى عليّ وعلى إخواني من الدهشة والاستغراب.. لقد كان الدكتور «نيكل» في عمله مثال الإخلاص الأعلى لعلمه وأدبه، والغاية التي ما بعدها غاية في التفرغ إلى أبحاثه وناحية اختصاصه.

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

نابلس

****

جريدة فلسطين

١٩٣٦/٢/٩

برج بابل السيار

للشاعر الكبير الأستاذ إبراهيم طوقان.

حدثتك في الأحد الماضي عن الدكتور نيكل المستشرق المخلص لعلمه، المتفرغ لأبحاثه، الدائب على العمل في ناحية اختصاصه، ورأيت انه يكاد يذهل عن هذه الدنيا سوى ما كان متعلقاً منها بالأدب عامة والغزل خاصة. وأنا محدثك اليوم بطرائف عن حياة هذا الرجل لأدلك كيف يفهم هؤلاء القوم معنى العلم والبحث وبأية عدة يستعدون لهما.

حدثني الدكتور نيكل عن أول عهده بدراسة المشرقيات فقال:

ابتدأت بالتخصص في القرآن الكريم بعد أن درست اللغة العربية في مصر والمغرب ووقعت على قواعدها وأصولها، وظللت في اختصاصي هذا خمس سنين لم ادع في خلالها تفسيراً معروفاً للقرآن ولا تعليقاً مشهوراً إلا درسته وتفهمته، إلا أنني لم أكن شاعراً بالارتياح إلى اطلاعي وتحقيقي، ولم أزل أحس بأن هنالك سرًا هو أعمق من أن ينكشف لي بالدرس والبحث، ذلك هو التحسس بروح القرآن وتذوق أياته ومعانيه، وإدراك ما في لغته من الجمال. وأخيراً قررت بيني وبين نفسي أن أقف عند هذا الحد وأتخصص من الأدب العربي في ناحية اخرى، ونفذت قراري معتقدًا ان هذا الكتاب لا يحسن التخصص فيه إلا عربي يتذوق اللغة العربية بالنشأة والغريزة، وإلا مسلم يقرأ القرآن مستشعرًا بخشية الدين ونور اليقين متأثراً ببلاغة وعده ووعيده. قال الدكتور نيكل: وما أنا بهذا العربي ولا ذاك المسلم، فكيف لي بتذوقه والتحسس بما فيه!!

لقد شهد الله أن هذا المستشرق منصف، وانه ربأ بنفسه أن يلقي بها في مهاوي الضلالة وأن يأخذها بالمكابرة، فنجا مما وقع فيه زميل له من أكابر المستشرقين، أعني العالم الأشهر (نلدكه) المستشرق الألماني، فهذا الرجل عند القوم ثقة ثبت في القرآن حتى

انهم لم يجدوا أحق منه بكتابة موضوع القرآن في دائرة المعارف البريطانية (انسايكلوبيديا بريبتانيكا)، ولم يعتمدوا فيه سواه.

فجاء بكل طريف، وتوصل إلى حقائق مدهشة، ولكنه حين تناول البحث في لغة القرآن وبلاغته وقع فيما خشيه الدكتور نيكل، فخبط خبط عشواء وسقط في هاوية لا قرار لها، إذ كان ينقصه الذوق العربي والحس الديني فجعل البلاغة الألمانية قياساً يطبق عليه بلاغة الكتاب المبين، وأعمل ذوقه الألماني في الذوق العربي، فكان كمن يكيل القمح بالذراع، ويقيس القماش بالصاع، وجاء يقول بوقوع.. أخطاء صرفية ونحوية في القرآن، واشتماله على أساليب تنافي أصول البلاغة!! ثكلتك الثواكل، ولأمك الهَبَل، وهل كان الصرف والنحو إلا بسبب القرآن؟! وهل عرفت للبلاغة قواعد وأصول مدونة قبل القرآن؟!! وهل كانت الخطابة وازدهارها، والكتابة على اختلاف فنونها إلا بفضل هذا القرآن وأساليبه؟!، أجل، لقد أكرم الدكتور نيكل نفسه عن هذا الخبط والخلط فانصرف عن التخصص في القرآن إلى الغزل العربي.. وفي هذا الانتقال نكتة لم يفتني تنبيه الدكتور إليها.. إذ قلت له لما حدثني بذلك: أتعرف تلميذ بشار بن برد من هو؟! قال: أتقصد الشاعر سلم الخاسر؟! قلت: أتدري لماذا لقب بالخاسر؟ فضحك وقال: باع مصحفاً ورثه عن أبيه واشترى به طنبوراً فلقبوه بالخاسر... ثم قال مستدركاً: ولكنني لم اكن خاسراً يوم بدلت القرآن بالغزل.. إنما عملت بمعنى الحديث الشريف: «رحم الله امرءاً عرف نفسه فلزم حده»!! فعلمت أن الرجل ممن هدى الله..

ولم تذهب أعوام اختصاصه في القرآن عبثاً، فإنه أخرج القرآن مترجماً إلى اللغة التشيكوسلوفاكية منذ عامين، وأهداني منه نسخة لم أعرف منها إلا آية طبعها على الغلاف الأخضر بالذهب هي: «لا يمسّه إلا المطهرون»..

وتشيكوسلوفاكيا وطن الدكتور نيكل ولغتها لغته الأصلية، ولكن له غيرهما أوطاناً ولغات، فهو يجيد كلاً من الألمانية والإنكليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية والروسية وتعلمها في أوطانها وتلقنها عن أهلها، واستقر في الأندلس زمناً أصبحت فيه لهجته الإسبانية كلهجة أبنائها، لا بل كان بضرورة اختصاصه ودراسة الشعر العربي الأندلسي

والتحقيق عن علاقته بالممالك المجاورة أنه درس لغة أهل البلد (تكلانيا) في شمال إسبانيا، ووقف على أغاني الشعراء المعروفين بالمتجولين (ثروبادور - ز)، أما اللغات الشرقية فمعرفته باللغة العربية قلّما يطمع فيها طامع، وناهيك بمن يتخصص في القرآن ثم يترجمه، ولقد كان موضع العجب والدهشة عندي أنني رأيته مرة يكتب حروفاً على هيئة الخطوط المتقاطعة، ذات رؤوس محددة، يبدأ بسطورها من أعلى الصحيفة وينتهي بها في أسفلها، فلما سألته عن ذلك قال: «اكتب إلى صديق لي في اليابان»، قلت: وهل تعرف اليابانية؟ قال: ظللت أحرر في إحدى جرائدها بمدينة طوكيو نحوًا من ثلاث سنين!!

فلو لم يكن للدكتور نيكل من المعرفة والاطلاع إلا هذه اللغات العديدة، وإتقانها والتأدب بآدابها لكان ذلك كافياً لتقديره والتنويه بفضله، والعجب من أمره، وكان جديراً بأن يطلق عليه لقب (برج بابل السيّار).

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

نابلس

****

مقالات نُشرت في
الجامعة الإسلامية / يافا
مرتبة حسب التسلسل التاريخي

في سوق الكتب

كتاب الأغاني

قالوا - والعهدة عليهم - إن كتاب الأغاني قد اغنى الصاحب بن عباد عن ثلاثين حملاً من الكتب كان يصحبها في رحلاته!! وانت بين أن تدفع هذا القول بتاتاً وبين أن تعلله فتقول: لعل احمالهم في القديم كانت صغيرة الحجم جداً، او لعل كتبهم كانت كبيرة الحجم جداً حتى إن الدابة لا تستطيع أن تقوم بأكثر من كتابين! او لعل القوم كانوا يحملون اثقالهم على الغنم والماعز..؟ وعندي أن ترفض هذا التعليل وتعمد إلى الرواية فتبدل لفظة (حملاً) فتجعلها (كتاباً)، وبالرغم من هذا المسخ فإن كتاب الأغاني وحده يظل مغنياً عن ثلاثين كتاباً، وما هذا والله بقليل!

وكتابٌ ادبي هذا غناؤه، ينبغي له أن يكون وافر المادة، متنوع الأسلوب والموضوع، جذاب الوضع، وينبغي أن يكون لصاحبه ابي الفرج الأصفهاني من الذوق أعلاه، ومن الجلد على البحث مالا يدرك مداه، اضف إلى ذلك كله علماً غزيراً وتفهماً لمرامي القول والنكتة عجيباً.

ونفهم من مقدمة الكتاب أن الخليفة هارون الرشيد قد أمر أن تُشكّل لجنة فنية برئاسة زعيم المغنين ونابغتهم «الموصلي» فتضع حداً لفوضى الغناء، وتجعله فناً له أبواب وأصول يرجع إليها ويعتمد عليها. فيتم ذلك بأن اختارت اللجنة مئة صوت، ثم اختارت من هذه المئة عشرة أصوات، ومن هذه العشرة ثلاثة، فكأن اللجنة رأت هذه الأصوات (المئة المختارة) محيطة بكل الألحان المعروفة لعهدهم، وأمّا ما عداها فتبع لها ومأخوذ عنها، ومهما أبدع المغنون وابتكر الملحنون فلا محيص لهم عن دائرة هذه الأصوات.

وجاء أبو الفرج في أيام سيف الدولة الحمداني صاحب حلب فعمد إلى الأشعار التي اختاروها (لتقييد) الأصوات فترجم شعراءها، وإلى المغنين فترجمهم كذلك، ولم يدع

من أخبارهم شاردة ولا واردة إلا دوّنها، ولا ترك حادثة أو مناسبة قيل ذلك الشعر بسببها إلا أتى عليها، وإذا بمجال القول يتسع، وإذ بالكتاب دائرة معارف أدبية تاريخية، وإذا به دنيا تغمرها الحياة على اختلاف الوانها... هنالك الجاهلية في خشونة عيشها وحميتها وصفاء ذهنها، وصدر الإسلام في بساطته وتقواه، وفي فتنِهِ الداخلية وفتوحاته السريعة الباهرة، والأموية في عربيتها وعصبيتها وجبروتها، والعباسية في فارسيتها وترفها وفقرها ونظامها وفوضاها، وهنالك الحجاز وفيه: الأبطح، ووادي القرى، والعقيق، والخيف، ومنى.

ثم العراق وفيه: المربد، والرصافة، والكرخ، وهيت، وعانات. وهنالك معبد والغريض والميلاء، نعم، وعمر بن أبي ربيعة وصاحبه العجيب ابن أبي عتيق، وجرير وصاحباه، وجميل وكثير، والأحوص، وقيس الرقيات، ونصيب، واذكر في الكتاب: بثينة، وعزّة، وسكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة (فتنة عصرها جمالاً وكمالاً) والثريا، ونُعْم، وهند والرباب، وسواهن من الكواعب العُرب الأتراب.

فإذا انتقلت إلى بني العباس استقبلك الموصلي وابنه، وزلزل، وإبراهيم بن المهدي وأخته علية، هذا بطنبوره وذاك بدفه أو عوده، وربما اعترضك ابو نواس تحيط به (عصابة سوء لا ترى الدهر مثلهم) بينهم الشعراء والشاعرات، والصالحون والصالحات..! فإذا ساءك أن تكون بين أهل العبث والمجون فدونك الكسائي والنظام وابن سيرين والحسن البصري، ولا والله ما من احد بين أولئك أو هؤلاء إلا له حديث طريف وخبر غريب، فمن حكمة بالغة، إلى بيت ساحر، إلى نادرة لطيفة. ومن مجلس معربد صاخب، إلى حلقة يحف بها الجد والوقار، ومن لقاء عفيف، إلى خلوة لا يرضى عنها الأبرار، وفي الكتاب سير أبطال وزعماء وقادة حركات وثورات، وفيه سير اللصوص والمجانين وشذاذ الآفاق!

هذه لمحة تعكس عن كتاب الأغاني صورة ضئيلة أردت بها أن تكون مقدمة لمقتطفات نأخذها عنه في المستقبل، وقد يوحي إلينا بعضها بما نعلّق عليه راجين أن نوافي قراء الجامعة الإسلامية تحت عنوان (في زوايا الأغاني) بكل طريف إن شاء الله.

ابو جعفر

****

في زوايا الأغاني.

صداقة نادرة

بقلم بلبل فلسطين الصداح وشاعرها

كان الثقفيون من انبل أهل البصرة وأكرمهم، وأبعدهم نفوذاً، حتى قصدهم الناس ورحل إليهم الشعراء. وكان الشاب عبدالمجيد بن عبدالوهاب الثقفي من أجمل الناس خُلُقاً وأكملهم خَلْقاً، شهماً أديباً يحب العلم ويكرم ذويه، وكان الشاعر العالم محمد بن أبي مناذر، من المقربين إليه، فنشأت بين الشاب الثقفي وبين الشاعر مودة قوية متينة العرى حتى لم يعد لأحدهما صبر على فراق الآخر.

ومن لطيف ما يروى عن هذه الصداقة أن ابن مناذر سهر ليلة عند عبدالمجيد، فلما أراد الانصراف شيّعه عبدالمجيد يحادثه حتى بلغا الدار، ولمّا لم يكن الحديث قد انتهى رجع ابن مناذر يرافق عبدالمجيد إلى داره، ثم رجع معه عبدالمجيد، ولم يزالا كذلك، هذا يشيع رفيقه وذاك يرجع معه إلى منزله حتى طلع الفجر، فانصرفا معاً إلى المسجد!!

ومن دلائل التضحية في هذه الصداقة أن عبدالمجيد مرض مرضاً شديداً، فكان ابن مناذر يخدمه ويتولى أمره بنفسه حتى لا يكاد يوكل به أحداً. وحدّث بعض الثقفيين قال: حضرت عند عبدالمجيد يوماً وقد أحضر ابن مناذر له ماء غالياً، واشتدّ الأمر بالمريض فجعل يقول: آه بصوت ضعيف، فغمس ابن مناذر يده في الماء الغالي وجعل يتأوه مع عبدالمجيد ويده تحترق حتى كادت تسقط!! فجذبناها وقلنا له: أنت مجنون؟ أتراه ينتفع بعملك هذا؟ فقال: أساعده في أله، وهذا جهد المقل!!

وأراد الثقفيون أن يزوجوا ولدهم الشاب من إحدى بنات عمه فأقاموا الأفراح والولائم شهراً (يجتمع عندهم في كل يوم وجوه أهل البصرة وأدباؤها وشعراؤها)، وفي الليلة الأخيرة كان العريس بين أصدقائه وأهله على سطح الدار، وكان يحيط السطح

ستائر تحجب الرجال عن صحن الدار الغاص بالنساء، فهبت ريح اقتلعت إحدى الستائر (فاكب عبدالمجيد ليشدها فتردى على راسه، ومات من سقطته، فلم تُر مصيبة قط كانت افظع منها ولا انكأ للقلوب!).

انقلبت الولائم في ديار الثقفيين إلى مآتم، واقيمت المناحات على عبدالمجيد اربعين يوماً، ورثاه محمد بن مناذر بقصيدة مطلعها:

كلُّ حيٍّ لاقى الحِمام فمُودي
ما لحيٍّ مؤمَّلٍ من خلودِ

والقصيدة من عيون الشعر في الرثاء، قيل انشدت للرشيد فلما سمع قوله:

إن عبدالمجيد يومَ تَولّى
هدَّ ركناً ما كان بالمهدود
ما درى نعشُه ولا حاملوه
ما على النعش من عفافٍ وجود

قال: ما كان ينبغي أن تكون هذه القصيدة إلا في رثاء خليفة او ولي عهد، وكان بدء نظمها أن ابن مناذر سمع نساء الثقفيين ذات يوم ينحن على عبدالمجيد نياحة لا حرارة فيها، فنظم القصيدة ودعا صديقاً له فحفظاها ووضعا لها لحناً ومرّا بديار بني ثقيف وانتظرا حتى كانت سكتة من النائحات، فاندفعا بالقصيدة ينوحان بها، فلما سمع النساء ذلك اقبلن يلطمن ويصحن وحميت المناحة حتى اشرف الناس من الأسطحة ووقفوا في الطرقات، وشاع الخبر في البصرة حتى نُقل من مجلس إلى مجلس!

ولما قال ابن مناذر فيها:

لاقيمنَّ ماتماً كنجومِ الـ
ـليلِ زُهْراً يلطِمْن حُمْرَ الخدودِ
مُوجَعاتٍ يبكينَ للكبد الحَرْ
رَى عليه وللفؤاد العميد

قالت أم عبدالمجيد: والله لأبرنّ يمينك يا ابن مناذر، فاقامت مع أخوات عبدالمجيد وجواريه مأتماً دعت إليه أجمل فتيات البصرة وجعلت تصيح: (واه ويه واه ويه)، فيقال إنها أول من فعل ذلك وقاله في الإسلام!!

أما الشاعر ابن مناذر فلعله أصيب بمسّ من الجنون بعد موت صديقه عبدالمجيد إذ يروي صاحب الأغاني فيقول: (مات عبدالمجيد فتهتّك ابن مناذر بعد ستره، وفتك بعد نسكه، وترامى به الأمر بعده إلى أن شتم الأعراض وأظهر البذاء، وقذف المحصنات ووجب عليه القصاص، فهرب إلى مكة وأقام بها حتى مات) ولعمري إن في صورة موت عبدالمجيد ما يصدع الأكباد، فكيف لا يجنّ ابن مناذر وقد رأيت من حبه وتضحيته لصديقه ما يكاد يبلغ مراتب الكمال.

نابلس

إبراهيم طوقان

****

في زوايا الأغاني

شهيد المصلحة العامة

بقلم الأديب النابغ الأستاذ إبراهيم طوقان

التاريخ يعيد نفسه.

ما طالعت اخبار الانقلاب العباسي إلا استولى علي حنق وحزن معاً، ومثلت امام عيني صورة رهيبة لتلك الدسائس يحوكها الفرس لقلب العرش الأموي واستبداله بعرش غيره، له من العربية عرضها ومن الفارسية جوهرها. وأستعرض رجال هذا الانقلاب فأجد فيهم ابن خراسان – مثلاً – فلا أعجب لسعيه الحثيث في هذا الانقلاب لأن الفرس كما قال صاحب (ضحى الإسلام) (قد تملكهم العجب كيف غلبهم العرب! وقد كان أهل خراسان من اشد الناس عصبية بعضهم لبعض)، لا أعجب لهذا الفارسي ولكن العجب أن تعمى بصائر العباسيين فيخدعوا عن أمرهم ويستعينوا بالفرس – بالأجانب – على أبناء عمهم الأمويين، لا بل هي ظاهرة تاريخية لا استطيع تعليلها وهي: علام يستعين العرب على العرب بالأجنبي؟ علام يذهب امرؤ القيس إلى قيصر الروم يستعديه على قاتلي أبيه؟! علام يستنجد العباسيون بالفرس لقلب الأمويين؟؟! علام وضع العرب أيديهم في أيدي الحلفاء لبناء مملكة عربية..

ولا احب ان امس التاريخ الحديث بقليل ولا كثير لئلا أسيء إلى شخصيات عربية نكرمها لم تنج هي الأخرى من هذا العيب. تؤلمني هذه الظاهرة التاريخية ويؤلمني أن تلك الصفات العربية النبيلة ما زالت ينقصها قديماً وحديثاً شيء أساسي هو الشعور القومي العام الذي تُنسى معه الأحقاد وتتلاشى أمامه الأضغان.

لقد علموني في المدرسة أن وفاء السموال مضرب الأمثال، ذلك لأنه احتفظ بوديعة الدروع لامرئ القيس وأبى تسليمها لخصومه حتى كلفه ذلك ذبح ولده بين عينيه! الله أكبر للوفاء، الله اكبر لراعي الأمانات، ولكن لم يعلموني موطن العبرة في بقية القصة، لم

يعلموني أن امرأ القيس كان قاصداً بلاد القيصر ليأتي بجيش كثيف من الروم يدوخ به الجزيرة انتقاماً لأبيه، وأنه لو تم له مبتغاه لكان معناه احتلال للجزيرة (خفيف الظل) كاحتلال أحفاد ذلك الجيش لهذه البلاد! لقد علموني في المدرسة أن الدولة العباسية حلت محل الأموية ولكنهم لم يرشدوني إلى موطن العبرة في قول الجاحظ: «إن دولة بني العباس خراسانية أعجمية ودولة بني مروان عربية أعرابية» «ضحى الإسلام ص ٣٥».

وغريب أن تتسلط الدعاية الأجنبية على العرب أنفسهم فيصبحوا أجانب أكثر من الأجانب.. قال صاحب ضحى الإسلام: «كان قحطبة الطائي – وهو عربي صميم – يخطب في أهل خراسان يُحقِّر العرب ويعظِّم الفرس!»، وقال في موضع آخر: «قال إبراهيم الإمام لأبي مسلم الخراساني: «إن استطعت ألا تدع بخراسان أحداً يتكلم العربية إلا قتلته فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، وعليك بمضر فإنهم العدو فلا تدع على الأرض منهم ديّاراً».

لا حول ولا قوة إلا بالله، أمضر العربية وأبوة محمد صلى الله عليه وسلم هي العدو؟! وماذا كان جزاء هذا التحريش إلا الغدر؟ جاء في ضحى الإسلام: وبعد أن أدى العرب عملهم (أي بعد أن قاتلوا أبناء عمهم فقتلوهم وشردوهم) نكل أبو مسلم بهم وقتل زعماءهم! في تاريخنا الحديث شيء من ذلك، ولكننا لا نعتبر مع الأسف لا بالماضي البعيد ولا القريب، ولا نزال كما كنا نعين خصمنا على أنفسنا مخدوعين بأضاليل الوعود وزخرف العهود، مأخوذين بالعرض دون الجوهر؟.

أهلاً بالشاعر الثائر:

كنت أبحث (في زوايا الأغاني) لعلي أجد للصحيفة الأدبية حديثاً طريفاً، وإذا بعبدالله بن معاوية يتصدى لي في الجزء الحادي عشر. قلت أهلاً بالشاعر الثائر، الأبي الطموح، أهلاً بالهاشمي الكريم أبناء الهاشميين الكرام، لهفي عليك يوم خذلك أنصارك وانفضوا من حولك بعدما ملأت بالأموال أكفهم، ورفعت بالمناصب رؤوسهم، ولهفي عليك حين دفع بك اليأس إلى أيدي الفرس الطامعين فلم يكونوا أرأف بك ولا أحنى عليك من بني عمك الأدنين، فقضيت ضحية المصلحة العامة والواجب الأسمى. قد يتكلف الحكمة كل شاعر، ولكن أنت، وقد بلوت من الخذلان ما بلوت، كنت الحكيم المجرب في قولك:

الانتَ اخي مـــا لـم تكن ليَ حـــاجـــةُ

فــإنْ عــرضتْ ايقنتُ الا اخـــا ليـــا

وعينُ الرضـــا عن كل عـــيبٍ كليلةُ

ولكنّ عينَ الســخطِ تُبــدي المســاويا

ولله ما أغنى نفسك حين تقول:

إذا افـتـقـرتْ نفـسي قـصـرتُ افـتـقـارها

عليـهـا فلم يظهـر لهـا ابداً فـقـري

فــلا العـــسْـرُ يزري بي إذا هو نالني

ولا اليــسـرُ يومـاً إن ظفـرتُ به فـخـري

ولله ما أرق قولك:

ســـلا ربّةَ الخِـــدْرِ مـــا شـــانُهـــا

ومـن ايّمــــا شــــاننا تـعْــــجبُ

وكنّا حـــديثـــاً صـــفـــيّين، لا

نخـــاف الوشـــاةَ ومـــا سَـبّـبـوا

فـــــإن شطّتِ الدارُ عـنّا بـهـــــا

فـبـــانت وفي النـاس مُـســتـعـتِبِ

واصــــبح صِــــدعُ الـذي بـيـننـا

كـــصـــدع الزجـــاجـــةِ مـــا يُشْـــعَب

فـلســتُ بـاول مــن فـــــــاتـهُ

عـلـى إربـه بـعـضُ مــــــا يطـلـب

قدمت بين يدي القارئ الكريم تمهيداً لم يكن منه بد، وعرفته بالشاعر الثائر الحكيم، وعسى أن أقص على القارئ خبره مفصلاً يوم الجمعة القادم إن شاء الله.

نابلس

إبراهيم طوقان

****

في زوايا الأغاني

الجمعة، ٩ حزيران ١٩٣٣م
١٦ صفر الخير، ١٣٥٢هـ

شهيد المصلحة العامة

بقلم شاعر فلسطين الألمعي الأستاذ إبراهيم طوقان

عرفنا عبدالله بن معاوية شاعرا حكيماً رقيقاً، وسنراه اليوم ثائراً موفقاً، ثم مخذولاً مشرداً يقذف به اليأس إلى يد ظنها ناصرة، فإذا بها أشد عليه من أعدائه.

الثورة المظفرة:

كان الخوارج الأباضية يبثون دعوتهم في الطائف، فيجدون لها صدوراً أحرجها جور الحكام الأمويين، وهناك الطالبيون يستنجدون بالكوفة كما استنجد بها قبلهم علي بن أبي طالب وأولاده سعياً وراء حقهم المغصوب، حقهم بالخلافة، وهناك العباسيون يستنجدون بالفرس أهل الكيد والقوة، ويتخذهم هؤلاء مطايا يبلغون عليها هدفهم وإعادتها دولة فارسية وراية كسروية.

ولكن فئة غير هؤلاء كانت تدين بمبدأ أعم وتسعى إلى هدف أسمى وهو مصلحة العرب والإسلام عامة، لا ميزة لحزب على حزب ولا لشخص على شخص، وقد وجدت هذه الفئة شروط الزعامة متوفرة في عبدالله بن معاوية الجعفري الهاشمي وكان قوياً موفقاً، ابتدأ بما يشبه حرب العصابات فاستولى على الكوفة، وتوجه نحو المشرق فاكتسح الري وقم وقومس، وظفر بأصبهان فاتخذها قاعدة ملكه بعد أن بويع له بالخلافة، ولم يكد يستقر حتى رحل إليه رجال من بني هاشم فيهم: السفاح، والمنصور، وعيسى بن علي، ورجال من بني مروان فيهم: سليمان بن هشام، وعمر بن سهيل بن عبدالعزيز، فأحسن وفادتهم وأكرمهم بالولايات والمال.

ابتدات هذه الحركة الطيبة في عهد يزيد بن الوليد (الناقص)، وبلغت ذروتها في عهد مروان آخر خلفاء بني أمية، ولقيت حتفها على يد أبي مسلم الخراساني!

قال وقيل:

انظر كيف تحاك الدسائس، وكيف يبطلون الحركات المباركة! قالوا إن عبدالله بن معاوية رجل كريم ولكنه يتخذ عمارة بن حمزة الزنديق كاتباً له وكاتماً لسره! وقيل عن عبدالله بن معاوية إنه ينادم مطيع بن إياس الشاعر الفاسق الزنديق، وقالوا إنه كان ينادم زنديقاً آخر يلقب بالبقلي لقوله: إن الإنسان كالبقلة إذا مات لم يبعث! والقارئ يعلم أن الزندقة بالأمس كالشيوعية اليوم كلمة رهيبة يكفي أن تصم بها شخص حتى تفتح عليه العيون ويطارده القانون، وكان الإعدام جزاء الزنديق! وهناك إشاعات من طراز آخر لا تقل عن الزندقة أثراً، قالوا كان لعبدالله صاحب شرطة غليظ القلب لا يجد أحداً في الليل إلا قتله.

وقيل عن عبدالله نفسه إنه كان يحكم على المذنب فيُضرب أمامه بالسياط فيتغافل عنه حتى يموت! وأشنع ما روي عنه أنه غضب على غلام له فأمر بأن يُرمى من شرفة قصره إلى أسفل، وفعلوا ذلك بالغلام فتعلق بدرابزين كان يحيط بالشرفة، فأمر عبدالله بقطع يديه التي أمسك الدرابزين بهما فقطعت، وإذا الغلام يهوي حتى بلغ الأرض ميتاً!

تنحصر هذه الإشاعات بالزندقة وغلظة القلب، وكلتاهما منفرة رهيبة، وكأنما أراد مروجوها أن يقولوا للناس: اترضون بمن هذه صفاته راعياً لكم وخليفة لنبيكم؟ لا أريد أن أفند ما أرجف المرجفون، ولكنني اتقدم القارئ في سيرة الرجل فعسى أن تخلص بنا إلى الحقيقة المجردة.

خذلوه:

الخليفة الآن مروان، وكان يلقب بالحمار لشدة صبره على المكاره. أخرج مروان جيشاً كثيفاً بقيادة ابن صبارة لقمع الثورة، وبلغ الخبر إلى عبدالله فنادى بأصحابه لملاقاة الجيش فإذا بهم يخذلونه في أحرج الساعات، وإذا بهم يقولون له ما قال بنو إسرائيل لموسى:

(اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون)، خرج عبدالله مع إخوته على دهش قاصداً أبا مسلم في خراسان، وكان لعبدالله أمل ضعيف جداً في هذه الناحية إذ كان على يقين من طموح أبي مسلم وتوثب نفسه إلى المجد العسكري، واظنه لم يعلم أن أبا مسلم لا يود أن يرى أيه عقبة تحول دون غايته التي تسمو على كل غاية، أعني إرجاع المجد الفارسي بأبهته وجلاله، ولم يعلم عبدالله أن أبا مسلم يستقبله في خراسان ولكن ليلقي القبض عليه ويودعه السجن تحت رقابة صارمة، فيكون قد زحزح عقبة من طريق غايته المثلى، لا بل هناك أكثر من السجن، من الحزم عند أبي مسلم إزالة تلك العقبة لا أن يزحزحها فقط، فكيف السبيل الى ذلك.

وضح الخفاء:

رفع أحد الجواسيس إلى أبي مسلم (تقريراً) جاء فيه أن عبدالله (السجين) يذم أبا مسلم ويرميه بالاستبداد ويحاول أن يفسد عليه أهل خراسان، فيثور أبو مسلم وتقوم قيامته، فيقول: قد أفسد علينا أصحابنا وهو محبوس في أيدينا فلو خرج وملك أمرنا لأهلكنا...

وبعد أيام كان عبدالله بن معاوية ميتاً في سجنه مسموماً، زالت العقبة، طابت نفس أبي مسلم، وأكاد أجزم الآن بأن إشاعات السوء من زندقة وغلظة وكل ما يُرمى به عبدالله من النقائص لم يصدر إلا عن أبي مسلم وشيعته.

ثم حز أبو مسلم رأس عبدالله وبعث به إلى القائد الأموي ابن صبارة! يا عجباً لهذا الولاء الفارسي والإخلاص الخراساني، ومتى حرص الفرس على ملك الأمويين، ومتى كانوا يقدمون للأمويين هدايا من رؤوس أعداء الأمويين؟! لغز لعمر الله أخفى من فارسية أبي مسلم.

ورجع القائد ابن صبارة مرنح الأعطاف بنشوة الظفر، معتزاً بإخماد الثورة، شاكراً لأبي مسلم أياديه في القضاء على الثائر، وأحسب أن أبا مسلم تنفس الصعداء وضحك طويلاً على إثر خروج ابن صبارة وجيشه الكثيف من بلاد فارس.. وأحسبه قال في نفسه: ألا خلا لك الجو يا ابن خراسان فلا إن هاشم دونك ولا جيش مروان...!

أحببتُ عبدالله بن معاوية غيوراً على مصلحة العرب والمسلمين عامة، وأكبرته مغامراً في سبيل نلك المبدأ الأعظم والغاية المثلى، ثم بكيته مهزوماً، قد القى به اليأس في يد ماكر داهية وجبار طاغية يبغض العرب ويعمل على محوهم بالكيد حيناً وبالقوة حيناً آخر.

رحمة الله عليك يا عبدالله، وأما قاتلك الغادر فما هي إلا أن يضرب أبو جعفر المنصور كفاً على كف حتى تهتك الستائر عن سيوف مسلولة تلحق أشلاء أبي مسلم الدامية، بآماله الذاوية.

نابلس

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

****

حيلة أشعبية

بقلم شاعر فلسطين الألمعي الأستاذ إبراهيم طوقان.

تناولوا من صفات أشعب صفة الطمع (أطمع من أشعب) وهي صفة بارزة فيه روي عنها الأعاجيب، ولكن أخباره في الأغاني وما روي عنه من ملازمته لأبان بن عثمان (رضي الله عنه) ومن خدمته لسكينة بنت الحسين (رضي الله عنها) وسواهما، تجعلك تعتقد أن مزية الطمع واحدة من مزايا لا تقل بروزاً في أشعب، ولو ضرب بها المثل فقيل أخف روحاً من أشعب أو أسرع خاطراً أو أوسع حيلة لما تعدت هذه الأمثال الحقيقة والصواب. وتجد كثيراً من نوادر أشعب قائماً على آية قرآنية أو على حديث نبوي أو قول سائر مما يدل على اطلاع وذكاء، ومما يجعل النادرة أبعد ما تكون عن الابتذال وأقرب ما تكون من الذوق الصقيل، والنمط الرفيع! ناهيك بالظرف الحجازي ظرفاً، وبرقة الحجازيين ولطف طباعهم رقة ولطفاً.

من لطائفه:

أُهدِي لأشعب فطيرة بعسل فلما ذاقها وجد العسل فيها قليلاً جداً، فقال: يقسم أشعب يميناً إن لم تكن هذه الفطيرة قد صنعت قبل أن يوحي ربك إلى النحل!

غضب أحدهم على عبد له فألح عليه بالضرب ثم شتم أمه من جملة ما شتمه به، فقابله العبد بشتم أمه وأشعب واقف ينظر ويسمع، فهاج مولى العبد واغتاظ والتفت إلى أشعب فقال: أرأيت أوقح من هذا؟ عبدي ويشتم أمي؟؟ قال أشعب: وهل كانت أمك أم الكتاب وأمه حمالة الحطب!؟

وساوم أشعب على قوس فطلب صاحبها ثمنها ديناراً، فقال أشعب: لو أصاب سهمها الطير في كبد السماء فنزل مشوياً بين رغيفين ما اشتريتها بدينار!.

وفي الأغاني كثير من هذه اللطائف، وما على القارئ إلا أن يرجع إلى أخبار أشعب فيقضي معه وقتاً ساراً طيباً، وإليك حكاية بطلها أشعب ومن أشخاصها السيدة سكينة بنت الحسين، ومغني الحجاز عبيد بن سريج:

المغني يتنسّك:

أصابت ابن سريج المغني علة شديدة فأخذ على نفسه عهداً ألا يغني وتنسك ولزم المسجد الحرام في مكة، ولما عوفي رحل إلى المدينة يجاور قبر النبي عليه الصلاة والسلام مقيماً عند بعض أصدقائه من أهل النسك والقراءة، وكان المغنون يأتونه للسلام عليه فلا يأذن لهم بالجلوس، وأقام على ذلك سنة ثم استعد للرجوع إلى مكة، وبلغ ذلك سكينة بنت الحسين فغمّها الخبر غماً شديداً وضاق به ذرعها.

إذ كيف يقيم سريج ويرحل دون أن تسمع غناءه، وكان أشعب يخدمها وكانت تأنس بمضاحكته ونوادره، فقالت له: ويلك يا أشعب كيف الحيلة في الاستماع إلى ابن سريج ولو صوتاً واحداً؟ فقال لها أشعب: جعلت فداك، وأنّى لك بذلك، الرجل اليوم زاهد ولا حيلة فيه، وتواقح أشعب، فزاد بقوله: ارفعي طمعك وامسحي بوزك وكفاك حلاوة فمك.! غضبت السيدة فأمرت بعض جواريها فجذبن أشعب ووطئن بطنه حتى كادت أمعاؤه أن تخرج، وخنقنه حتى كادت نفسه أن تتلف، ثم أمرت به فسُحب على وجهه وأُخرج من الدار إخراجاً عنيفاً وهو على أسوأ الحالات، واغتمّ وندم على ممازحتها في وقت لا ينبغي له فيه ذلك.

عند ابن سريج:

قصد أشعب المنزل الذي فيه ابن سريج، وكان الوقت ليلاً، فطرق الباب ففتح له فرآه ابن سريج على وجهه ولحيته التراب، ورأى الدم سائلاً من أنفه وجبهته على لحيته، وثيابه ممزقة وبطنه وصدره وحلقه في أسوأ حال من الخنق والدوس، فقال له: ما هذا ويحك؟ فقص عليه القصة، فقال ابن سريج: إنا لله وإنا اليه راجعون، والحمد لله الذي سلم نفسك وإياك أن تعود إليها أبداً! قال أشعب: فديتك، هي مولاتي، ولابد لي من العودة إليها، ولكن هل لك حيلة في أن تذهب إليها وتغنيها فيكون ذلك سبباً لرضاها عني؟ فقال ابن سريج: كلا والله لا يكون ذلك مني أبداً بعد أن تركته. قال أشعب: قد قطعت أملي، ورفعت رزقي وتركتني في المدينة حيران لا يقبلني أحد، وهي ساخطة علي، الله الله في أمري، أنا انشدك الله أن تتحمل في هذا الإثم، وظل أشعب يتضرع إلى ابن سريج، وهذا يأبى عليه حتى انقطع كل رجاء..

حيلة مدهشة:

رأى أشعب إصرار ابن سريج فقال في نفسه: لا حيلة لي وهذا مسافر، وإذا سافر هلكت، فصرخ صرخة سمعها أهل المدينة ونبه الناس من نومهم، ثم سكت فقال له ابن سريج: ويلك، ما هذا؟ فقال: لئن لم تذهب معي إلى سكينة لأصرخنّ صرخة أخرى لا تبقي في المدينة أحداً إلا صار بباب الدار، ثم لأفتحنّه ولأُرِيَنّهم ما بي، ولأقولن لهم إنك فعلت بي ذلك! فقال ابن سريج: اغرب أخزاك الله. قال أشعب: والله الذي لا إله إلا هو، وجعل جزائي جهنم، وجزاء قبر أبي رغال إن أنت يا ابن سريج لم تنهض معي في ليلتي هذه لأفعلن ما قلت لك.

رأى ابن سريج الجد في كلام أشعب، واستحى من صديقه الناسك صاحب المنزل، والتفت إليه يعتذر بقوله: لا أدري ما أقول فيما نزل بنا من هذا الخبيث.. ثم قال لأشعب اخرج من منزل الرجل فأجاب: رجلي مع رجلك، فخرجا معاً إلى دار السيدة سكينة وابن سريج يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، هيا بنا، لا بارك الله فيك.

عند سكينة:

قرع أشعب الباب وأخبر بمجيئه مع ابن سريج، ففُتح لهما ودخلا إلى حجرة خارجة عن الدار حتى أذنت لهما فدخلا إليها. فقالت لابن سريج: يا عبيد ما هذا الجفاء؟ قال: بأبي أنت، قد علمت ما كان مني، ثم قص عليها ما صنع به أشعب فضحكت، ثم قالت: قد أزال غضبي عليه، وأمرت لأشعب بكسوة ودنانير. وبعد حديث ساعة، قال ابن سريج أتأذنين، بأبي أنت؟ فقالت: هيهات، برئت من جدّي إن برحت داري قبل ثلاثة أيام، وبرئت من جدي إن أنت لم تغنّ إن خرجت من داري قبل شهر، وبرئت من جدي إن حنثت في يميني أو قبلت فيك شفاعة أحد! فقال ابن سريج: وا سخنة عيناه، وا ذهاب دنياه، وا فضيحتاه.

ثم اندفع يغني:

استعين الذي بكفّيه نفعي

ورجائي على التي قتلتْني

ولقد كنتُ قد عرفتُ وابصرْ

تُ اموراً لو انها نفعتني

فقالت له سكينة، وقد طربت: وهل عندك يا عبيد من صبر عن هذا الغناء؟ ثم أخرجت دملجاً من ذهب كان في عضدها وزنه أربعون مثقالاً، فرمت به إليه وأقسمت عليه أن يدخله في عضده ففعل ذلك. وظل عندها في أكرم حال وأحسنه حتى كان اليوم الثالث، فغنى:

ارقتُ فلم انم طربا

وبتُ مسهّداً نصبا

لطَيْفِ احبَّ خلقِ الْـ

ـلَه إنساناً وإنْ غضبا

ولم أردْ مقالتَها

ولم اكُ عاتباً عَتَبا

فقالت له: عرضت بالانصراف، وقد اكتفينا، وإنما كان يميني على ثلاثة أيام، فاذهب في حفظ الله وكلاءته، فمضى من ساعته راجعاً إلى مكة.

نابلس

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

****

٢٣ حزيران، ١٩٣٣

الجامعة الإسلامية/ يافا

في زوايا الأغاني

الصديقان العدّوان

بقلم شاعر فلسطين الألمعي صاحب التوقيع.

في حلقة الدرس:

استند الشيخ إلى سارية من ساريات المسجد الجامع في الكوفة، واقبل الشبان من أبواب المسجد المتعددة يسلّمون عليه ثم يجلسون حوله على الأرض في نصف دائرة وعلى غير ترتيب.

وافتتح الشيخ الحلقة باسم الله والصلاة والسلام على نبيه الكريم، ثم أخذ يلقي دروساً في اللغة مستشهداً بأفصح كلام العرب شعراً ونثراً، وقد ينبهه استشهاده إلى خبر من أخبار الجاهلية، أو حادثة مشهورة، فيأخذ الشيخ في سردها على الشبان بلسان ذرب، وفصاحة ساحرة، وصوت له سلطان على سامعيه، ذلك الشيخ هو رؤبة بن العجاج حجة أهل زمانه في لغة العرب، وأوسعهم اطلاعاً على أسرارها وغريبها.

وكان في حلقة رؤبة شاب قصد الكوفة قادماً من الشام رغبة في تلقي اللغة وفنونها، فكنت تراه يدون في دفتره كل شاردة وواردة، ولا يكاد يرفع القلم من الطرس إلا ريثما يستمد من دواة نحاسية متصلة بصندوق صغير مستطيل تحفظ فيه الأقلام، وقد غاب هذا الصندوق في طيات زنار الشاب حتى لم يبد منه غير الدواة... وهناك شاب آخر كوفي، إلى جانب الدمشقي، يقبل بجسمه وسائر حواسه على الشيخ يتلقف كل كلمة يفوه بها معتمداً على ذاكرته، وإنها لذاكرة قوية حقاً، لا يطرقها شيء إلا وعته، وربما أدته بعد أمد طويل كما أُلقي عليها، لا تُنقص منه حرفاً.

وكان الشابان يلتقيان كل يوم في حلقة رؤبة، فنشأت بينهما مودة لم يُعرف مثلها بين اثنين، هي صداقة أيام الدراسة يؤلفها الهدف الواحد، ويوثّق عراها التفاهم الدائم، ويكشف اللقاء المستمر عن نواحي النفسين فيعرّفهما إلى هذه النواحي، فإذا هما لا يطيب لأحدهما عيش بدون الآخر، ولا يقلّ خير على أحدهما إلا ذكر عنده أخاه، ولا يمسه شر إلا اسرع الآخر يشاطره أذاه.

وربما انفردا - قبل الدرس أو بعده - فانتحيا ناحية من المسجد، وأخذا يتناشدان ما نظماه من الشعر، راضين عما جادت به عليهما القريحة من شعر الشباب ونزوات الصبا، ناظرين إلى مستقبلهما المكنون في صدر الزمان بعين ملؤها الأمل والطموح.

شاعران كبيران:

مضت الأيام، وتخبّط الشابان في لجج الحياة السياسية، وإذا بهما كل واحد في حزب، وإذا بهما لسانا حزبيهما المختلفين، وكان عسيراً جداً أن يوفق بين هذه النزعات المتباينة موفِّق، أو أن يجمع بين تلك الغايات المتضاربة جامع، اللهم إلا ما اتفق فيها الحزبان من مناهضة حزب الحكومة، حزب بني أمية.. أما الشاب الأول، الدمشقي، فكان الطرماح بن حكيم أحد فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم، انخرط في حزب الشراة الأزارقة (من الخوارج)، فكان له بمذهبهم أصح اعتقاد وأشده، وظل على ذلك طول الحياة.

وأما الشاب الثاني، الكوفي، فكان الكميت بن زيد صاحب القصائد المعروفة بالهاشميات، وهي أنفس ما قاله شاعر في مدح بني هاشم. وكان الطرماح قحطانياً، والكميت نزارياً، ولم يعرف خلاف وقع بين فريقين، في جاهلية أو إسلام، كان أطول مدى وأشد احتداما من خلاف القحطانية والنزارية، ولا يزال هذا الخلاف له ذكر وأثر في قرى البلاد العربية فيتحدث أحدهم بشيء من الزهو عن انتمائه إلى القيسية أو اليمانية، وكاتب هذه السطور يعلم أنه يماني من جماعة الطرماح.

انظر إلى هذا التناقض في العصبتين والمذهبين، ثم صور لنفسك ما عسى أن يكون موقف الشاعرين - أحدهما من الآخر - حين يقول الأول قصيدة ينصر بها فريقه على

خصومهم، وينبري الثاني فيرد بقصيدة يدافع بها عن حزبه ويظاهرهم في بلوغهم إلى تحقيق غاياتهم الحزبية. لا عجب إذا اصطدم الشاعران الصديقان في هذا المعترك الخطر فانقلبا عدوين لدودين.. ولكن شيئاً من ذلك لم يقع، وعاش الشاعران متفاهمين يفرقان بين الصداقة والخصومة السياسية، عالمين حق العلم أن الصداقة شيء والمبدأ السياسي شيء آخر، لا علاقة لهذا بتلك.

موطن عبرة:

وإن في حياة هذين الشاعرين الكبيرين لموطن عبرة جديراً بالتفكير والاهتمام، وموضعاً للاقتداء لم يقف عليه المشتغلون في القضايا السياسية في مختلف الأقطار العربية عامة، وفي فلسطين خاصة، إذ لا تزال النزعات الحزبية ترتطم بالصداقات القديمة المتينة فتدكها إلى أساسها دكاً، وتنزعها من الصدور انتزاعاً.

وتتعدى الخصومة السياسية حدودها فتتحول من خصومة في مبدأ عام إلى بغضاء شنيعة يظهر أثرها في كل مرافق العيش.. وتمتد يدها الدامية إلى المشاريع الوطنية العامة فتفسدها، وربما ولجت البيوت الهادئة فألقت بذور الفتنة بين أفراد العائلة الواحدة.

ولست في موضع إقامة الدليل تأييداً لما أقول، فبحسب القارئ المنصف أن يفكر فيمن حوله على اختلاف اهوائهم السياسية فيقيم الأدلة الكافية لنفسه، ويرى صدق ما ذهبت إليه، وإنني لأرجو أن نبلغ من التهذيب السياسي في فلسطين ما يجعلنا نفهم معنى الخصومة الحزبية الشريفة، وما يجعلنا نميز بين العلائق السياسية والاجتماعية فلا نسمح للأولى بالنفاذ إلى الثانية، بل نستعين بالثانية على الأولى فنلطِّف بنسيم المودة حرور السياسة، ونتخذ من الألفة والاقتراب وسيلة تفاهم محمود يؤدي إلى النفع الشامل.

عند المهلبي:

وكأنني بالشاعرين يلتقيان فإذا سأل أحدهما رفيقه عن حاله وجده مثله لا يملك من حطام الدنيا إلا الشعر، وكان تجارة رابحة تعود على الشاعر بالخير والبركة، فاتفقا على أن ينظم كل منهما قصيدة في مدح الأمير مخلد بن يزيد المهلبي.

وفعلا ذلك وتوجها إليه، فلما دخلا عليه طلب إلى الطرماح أن ينشده قصيدته وأمره بالوقوف عند الإنشاد، فتأخذ الشاعر عزة وأنفة، ويعلن في إباء أنه لا ينشد قائماً فليس من قدر الشعر أن يقف له، وليس من شرط المديح أن يتزلف إليه الشاعر ببذل كرامته. ويعرض الأمير عن الطرماح ويطلب إلى الكميت أن ينشد قائماً، فيقف ويُنشد، ويُطرب ويُعجب، ويهز أريحية الأمير فيأمر له – وحده طبعاً – بخمسين ألف درهم.

خرج الشاعران فالتفت الكميت إلى صديقه الطرماح وقال له: أنت يا أبا ضبيبة أبعد همة وأنا الطف حيلة، ثم أعطاه خمسة وعشرين ألفاً وانصرفا ينعمان في ظلال المودة ويشقيان في مناقضات السياسة، فيا عجباً للصديقين العدوين.

نابلس

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

****

مقالات نُشرت في
جريدة كوكب الشرق / مصر

١٩٢٩/٣/٥

العلوم والأدب والمعارف العامة

العباس بن الأحنف

للشاعر الأديب السيد إبراهيم طوقان.

أحد منتهي القسم العلمي في الجامعة الأميركية ببيروت.

تمهيد: الشعر أرقى مراتب الأدب، وقد اطلعت على اكثر من تعريف للشعر في الأدب القديم والحديث فلم أجد أجمع ولا أوعى مما سمعته في محاضرة للأستاذ سَمْثَ حيث قال:

«الشعر هو الجمال مقتنصاً أو مجسماً بالألفاظ»، وناهيك بما في هذه العبارة من دقة ومدى واسع حتى إنه ليعييك أن تستبدل لفظة منها بغيرها.

وشاعرنا من شعراء الدولة العباسية، وهم طبقات، وابن الأحنف أحد شعراء الطبقة الأولى الذين عاشوا في الدور العباسي الأول أخصب الأدوار وأغناها بالأدباء والفقهاء والفلاسفة. وهنا تتجلى سيماء الترف والبذخ وخفض العيش، وكان الشعراء في هذا الدور لا يُحصى لهم عدد، وعسير على الشاعر ان يكون فيه ذا شأن ما لم يكن من أولئك الشعراء الذين جمعوا إلى علو كعبهم بالأدب والعلم سُنَّة استنوها لأنفسهم في شعرهم فساروا عليها كأبي نواس في خمرياته، وأبي العتاهية في زهدياته. وشاعرنا ابن الاحنف قد اكتسب شهرته بغزله. ولا يغرب عن الذهن ان التقرب من الخلفاء وذوي النفوذ في الدولة كان له الفضل الأعظم في ظهور الشاعر، إذ إن في مديح هؤلاء رزقه وتقديمه، غير أن التخصص في باب من أبواب الشعر اضمن لخلود الشاعر، وبديهي أن التفرغ لعمل واحد يضع الفكر في دائرة يذهب ويجيء في محيطها المحدود حتى يستخرج كل ما فيها، فمثله كمثل صاحب المنجم الذي وجد معدناً ثميناً في إحدى بقاع الأرض فلزمها بعنايته، فكان غناه فيها، ولو انتقل إلى بقعة ثانية ثم إلى ثالثة، وهو في ذلك لا يتمم عملاً ابتدأ به، لخسر ماله وقنع من الغنيمة بالإياب.

البيئة الاجتماعية في هذا الدور:

وأود أن أبحث فيها من الوجهة الأخلاقية: قُمعت الفتن فهدأ الجو السياسي، وكانت الدولة العباسية مترامية الأطراف تضم العراق برافديه وبلاد فارس والهند والحجاز وسوريا ومصر وجزءاً من بلاد المغرب، وهذه بلاد غنية جداً، فتأمل ضخامة ما كان يدخل خزائن الدولة من الخراج، وكان من جراء ذلك ترف القوم وبذخهم. وبغداد بالأمس كباريس اليوم حتى انهم اشتقوا من اسمها فعلاً لا تزال العامة تطلقه على من يتغطرس في عيشه، فقالوا: فلان «يتبغدد»، وفي بغداد الحانات والقيان وجميع أسباب الملاهي والملذات، فإذا لم تكن هذه البيئة فاسدة فإن فيها مجالاً لفساد الأخلاق.

الآن وقد ذكّرتك ببعض مظاهر هذا الدور فسأجمعك بالعباس بن الأحنف وأقدمه إليك (كما قدمه صاحب الأغاني) شاعراً غزلاً، شريفاً، مطبوعاً، له مذهب حسن ولديباجة شعره رونق، ولمعانيه عذوبة ولطف. على أن هذا التعريف لم يزدك بالشاعر علماً وأراك تقول لي: هذه صفات الكثيرين من معاصريه وجلّهم مطبوع، شريف. كما قال أبو الفرج في ابن الاحنف: حسن المذهب عذب المعاني لطيفها. نعم، ولكن العباس لم يتجاوز الغزل إلى مديح أو هجاء، وهذه ميزة غريبة لا تجدها في شاعر عاش بين قوم يتنافسون في المديح طمعاً بالنوال الجزيل، ويضرمون نار الفتنة والحقد بين العدنانية والقحطانية بفخرهم وهجوهم. وهناك ميزة أخرى اشد غرابة من تلك، فابن الأحنف لم يُروَ عنه أنه متقلب الفؤاد في حبه، فهو كشعراء بني عذرة من حيث الثبات على حب واحد، فيه انفد دموعه، وعليه أسهر أجفانه، وإليه تعسّف المشاق وتجشّم المصاعب، وعليه وقف نفثات صدره وشاعريته، على حين انك تجد معاصريه كأبي نواس وصريع الغواني و(تأمل هذا اللقب ملياً) ومطيع بن إياس، وابن الضحاك (الخليع) وغيرهم كل أولئك لا همّ لهم في حبهم إلا الانهماك بالملذات وإرضاء الشهوات، وذلك لما أسلفناه من القول عن هذا العصر وهو توفر الأسباب الداعية إلى العبث والمجون، ولو لم يكن من نفس شاعرنا زاجر له، ولولا قوة في خلقه لساقه هذا التيار الجارف إلى التخلّق بأخلاق أولئك الشعراء، وقد كان له فوق ذلك شاغل من حبه عن كل ما حوله.

شعر العباس هادئ يصور لك روح صاحبه، وإنك لتقرأ أشعار غيره فتسمع ضوضاء وجلبة، كأنما أسواق بغداد ومجالسها قد انتقلت بما فيها إلى دواوينهم وأخبارهم. ففي شعر أبي نواس مثلاً قيل وقال، وغدو ورواح، وعزف وقيان وكؤوس وندمان، وجملة القول فشعرهم حياة كاملة المعدات والأسباب، ولا ريب في أن شعر هؤلاء مرآة للعصر ينعكس عليها حسنه وقبيحه في ذلك على الهدوء في تفكير شاعرنا بدليل هدوء شعره، وعلى ميله إلى العزلة بحجة خلو ديوانه من ذكر أي شيء سوى حبه، وما يتعلق به.

أخرجنا العباس بن الأحنف من رهطه بعد أن قابلناه بهم فلندرسه على حدة، قال:

يا فوزُ يا منيةَ عبّاسِ
قلبي يفدّي قلبَكِ القاسي

وهذا بيت ورد في صدره اسم الشاعر مقروناً باسم حبيبته التي أوحت إليه الشعر وجعلته معدوداً بين الشعراء، وفي عجزه أنةٌ أليمة صدرت في شكوى قلب قاس عن قلب رقيق يفتدي تلك القسوة! ومن عسى أن تكون فوز؟ لقد كلف الشاعر بتعريف الناس إليها فقال:

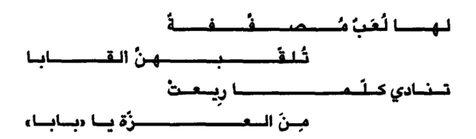
يا من يُسائل عن فوزٍ وصورتها
إن كنتَ لم ترها فانظرْ إلى القمر

ولعل ابن الأحنف آنس شيئاً من السخرية بحبيبته من هذه الصورة المبتذلة فتفجرت شاعريته عاطفة وألماً، فأردف البيت بقوله:

كأنما كان في الفردوس مسكنُها
فجاءتِ الناسَ بالآيات والعِبَرِ

وكان العباس قد وصفها وهي لا تزال طفلة لعوباً فقال:

وكانت جارةً للحُو
رِ في الفردوس احقابا
فأمستْ وهْي في الدنيا
وما تألف اترابا



لهـــا لُعَبٌ مُـــصـــفْـــفـــةٌ
تُـلـقّـــبـــهـنّ الـقـــابـا
تــنــادي كــلّــمـــــا ريـعـتْ
مِـنَ الــعـــــزّة يـا «بـابـا»

وهذه كما ترى أبيات ساذجة تزيد في جمالها مناسبة المقام. ورأيت بعض ناقديه يؤاخذونه على هذه الأبيات ويرمونه بالسخف ولو أنصفوه لوجدوا له في موقف القول عذراً.

ومن وصفه لها:

كلّ ارضٍ حللْتِ فــيــهـا فــمــا يَحْـ
ـتـاج سكّانُهــا إلى مــصــبــاحِ

وقد كلف الشاعر بهذا المعنى فصاغه مرة ثانية في قوله:

مــا ضـرَّ قــومــاً وطئْتِ اليــومَ ارضَــهمُ
الا يرَوْا ضـــوءَ شـــمسٍ اخـــرَ الابدِ

هكذا يرى ابن الأحنف حبيبته شمساً وقمراً ومصباحاً، وهي لم تكن غير جارية من بنات حواء لمحمد بن منصور، ثم اشتراها أحد شباب البرامكة. وعلقها العباس وشغفت هي به حباً، وعطفت عليه وكان قانعاً بالنظر إلى جمال وجهها والتحدث إليها، فهو كما وصف نفسه، وفي قوله نكتة لطيفة:

لا يُضــمِــر الســوءَ إن طال الجلوسُ بهِ
عفُّ الضـــمــيــرِ ولكنْ فــاسقُ النظرِ

وكان بينه وبينها رسائل ومواعيد ولقاء، ولم يخل الأمر من تيه ودلّ من جانب الفتاة كانا يدفعانها أحياناً إلى الإعراض عنه، وإقبالها على غيره، فتضرم أشواقه وتهيج بلابل صدره فيتدفق بالشعر، وما شعره غير زفرات متقدة ودموع تترقرق في أثنائها حكمة بالغة أو تعزية حسنة ينطقه بها ما يُكابده من الم الصدّ وحرقة الجوى، وما ابتلاه من حالات العاشق النفسية، وإليك بعض الأمثلة: فمن حكمه قوله لها في ساعة إعراض:

اســـــاتُ إذ احـــــــسنتُ ظنّي بكم
والحــــزمُ ســـــوءُ الظنّ بالناسِ

ومثل ذلك:

كـــيف احـــتـــراسي من عـــدوي إذا
كـــان عـــدوّي بين اضـــلاعي

وقوله:

وإن الودُ ليس يكاد يُبــــــقي
إذا كـــثـــر التـــجنّي والعـــتـــابُ

ومن وعظه قوله:

راجعْ احـــبّـــتَكَ الذين هَجـــرتَهم
إن المتـــيّمَ قلّمـــا يتـــجنّبُ
إن التـــجنّبَ إن تمكّنَ منكمـــا
دبّ السلوُ له فـــعَـــزّ المطلب

وعزّى العباس من ابتلاهم الله بمثل بلواه، فقال يؤاسيهم ويدعو لهم:

ارى البينَ يشكوه المحـــبّـــون كلُّهم
فـــيـــا ربِّ قـــرِّبْ دارَ كلِّ حـــبـــيبِ

وما اصدق ما عرّف به الحب وكيف يتدرج إلى قلوب المحبين:

الحبُ اولُ مـــا يكون إجـــابةً
تاتي به وتســـوقـــه الاقـــدارُ
حـــتى إذا اقـــتـــحم الفـــتى لججَ الهوى
جـــاءت امـــورٌ لا تطاق كـــبـــار

وقد تضطر الحال فوزاً إلى التظاهر بالهجر هرباً من قيل الناس وقالهم، فيرى أن فوزاً قد عنفته وهجرته فيستشيط غضباً لعدم إدراكها نيته، ويصرخ بها ضارعاً:

اللـهُ يعلم مـــا أردتُ بهــجـــركم

إلا مــصـــانعـــةَ العـــدوِّ الكاشحِ

وعلمتُ أن تَبــاعــدي وتَســتُّــري

اوفـى لـوصـلكِ مـن دنـوٍّ فـــاضـح

يسرد لها واقعة الحال ويعللها فيقول:

ســمَّــاك لي قـــومٌ وقـــالوا إنـهـــا

لـهيَ الـتي تَشــقى بهـــا وتُكابد

فـجـحــدتُهمْ ليكونَ غـــيـرُكِ ظنُّهم

إني لـيُــعـجـبني المحبُّ الجـاحـد

وما أدري ما وقاحه إحدى النسوة وما غرضها من تعذيب أبي الفضل، فهلا رحمته لما فيه حتى زادت في بلواه، أصغِ إليه يحدثك هو بما فعلت به تلك المرأة:

مـا ينقـضي عـجـبي من جـهل حـاسدةٍ

كـانت بذي الأثْلِ من خِـدْني وانـصـاري

سـمَّتْ وليـدتَهـا فَـوْزاً مُـغـايظةً

عُـذِرْتُ لـو لطمَـتْني ذاتُ إسْـــوارِ

ومـــا يزال نســاءٌ من قـــرابتـــهـــا

من كلّ نـاحـيـةٍ يهـتكنَ اسـتـاري

وعِلْم هذا الشاعر بحالات النفس ووصفه لها أغرب ما في شعره، والغرابة ليست في ملاحظة تلك الحالات بل في التعبير البسيط عنها، وهذه بعض الأمثلة:

راتْ رغـــبـــةً مـني فـــابدتْ زهادةً

الا رُبَّ مـــحــــرومٍ من الـنـاس راغبِ

اريد لأدعــو غـــيـرَها فـيـجـرّني

لسـاني إليـهـا باسـمـهـا كـالمغـالب

وقوله:

مــا اســمجَ النــاسَ في عــيـنـي واقــبـحَــهـم

إذا نـظـرتُ فلـم أُبـصــــــركِ فـي الـنــاسِ

وقوله:

لـو كـنـتِ عـــــاتـبــــةً لـسكّنَ روعـــــتـي

امـلـي رضـــــاكِ وزرتُ غـــيـــرَ مُــــراقَـبِ

لـكـنْ مـلـلـتِ فـلـم تـكـن لـي حــــــــيـلـةٌ

صَـــدُّ الملولِ خـــــلافُ صـــدِّ الـعـــــاتـب

ومن ذلك أيضاً:

أُجـــرّب بـالـهــــجــــران نـفـــسـي لـعـلـهـــا

تـفـــيـق فـــيـــزداد الـهـــوى حـين اهـجـــرُ

ومــا عــرضتْ لـي نظرةٌ مــذ عـرفـتُـهـــا

فـــــــانـظـر إلا مُــــــــثِّلَتْ حـين انـظـر

هُمُ كـــتــمــوني ســـرَّهم حـين ازمــعــوا

وقــــــالـوا اتّـعـــــــدنـا لـلـرواح وبكّـروا

وفي البيت الأخير ما لا الوم فيه أبا الفضل لو ذهب عقله من خديعة فوز له، وما اذكره في هذا المقام ما كانت تفعله بي والدتي أيام طفولتي حين كنت الح عليها بمرافقتها إلى من تزور من العائلات، فقد تتخلص مني بكتمان موعد زيارتها الصحيح وما هي إلا أن أراها قد قضت زيارتها وعادت فأستشيط غضباً وحنقاً. وجلست إليها مرة في هذا الصيف وذكّرتها بما كانت تصنعه بي، فتبسّمت فقلت لها ما كان أشبهك بسميتك واشبهني بزميلي حين شكا ذلك منها بقوله:

هُمُ كـــتــمــوني ســـرَّهم حـين ازمــعــوا

وقــــــالـوا اتّـعـــــــدنـا لـلـرواح وبكّـروا

ولنختم القول عن العباس بن الأحنف بشهادات فحول الأدب فيه، فمنهم الأصمعي فقد كان على تقززه من شعر المحدثين يقول: ما حفظت للمحدثين أحسن من قول ابن الأحنف:

لو كنتِ عاتبةً لسكّنَ روعتي
أملي رضاكِ وزرتُ غيرَ مراقبِ
لكنْ صددتِ فلم تكن لي حيلةٌ
صَدُّ الملولِ خلافُ صدِّ العاتب

ومنهم الموصلي صاحب المثل السائر، وناهيك بذوقه السليم في الأدب قال: «كان العباس بن الأحنف من أوائل الشعراء المجيدين، وشعره كممر النسيم على عذبات أغصان، وكلؤلؤات طلٍّ على طرر ريحان، وليس فيه لفظة واحدة غريبة تحتاج إلى استخراجها من كتب اللغة» ثم يستشهد بالأبيات التي مطلعها: «يا فوزُ يا منيةَ عباس» ويصفها بقوله:

«وهل أعذب من هذه الأبيات وأعلق بالخاطر وأسرى في السمع؟ ولمثلها تخف رواجح الأوزان، وعلى مثلها تسهر الأجفان، ودون مثلها تتأخر السوابق عند الرهان».

هذا جلّ ما وفقت إليه من البحث عن حياة هذه الروح المعذبة، تلك الروح التي عرجت في المساء تشكو غربتها وآلامها إلى الله صارخة:

يا بعيدَ الدار عن وطنِهْ
مُفْرَداً يبكي على شجنِهْ
كلما جدَّ الرحيلُ بهِ
دبَّتِ الأسقامُ في بدنه
ولقد زاد الفؤادَ شَجاً
طائرٌ يبكي على فَنَنه
شفَّه ما شفَّني فبكى
كلُّنا يبكي على وطنه

وتوفي ابن الاحنف عام ١٩٢هـ ببغداد وقيل عام ١٨٨، وكان له من العمر ٦٠ سنة، وهو خال إبراهيم بن العباس الصولي أحد الشعراء المجيدين، ولإبراهيم أبيات مشهورة سائرة منها:

ولربَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى
نرْعاً وعند اللهِ منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمتْ حلقاتُها
فُرِجَتْ وكنتُ اظنّها لا تُفْرَجِ

وله ايضاً:

إن الكرامَ إذا ما ايسروا ذكروا
من كان يالفهم في المنزل الخشنِ

****

ديك الجن الحمصي ومأساته

نقد وتحليل:

«حذار يا سيدي، إياك والغيرة فإنها ذلك الوحش ذو العين الخضراء الذي يسخر من فريسته التي تغذيه». شكسبير: عطيل: فصل ٣ ومشهد ٣:

لكَ نفسٌ مُؤاتيه
والمنايا مُعاديه
ايها القلبُ لا تَعُد
لهوى البِيض ثانيه
ليس برقٌ يكون اخْ
لَبَ من برق غانيه
خُنْتِ سري ولم اخُنْ
كِ فموتي علانيه

حكمة بالغة، وموعظة حسنة، أملتهما التجربة على الشاعر، وأوحت إليه بهما الغيرة الأثيمة، لا بل إن في هذه الأبيات لمأساة تامة على إيجازها، وإنها لعاطفة ثائرة جبارة، عاطفة اليأس التي طوحت بقلب صاحبها فجعلت من نوره ظلاماً، ومن ابتساماته دموعاً، ذلك هو الشاعر المسكين (عبدالسلام بن رغبان) المعروف بديك الجن الحمصي.

روى صاحب الأغاني أن ديك الجن: «شاعر مجيد من شعراء العباسيين وكان من ساكني حمص، ولم يبرح نواحي الشام ولا وفد العراق، ولا إلى غيره متصدياً لأحد، ولا منتفعاً بشعره... وكانت له جارية يهواها فاتهمها بغلام فقتلها ثم استنفد شعره في مرثيها». وروى ابن أخ لديك الجن قال: «كان عمي خليعاً ماجناً منعكفاً على القصف

واللهو، متلافاً لما ورث عن آبائه، واكتسب بشعره من أحمد وجعفر ابني علي الهاشميين، وكان له ابن عم يكنى بأبي الطيب يعظه وينهاه عما يفعله، ويحول بينه وبين ما يؤثره ويركبه من لذاته، وربما هجم عليه وعنده قوم من السفهاء والمجّان فيستخفّ به وبهم».

ونحصر بحثنا في هاتين الروايتين، بعد أن نمهد لأنفسنا السبيل بكلمة عن الحياة الأدبية في عصر ديك الجن. أما هذا العصر فهو عصر أبي نواس ورهطه من فحول الشعراء، وكان المديح فيه من أهم أغراض الشعر، يتنافس فيه الخلفاء والأمراء ويتبارى فيه الشعراء، بل كانوا يتكبدون السفر والغربة في سبيل التقرب من والٍ كريم نافذ يستدرّون جوده، ويستظلون بجناح حمايته، ويستمدونه على مناوئيهم، وقد يأنس الممدوح بالشاعر ظرفاً وبديهة فيلحقه بندمائه وخاصته، أو علما ورأياً فيرفع من شأنه بمنصب.

إلا أن وراء هذه الفوائد المادية فائدة لعلها عند بعضهم الغاية القصوى التي يرمي إلى بلوغها، تلك هي الشهرة، وحبها غريزي في الإنسان، ولن تجد فرداً انعم الله عليه بفضل إلا وأحسَّ بدافع داخلي يدفعه إلى إظهاره والتنويه به، ليُعرف عنه، والشهرة، على ما فيها من احتمال المكروه حيناً والتضحية حيناً، لم تزل من ألذ الغايات المنشودة، وإن هي إلا نتيجة حب الخلود وتعلل الإنسان ببقاء أثره (على الأقل) لما كان على يقين من الفناء.

اتسع ميدان الشهرة في ذلك العصر للشعراء، فهم بتهافتهم زرافات على أبواب ذوي الشأن يتعرف بعضهم إلى بعض، ويتطارحون فنون الأدب، ناهيك بما يتخلل هذه المطارحات من مُلَح ونوادر وأخبار ووقائع تتناولها العامة والخاصة فتطير عنهم في الآفاق.

نكتفي بهذا المقدار ونعود إلى ديك الجن، وما نقلناه عنه من الأخبار في صدر المقال، فنجد نقاطا أربعاً نعوّل عليها في البحث:

١ - التكسب بالشعر.

٢ - الانهماك في الملذات.

٣ - بقاؤه في نواحي الشام.

٤ - حادثته الغرامية، وسمّها إذا شئت مشكلته العائلية.

وهذه نقاط يتفق الشاعر في أولاها والثانية مع معاصريه، ويختلف عنهم في الثالثة والرابعة، ولا أزعم أن اتفاق الشاعر واختلافه موقوفان عليه، ولكن هذه القسمة محمولة على مقدار أن تلك النقاط في حياته مما يفرده عن باقي الشعراء.

اما تكسبه في الشعر، وانهماكه في الملذات فلم يكونا اظهر ما فيه فيعرف بهما، فمديحه عادي ولا يخوله التفوق على اقرانه، لا بل لم يكن فيه من التفنن مثل ما نعرف لأبي نواس، وصريع الغواني، ولا من الحضرية العباسية ما يُجريه على الألسن، قال يعزي جعفر الهاشمي ويمدحه:

نغفل والايامُ لا تغفلُ
ولا لنا من زمنٍ مَوئلُ
والدهرُ لا يسلم من صرفهِ
اعصمُ في القُنَّة مُستوعِل
كانه بين شناظيرها
بارقةُ تكمن او تَمثُل
ولا حَبابٌ صلتانُ السُّرى
ارقمُ لا يعرف ما يجهل
نضناضُ فيفاءَ يرى انهُ
بالرمل غسانٍ وهو المرمِل
يطلب من فاجئةٍ مَعقلاً
وهو لما يطلب لا يعقل
والدهرُ لا يسلم من صرفهِ
مُسربَلٌ بالسرد مُستبسِل

ويذهب في تكرار (والدهر لا يسلم) على نحو ما ذهب ابو ذؤيب الهذلي في تكرار (والدهر لا يبقى على حدثانه)، في عينيته المشهورة حتى يقول لممدوحه:

انتَ ابا العباسِ عبّاسُها
إذا استطار الحدثُ المعضل
وانتَ علاّمُ غُيوبِ الثنا
يوماً إذا تُسال او تُسئِل

(هذا وليس في خلاعة الرجل ومجونه ما يضعه في صف مطيع بن إياس وابن الضحاك الخليع وأبي نواس، فلدينا من شعره في هذا الباب مالا نعتبره شيئاً ينكر بالنسبة إلى مجون هؤلاء فلا المجون ديدنه، ولا الخلاعة ملهاته)، ولكن قُيّض له ابن عمه ابو الطيب الذي كان يباغته في أوقات سروره مع أصحابه «ليستخف به وبهم» وليعمل من حبته قبة، وإن ابن عم كهذا يورطه في مشكلة عائلية، ويكون سبباً في اندفاعه إلى جناية كبرى - كما سنرى - ليهون عليه أن يبسط لسانه في تشويه سمعته وتضخيم نقائصه.

ومن هنا نخرج إلى نقطتي الاختلاف، أي بقاؤه في وطنه، ومشكلته العائلية، والأولى، فيما نرى، نتيجة الثانية، وإليك الحادثة باختصار:

اشتهر ديك الجن بجارية من أهل حمص اسمها ورد ذهبت به، وكانت نصرانية فدعاها إلى الإسلام ليتزوج بها فأجابته لعلمها برغبته فيها، وأسلمت على يده فتزوجها. ثم رحل إلى الهاشميين وأقام مدة طويلة يمدحهم، وكان ابن عمه يبغضه فأخذ يشيع الإشاعات الشائنة على ورد حتى بلغ ديك الجن فاستأذن في الرجوع إلى حمص بقصيدة يمدح فيها أحمد الهاشمي ويعلمه بخبر المرأة، منها:

إن ريبَ الزمانِ طال انتكاثُهْ
كم رمتني بحادثٍ احداثُهْ
ظبيُ أُنْسٍ قلبي مَقيل ضحاهُ
وفؤادي بَريره وكَباثه
خيفةً ان يخونَ عهدي وان يُضحـ
حِي لغيري حُجوله ورِعاثه

وعاد الى حمص ففر ابن عمه بعد أن أرصد له قوماً يعنفونه على تمسكه بهذه المرأة الفاسدة.. ولم يكتف بذلك بل دسّ إلى ديك الجن رجلاً رضي لنفسه أن يكون المهتم بالمرأة، وأوعز إليه أن يقوم بعمل افظع مما ذكرنا، وهو أن ينتظر حتى يرى الشاعر قد دخل منزله ثم يطرق الباب كأنه لم يعلم بقدومه وينادي باسم ورد فإذا قيل: من؟ أجاب أنا فلان، فيتصل طرفا المكيدة. نزل عبدالسلام (ديك الجن) منزله وألقى ثيابه ثم أخذ يسأل زوجته عن الخبر ويغلظ عليها وهي تجيبه جواب من لم يعرف من القصة شيئاً، ويُقرع الباب فتقول: من هذا، فيقول الطارق: أنا فلان، فخيل لديك الجن أن الخبر صحيح وأن الطارق عشيقها، فاخترط سيفه وأهوى به عليها حتى قتلها.

ها هو ديك الجن في غيرة عطيل وابن عمه في مكر إياجو، وورد في براءة دزدمونا، أشخاص شكسبير البارزين في (رواية عطيل).

ويلغه الخبر بعد حين على صحته واستيقنه، فندم ومكث شهراً لا يستفيق من البكاء ولا يطعم من الطعام إلا ما يقيم به رمقه.

نقف قليلاً عند هذه المأساة الدامية، ونعود إلى نقطة بقائه في وطنه فنقول: ربما كان الشاعر قبل هذه الحادثة يتشوق إلى الرحيل عن الشام ليلتحق بشعراء العراق وأمرائها، فهو يمهد السبيل لنفسه عند الهاشميين إلى أن يشتهر أمره ويرتفع شأنه، إلا أنه في هذه الآونة أصيب بما أصيب به فانقلب نظام حياته، وتقطع نياط آماله فكان ذلك سبباً من أهم الأسباب التي قعدت به عن براح وطنه.

ها نحن الآن أمام شاعر مسكين تفترسه ذكريات الماضي، أيام كان واسع الآمال، ناعم البال تبتسم في وجهه دنيا الهوى، فيقبل عليها منشداً:

انظرْ إلى شمس القصور وبدرها
وإلى خُزاماها وبهجة زهرها
لم تبكِ عينُكَ ابيضاً في اسودٍ
جمع الجمالَ كوجهها في شَعرها

وردِيّةُ الوَجَنات، يُختَبر اسمُها

من طيبها، من لا يحيط بخُبْرها

وتمايلتْ فضحكتُ من أردافها

عجباً ولكني بكيتُ لخَصرها

تسقيكَ كاسَ مُدامةٍ من كفّها

ورديّةٍ، ومُدامةٍ من ثَغرها

وفيها أيضاً أبياته المشهورة باستعاراتها:

لما نظرتِ إليّ عن حَدَق المها

وبسمتِ عن مُتفتِّح النُّوّارِ

وعقدتِ بين قضيبِ بانٍ أهيفٍ

وكثيبِ رملٍ عُقدةَ الزنّار

عفّرتُ وجهي في الثرى لكِ طائعاً

وعزمتُ فيكِ على دخول النار

لم يدر – رحمه الله – أنه سيعفر وجهه في الثرى حقيقة لا مجازاً، ولم يدر في خلده يوماً أن سيكون في حالة هي أشد عليه من دخول النار، حتى طلع علينا بمأساته فصولاً، أولها الغيرة فالجريمة وآخرها الندامة واليأس.

وانظر إلى ما يقوله فيها على إثر الجناية:

ليتني لم أكن لعطفكِ نلتُ

وإلى ذلك الوصالِ وصلتُ

قال ذو الجهلِ قد حلمْتَ ولا أعْـ

ـلَمُ أني حلمتُ حتى جهلت

لائمٌ لي بجهله ولماذا

أنا وحدي أحببتُ ثم قتلت

سوف آسى طولَ الحياةِ وأبكيـ

ـكِ على ما فعلتِ لا ما فعلت

هكذا يبرر الشاعر عمله ولا يزال يبرره، فبينا هو في سورة الغضب يحدثك بما صنع وأنه على حق من صنيعه، لا يملك نفسه من الحنين إلى ما كان فيه من الهناء، ويصور ذلك الموقف الرهيب الذي لم يكن لينزع من فؤاده عاطفة الهوى والرأفة فيقول:

يا طلعةً طلع الحِمامُ عليها
وجنى لها ثمرَ الردى بيديْها
روَيتُ من دمها الثرى ولطالما
روّى الهوى شفتيَّ من شفتيها
قد بات سيفي في مجال وِشاحها
ومدامعي تجري على خَدّيها
فَوَحقِّ نعليها وما وطئ الثرى
شيءٌ اعزُّ لديَّ من نعليها
ما كان قتليها لأني لم اكنْ
ابكي إذا وقع الغبارُ عليها
لكنْ ضننتُ على العيون بحُسنها
وانفتُ من نظر الحسودِ إليها

ومثل هذا قوله:

اشفقتُ ان يردَ الزمانُ بغدرهِ
او أُبتلَى بعد الوصال بهجرهِ
قمرٌ انا استخرجتُه من دُجْنةٍ
لبليّتي وجلوتُه من خِدره
فقتلتُه وبه عليَّ كرامةٌ
ملء الحشى وله الفؤادُ بأسره

وما أمرّ تلك الذكرى حين قال: (قمر أنا استخرجته من دجنة)، وما الطف تلميحه فيه إلى ذلك العهد الذي كان يدعوها فيه إلى الإسلام وما تم له ذلك حتى جلاها عروساً لنفسه.

خمدت نار الغيرة، وأخذ يشعر بجرمه وأيقن ألا مرد لما فقد، فحق له أن يقول:

عــهــدي به مَــيْــتــاً كــاحــسن نائمٍ
والحــزنُ يســفح عــبــرتي في نحــرِهِ
لو كــان يدري الـمَــيْتُ مــاذا بعــده
بالحيّ حلّ، بكى لـه في قــبــره
غُــصصٌ تكاد تغــيظ منهــا نفــسُــهُ
وتكاد تُــخـــرج قلبَـــه من صـــدره

ومما يقوله حين بلغه الخبر على وجهه الصحيح وأنها بريئة:

ويعـــذلني الســفــيــهُ على بكائي
كــاني مــبــتليّ بالحــزن وحــدي
يقــول قَــتَلــتَــهــا سَــفَــهــاً وجــهــلاً
وتبكيــــهـــا بكاءً ليس يُجــدي
كــصــيّــادِ الطيــور له انتــحــابٌ
عليـــهـــا وهو يذبحـــهـــا بحــدِّ

وفي هذا يقول:

بابي نبـــذتُكِ بالعـــراء المقْـــفـــرِ
وســتــرتُ وجــهكِ بالتــراب الأعــفــرِ
بابي بذلتُكِ، بعـــد صَـــوْنٍ للبِلى
ورجــعتُ عنكِ صــبــرتُ أو لم أصــبــر
لو كنتُ أقــــدر أن أرى أثرَ البِلى
لتــركتُ وجــهكِ ضــاحــيــاً لم يُقــبــر

ومر بديك الجن ذلك الدور الذي يحدثنا به علماء النفس وهو دور الأحلام، فيقولون أنها خيالات أماني يكلف بها المرء فلا تبرح حتى يصورها له عقله الباطن في رقاده.

قال ديك الجن:

جــاءت تزور فِــراشي بعــد مــا قُــبِــرتْ
فظلتُ ألثم نَحْــراً زانه الجِــيْــدُ

فـقلتُ: قُـرّةَ عـيني، قـد بُعـثـتِ لنا
فكيف ذا وطريقُ القـبـرِ مـسـدود
قـالت: هنـاك عظامي فـيـه مُـودَعـةٌ
تعـيث فـيـهـا بناتُ الأرضِ والدود
وهـذه الـروحُ قـد جـاءتـكَ زائـرةً
هذي زيارةُ مَن في القـبـر ملحـود

وظل هذا البائس يهذي بورد وما جنى به عليها حتى أعياه الأمر، ونظر إلى الدنيا فرآها غادرة، وإلى مسراتها فرآها زائلة، فرجع إلى الله الذي لا يبقى سواه ولا مرجع إلا إليه عند انقطاع الرجاء، فقال:

مـا لامـرئٍ بيـد الدهرِ الخـؤون يدُ
ولا عـلـى جَـلَـد الـدنـيـا لـه جـلَـدُ
طوبى لأحـبـاب أقـوامٍ، أصـابهُمُ
من قبل أن عشقوا موتٌ فقد سعدوا
وحـقُّـهـم أنه حـقٌّ أضـنّ بـهِ
لا يُنْفِـدَنَّ لهم دمـعي إذا نفـدوا
يا دهـرُ إنـكَ مَـسـقِـيٌّ بكاسـهِمُ
ووارِدٌ ذلـك الحـوضَ الـذي وردوا
والخَلْقُ مـاضـون والأيامُ تتـبـعـهـم
تفنى ولم يبقَ إلا الواحـدُ الصـمـد

إبراهيم طوقان

****

مقالات نُشرت في جريدة الأضاحي

ك ١، سنة ١٩٢٨

الأضاحي - دمشق

محمد بن أبي عيينة

الأغاني كتاب ضخم قيم جمع بين دفتيه أخبار العرب وأشعارهم في مختلف العصور، وأتى على نوادر ملوكهم وأمرائهم وسوقتهم وشذّاذ الآفاق منهم، وإذا صحت رواية ابن خلكان فقد حق للصاحب بن عباد عندما وصل إليه كتاب الأغاني أن يستغني عن ثلاثين حمْلاً كان يوقرها بكتب أدب ليستصحبها في أسفاره وتنقلاته، إذ التهم الكتاب ما أجمل القوم قبله وما فصّلوه عن العرب، ولم يدع قولاً لقائل بعده فيما اشتمل عليه.

وبعد فقد كلفت بمطالعة الأغاني كلفاً شديداً ، ولا أزال أجد في قراءته لذة تتجدد كلما أدمت النظر فيه، ولعلها لذة الاكتشاف، أو لذة معرفة الكل بعد الوقوف على البعض.

أقول ذلك لأن في زوايا الأغاني شعراء فحولاً كنت أجهلهم أولا أعرف عنهم إلا النزر اليسير، هنالك شعر نتمثل به ونغنيه ولا يخطر لنا يوماً أن نتساءل عن قائله، فوقعت على بعض الشعراء وظفرت بمصادر قسم من هذا الشعر.

ومن شعراء الأغاني الغامضين محمد بن أبي عيينة، وكان عهدي به أن قرأت أبياتاً من الشعر في أمالي الشريف المرتضى، وكان ذلك منذ سبع سنين لا أذكر إلا أن قائلها هو أحد أولاد المهلب بن أبي صفرة، وأعجبت يومئذ بالأبيات فحفظتها، ثم سمعت أبياتاً غيرها تُغنّى على إحدى أسطوانات الفوتوغراف أولها:

ضيَّعتِ عهدَ فتىً لعهدكِ حافظٌ

في حفظه عجبٌ وفي تضييعكِ

فنقلتها وحفظتها، ثم اتفق أن شهدت حفلة غنائية أقامها مغنّ مصري شهير فسمعت أبياتاً أولها:

الا في ســـبـــيل الله مـــا حلَّ بي منكِ
وصـبْـرُكِ عني حـيث لا صـبـرَ لي عنكِ

فاستخفني الطرب وأوعزت لمن حولي من الأصدقاء أن يستعيدوا المغني لأتمكن من كتابتها فتم لي ذلك.

مضت أعوام خمسة وأنا أذكر الأبيات وأتلوها معجباً بها، ولا أعلم من قالها حتى إذا كنت العام الماضي في حيفا ومعي احد مجلدات الأغاني - ولا يطيب لي سفر طويل أو قصير بدونها - وقعت على أخبار محمد بن أبي عيينة فإذا انا امام احد أولاد المهلب بن ابي صفرة، وإذا هو صاحب الشعر العذب الذي سمعته وحفظته.

لا إخال أن احدًا ينكر ما في هذا الاكتشاف من اللذة، ويمكنك أن تصور لنفسك بأي لهفة اقبلت على مطالعة هذا الشاعر القديم الجديد!! وقد قرات أخباره مراراً حتى تمكنت من الدنو إلى روحه والفته إلفة أرجو أن تخولني لأبدي رأياً فيه.

قال أبو الفرج: «هو شاعر مطبوع، ظريف غَزِل هجّاء»، وحكم ابي الفرج لا يُدفع، إلا انني أريد أن احلل شخصية هذا الشاعر بطريقة علمية (إذا سمح لي انصارها بهذا التطفل) مستنداً قبل ذلك إلى بعض الحقائق التاريخية - كما يفعلون - ثم أدلي برأيي وأبحث فيما أدى اليه:

كان ابن ابي عيينة من الطبقة الأرستقراطية العريقة في المجد، يدلنا على ذلك نسبه المدروج في أخباره، وننتظر أن يتجلى لنا شيء من هذه الروح في شعره، ولا ريب في أنها كانت ذات أثر في أخلاقه فقد كان أبياً لا يقر على الضيم ولا يستكين إلى الإهانة، وتراه إذا وقع عليه شيء من ذلك شكاه شكوى السيد العزيز لا العبد الذليل، وأجدر بمن كان جده قائداً شهيراً وغازياً فاتحاً كالمهلب بن ابي صفرة أن يفتخر، واخلق به أن يتيه. وعاش الشاعر في عصر الدولة العباسية الزاهر عصر أبي نواس وابن الأحنف ومسلم بن الوليد ودعبل الخزاعي، وكلهم مقدم، ولعلهم سر غموضه، وذكر صاحب الأغاني بعض أفراد اسرته، وكلهم إما شاعر وإما راوية.. هنا ندع الحقائق التاريخية وندلي برأينا فيه فنقول:

كان محمد بن أبي عيينة (قبل أن ننظر إليه كشاعر) رجلاً طيب القلب صادق المودة، وكان له آماله وأمانيه في الحياة، فلما سعى إلى تحقيقها أدركته الخيبة وقعد به الخطأ فأثر ذلك في أخلاقه فإذا به غير رجل. ولا يخطر في البال أنه انقلب شريراً دنيئاً، كلا، وإنما أصبح رجلاً لا يبالي بما يقول شأن كل من يُغلب على أمره، فإذا ذكر ماضيه صرح تصريحاً حمله اليأس عليه، فإذا ذكر إنساناً بسوء فكن على يقين أن ذلك الإنسان كان البادئ بالإساءة إليه – والبادي أظلم – وهذا النوع من البشر كثير، فكم من رجل محمود السيرة تضطره الظروف إلى ارتكاب الشرور، وقد تراه يرتكبها وملء فؤاده الأسى والألم، ولو قيض الله له من ينصفه وينقذه لعاد إلى سيرته الأولى راضياً راغباً، فابن أبي عيينة من هؤلاء الناس، وأرى أن العطف عليه وعلى أمثاله أولى لنا من احتقارهم والاشمئزاز منهم.

ولنأت الآن إلى شعره الذي عولت عليه في استخراج هذه الصورة، قال ابن أبي عيينة:

أرسلتْ (وهبةُ) لما راتني
بعد سقمٍ من هواها مفيقا
أتغيّرتَ كانْ لم تكن لي
قبل أن تعرف (دنيا) صديقا
قَدْ لعمري كان ذاك ولكنْ
قطعتْ دنيا عليكِ الطريقا

وقيمة هذه الأبيات في بحثنا أنها تقدم إلينا الشاعر عاشقاً ينتقل من هوى قديم إلى آخر جديد، يخرج من طور لا نعرف عنه كثيراً ، ولا نرى له في نفسه تأثيرًا كبيرًا إلى طور قلب نظام حياته.. كان يحب جارية اسمها وهبة فإذا بفتاة اسمها دنيا «تقطع عليها الطريق» وتملك على ابن أبي عيينة قلبه ولبه، وبدنيا اشتهر أمره وسار شعره، إلا أن دنيا لم تكن الفتاة التي أحبها الشاعر، فقد قال:

هنيئاً لدنيا هنيئاً لها
قدومُ أبيها على البصرةِ

وكان القادم فيما روى عمرو بن حفص هزار مرد وذلك لما ولي البصرة وهو من اقاربه وله ابنة اسمها فاطمة، وأما دنيا فجارية لها فكان الشاعر يكني باسم الجارية عن فاطمة مراعاة للقربى وأنفة من التشهير بذوي رحمه. وقد صرح مرة «بذكر القرابة وحقق على نفسه أنه يعني فاطمة» قال:

دعــوتُكِ بالقــرابة والجــوارِ
دعــاءَ مُــصــرِّحٍ بادي السِّــرار
لأني عنكِ مــشــغــولٌ بنفــسي
ومــحــتــرقٌ عليكِ بغــيــر نار
ولو واللهِ تشــتــاقين شــوقي
جــمــحتِ إليَّ خــالعــةَ العــذار
أمَــا والراقــصــاتِ بكل وادٍ
غــوادٍ نحــو مكّةَ أو سَــوار
لقــد فــضّلتُ «دنيــا» في فــؤادي
كــفــضل يدي اليــمينِ على اليــسار

ولم تدم علاقة هذين العاشقين طويلاً بدليل ندورة شعره في هذه العلاقة، وما يدريك لعل الشاعر قد انقطع معين شعره حين ظفر بمن أحب فكان معها في هناء شغله عن الشعر، وتلك حالة نفسية تجمل بنا الإشارة إليها، وهي أن النفس لا تزال في هياج تتقاذفها العواطف ما دام هنالك أمر تتوق إليه وتطلبه، فإذا ظفرت به سكنت وقرَّتْ، ويعود إليها هذا الهياج وتثور تلك العواطف حين يفلت منها وتصبح الحالة أشد مما كانت عليه سابقاً لما يصحبها من الذكريات، أقول لعل شاعرنا ظفر بما اشتهى وتمتع بلذة هذا الحب حيناً كان فيه هادئاً مطمئناً فلم نسمع صوته.. ومُنع من فاطمة وجفته هي بعد حين ثم تزوجت برجل اسمه عيسى بن سليمان، والتحق الشاعر بفرقة من الجند، فانتقل إلى جرجان وكان ابن عمه خالد بن يزيد والياً عليها فنأى عن البصرة مقر فاطمة وفي قلبه حسرات، كل ذلك أصابه في برهة قصيرة. ولم يطل عليه العهد بجرجان حتى أخذ ابن عمه خالد يسيء إليه ويقطع عنه رزقه ويجفوه..... أليس في هذه السلسلة من البلايا

والآلام ما يخلق من الصخور شعراء ويفجرها بالعواطف!؟ في هذه الأدوار العسيرة أخرج إلينا الشاعر خير ما عنده فكان سوء حظه من حسن حظ الأدب. وسنختار أحسن شعره وأدله على حالته النفسية التي صار اليها ، قال لما مُنع منها:

وقـــالوا تَجنَّبْنا فـــقلتُ ابعـــد مـــا
ملكتِ على قلبي بسلطانكم غـصـبـا
غـضـابٌ وقــد ملُّوا وقــوفي ببــابهم
ولكنّ «دنيـــا» لا ملولاً ولا غـــضـبى
وقـــد ارسلتْ في الســـرِّ اني بريئـــةٌ
ولم ترَ لي فـــيـــمـــا ترى منهمُ ذنبـــا
وقـــالت لكَ العُـتـبى وعندي لكَ الرضى
ومـــا إنْ لـه عندي رضـــاءٌ ولا عُـــتـبى
ونيَّـتُـهـا تلهـو إذا اشـتـدّ شـوقُـهـا
بشِـعـري كـمـا تلهـو المغنِّيـةُ الشَّـرْبى
فـاحـبـبـتُـهـا حـبّـاً يقـرّ بعـينهـا
وحـبّي إذا أحـبـبتُ لا يُشـبـه الحـبّـا
فـيـا حـسـرتا نغّـصتُ قـربَ ديارها
فـــلا زُلْفَـــةٌ منهـــا أرجِّي ولا قُـــرْبا

أرأيت إلى قوله : «وحبي إذا أحببت لا يشبه الحبا»، الا تجد فيه صورة الإخلاص والمودة الصادقة وطيب القلب؟ وتلك صفات نادرة بين الناس، فلا مبالغة إذن في إنكار الشبه بين حبه وحب غيره.

وقال في دور الجفاء والقطيعة:

ضـيَّـعتِ عـهـدَ فـتىً لعـهـدكِ حـافظٌ
في حـفظه عـجبٌ وفي تضـيـيـعكِ
ونـايتِ عنه فـــمـــا لـه من حـــيلةٍ
إلا الـوقـــوفُ إلـى أوان رجـــوعك

مُـتـخـشّـعـاً يذري عليكِ دمـوعَـهُ

اسـفـاً ويعـجب من جـمـود دمـوعكِ

إن تقـتـليـه وتذهبي بفـؤادهِ

فـبُـحـسْن وجـهكِ لا بحـسن صنيـعك

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من الجمال المعنوي، وقد توفق الشاعر كل التوفيق في رد الأعجاز على الصدور، وهذه إحدى مزاياه، وأحسن كل الإحسان في التعجب والتعليل، ومن قوله من هذا الدور:

الا في سـبـيل اللهِ مـا حلّ بي منكِ

وصـبْـرُكِ عني حـيث لا صـبـرَ لي عنكِ

وتركُكِ جـسـمي بعـد اخْـذكِ مـهـجـتي

ضـئـيـلاً فـهـلاّ كـان من قـبل ذا تَركي

فـهل حـاكمٌ في الحبّ يحكم بيننا

فـيـاخـذَ لي حـقّي ويُنصـفني منك

ولهذه الأبيات بقية يصف فيها الشاعر قصراً كان يلتقي فيه بحبيبته، وستراه واصفاً مبدعاً، قال:

يذكّـرني الفـردوسُ طورًا فـارعـوي

وطوراً يؤاتينا إلى القـصف والفـتك

بغـرسٍ وانـهـارٍ ووادٍ وتُـربـةٍ

كـان ثراها مـاءُ وردٍ على مـسك

وسـربٍ من الغـزلان يرتعنَ حـوله

كـما اسـتُلّ منظومٌ من الدُرّ من سِلْك

✡✡✡✡

وورقـاءَ تحكي الموصِليّ إذا غـدتْ

بتـغـريدها احـبِبْ بهـا وبمن تحكي

فيا طِيبَ ذاك القصرِ قصراً ومنزلاً
بأفيحِ سهلٍ غيرِ وعْرٍ ولا ضنك
كأن قصورَ القومِ ينظرنَ حوله
إلى ملكٍ مُوفٍ على منبرِ الملْك
يدلّ عليها مستظلاً بظلّها
فيضحك منها وَهْي مطرقةٌ تبكي

وتمادت فاطمة بهجره وكتب إليها فتهددته وتوعدته وانتهرت رسله، وكانت تزوجت فلم يزل يطمع بالوصول إليها حتى أعيته الحيلة ودب فيه اليأس وتغيرت أخلاقه، فهجا زوجها عيسى بأبيات منها:

أفاطمُ قد زُوِّجتِ عيسى فأبشري
لديه بذلٍّ عاجلٍ غيرِ آجلِ
فإنكِ قد زُوِّجتِ عن غيرِ خبرةٍ
فتىً من بني العبّاس ليس بعاقل
فإن قلتِ من رهط النبيِّ فإنه
وإن كان حرَّ الأصلِ عبدُ الشمائل

وقال قصيدة طويلة في فاطمة بلغ بها حد التهتك والفحش، ونكتفي بما يليق بالمقام من أبياتها:

أنا الفارغُ المشغول والشوقُ آفتي
فلا تسألوني عن فراغي وعن شُغْلي
عجبتُ لترك الحبّ «دنيا» خليّةً
وإعراضه عنها وإقباله قبلي
وما بالُها لما كتبتُ تهاونت
بكُتْبي وقد أرسلتُ فانتهرتْ رُسْلي
وقد حلفتْ ألا تخطّ بكفّها
إلى قابلٍ خطّاً إليّ ولا تُملي

ابخلاً علينا كلُّ ذاك قطيعةٌ
قضيت لدنيا بالقطيعة والبخل
سلوا قلبَ «دنيا» كيف اطلقه الهوى
وقد كان في غِلٍّ وثيقٍ وفي كَبْل
فإن جحدتْ فاذكرْ لها قصرَ مَعبدٍ
بمنصفَ ما بين الأبُلَّةِ والحبل

لم يكن ابن أبي عيينة ليصرح إلى درجة الإفحاش في هذه القصيدة لولا ما داخله من القنوط، وما آلت إليه حاله من السوء بعدما كان فيه من الغبطة والهناء.

وانتقل إلى جرجان كما أسلفنا فابتلاه الله بخالد ابن عمه، فكان كثيراً ما يستهل قصائده بذكر دنيا وأيامه السالفة معها ثم يتخلص إلى هجاء خالد، ولعله الوحيد بين الشعراء في هذا النوع من القصائد، أعني التي يتخلص فيها من الغزل إلى الهجاء، وقد خالف الشعراء في أنهم يتخلصون إلى المديح أو الوصف، قال من قصيدة:

«دنيا» دعوتُكِ مسرعاً فاجيبي
وبما اصطفيتُكِ في الهوى فاثيبي
دُومي أدُمْ لك بالصفاء على النوى
إني بعهدكِ واثقٌ فثِقي بي
ومن الدليل على اشتياقي عَبرتي
ومشيبُ راسي قبلَ حين مشيبي
وانا الغريبُ فلا الام على البُكا
إن البكا حَسَنٌ بكلّ غريبِ
ما لي اصطفيتُ على التعسّف خالداً
واللهِ ما انا بعدَها باريب
تَبّاً لصحبة خالدٍ من صحبةٍ
ولخالدِ بن يزيدِ من مَصحوب

يا خالدَ بنَ قبيصةٍ هيَّجت بي
حرباً فدونكَ فاصطبِرْ لحروبي
لما رأيتُ ضميرَ غشِّكَ قد بدا
وأبيتَ غيرَ تَجهُّمٍ وقُطوب
وعرفتُ منكَ خلائقاً جرّبتُها
ظهرتْ فضائحُها على التجريب
خلّيتُ عنكَ مُفارِقاً لكَ عن قِلًى
ووهبتُ للشيطان منكَ نصيبي

ثم يتوعده فيقول:

فلئن نظرتُ إلى الرصافة مرّةً
نظرًا يُفرّج كُربةَ المكروب
لأمزّقنّكَ قائماً أو قاعداً
ولأرينّ عليكَ كلَّ عجيب

وهناك قصيدة من هذا النوع رقيقة الغزل والوصف تنتهي بأوجع الهجاء، فمنها:

قل لدنيا اللهُ لا تقطعينا
واذكرينا في بعض ما تذكرينا
واذكري عيشَنا إذا نفض الرّ
ريحُ علينا الخيريَّ والياسمينا
إذْ جعلنا الشاهسفرامَ فِراشاً
من أذى الأرضِ والظلالَ غُصونا

ثم يذكر أهله ويتشوق إليهم ويهجو خالداً:

حفظ اللهُ إخوتي حيث كانوا
من بلادِ سارين أو سُدلجينا
فتيةٌ نازحون عن كل عيبٍ
وهُمُ في المكارم الأوّلونا

وهُمُ الأكــثــرون يـعلم ذاك الـنّا

سُ ، والأطيـبـونَ لـلأطيـبـينا

ازعـجـتْني الأقـدارُ عنهم وقـد كُنْـ

ـتُ بقـربي منهمُ شـحـيـحـاً ضنينا

وتَبـدلتُ خـالداً لـعنـةُ الْـ

ـلهِ عليـه ولـعنـةُ الـلاعنـينا

رجلٌ يقـهـر اليـتـيمَ ولا يُؤْ

تـي زكـاةً وينـهـر المسكينا

نـزع الـلـهُ عنه صـالحَ مـا أعْـ

ـطاهُ، آمينَ عـاجـلاً آمـينا

إنْ أضـيـافَ خـالدٍ وبنيـهِ

ليـجـوعـون فـوق مـا يشـبـعـونا

وتراهم من غـيـر نُسْكٍ يَصـومـو

نَ، ومن غـيـر عِلّةٍ يحـتـمـونا

يـا بنـي خـالدٍ دعـوه وفِـرُّوا

كم على الجـوع ويحَكم تصـبـرونا

ومما أبدع فيه قوله يفاضل بين خالد وأبيه:

ابـوكَ لـنـا غـيـثٌ يُـعـاش بـوَبْلِـهِ

وانتَ جـرادٌ ليس يُبـقـي ولا يَذَرْ

لـه اثـرٌ في المكْرمـات يَسـرُّنـا

وانـتَ تُـعـفّي دائمـاً ذلـك الأثر

وأغرق ابن أبي عيينة في هجاء خالد وأسرف، واستنشده مسلم من الوليد يوماً من هجائه لخالد فأنشده قصيدة مطلعها:

يا حــــفصُ عـــاطِ اخـــاكَ عـــاطِهْ

كـــاســـاً تُهــيِّج من نـشـــاطِهْ

ختمها بقوله يخاطب خالداً:

فـــــــــإذا تـطــاولـتِ الـرؤو

سُ، فـــــــــغـطْ راسَـكَ ثـم طـاطـه

فقال مسلم: مه إنا لله، هتكته والله وأخزيته، وإنما كنت أظن أنك تمزح وتهزل إلى آخر قولك حتى ختمته بالجد القبيح فيما خرجت إليه، ثم مضى وهو يقول: فضحته والله، هتكته والله.

هذا وأرجو أن أكون قد توفقت في جمع ما تشتت من أخبار بن أبي عيينة، وعسى أن أكون قد أخرجت له صورة منها لا بأس بها على علاتها، وعزيز عليَّ أن أختم القول فيه وآخر ما أظهرت منه أنه هجّاء فقد خلفت أجمل قصائده وأحبها إلي لتكون مسك الختام، وهي تمثّل الشاعر أحسن تمثيل، تمثله ذلك المحب الواله الأرستقراطي الفخور بمجد آبائه. وقد أحسن ما شاء في معانيها وإحكام تراكيبها وقوافيها، أجاد كل الإجادة في مزج الغزل بالفخر، فبينا هو ينقل إليك قول عاذله إذا به يدفع قوله مدلاً بأصله ونبله بأجزل الألفاظ وأفصحها، ثم تراه ينتقل إلى أرق الغزل بأعذب اللفظ وأسهله ويثب أثناء ذلك وثبات في الافتخار، ومهما أقل في وصف هذه القصيدة فلن أدل عليها بأحسن مما تدل هي به على نفسها، وإليك هي:

الم تـنـهَ نفـــسكَ انْ تعـــشـــقــا

ومـــا انتَ والعـــشقُ لولا الشُـــقـــا

امن بـعــــد شُــرْبكَ كـــاسَ النـهى

وشـــمّكَ ريحـــانَ اهلِ التـــقـى

عـشـقـتَ فـاصـبـحتَ في العـاشـقـيـ

ـنَ اشـــهـــرَ من فـــرسٍ ابلـقـــا

اعـــاذلُ صَـــهْ لستَ من شــيـــمـــتي

وإن كنتَ لي نـاصـحـــاً مُـشـفِـقـــا

أراكَ تُفرّقني دائباً
وما ينبغي ليَ أن أفرقا
أنا ابن الذي شاد لي منصباً
وكان السِّماكُ إذا حلّقا
قريعُ العراقِ وبطريقُهم
وعزُّهُمُ المرتجى المتّقى
فمن يستطيع إذا ما ذهبْ
تُ لانطق في المجد أنْ ينطقا
أنا ابن المهلّبِ ما فوق ذا
لعالٍ إلى شرفٍ مُرتقى
فدعني أغلّي ثيابَ الصِّبا
بجدّتها قبل أنْ تَخْلقا
أدنيايَ من غمْرِ بحرِ الهوى
خذي بيدي قبل أنْ أغرقا
أنا لكِ عبدٌ فكوني كمن
إذا سرّه عبدُه أعتقا
سقى اللهُ «دنيا» على نايها
من القَطْر مُنبعِثاً ريّقا
ألمْ أخدعِ الناسَ عن حُبّها
وقد يخدع الكيِّسُ الأحمقا
بلى وسبقتُهمُ أنني
أحبُّ إلى المجد أن أسبقا
ويومَ الجنازةِ إذ أرسلتْ
على رقّةٍ أنْ جِئِ الخندقا

إلى السائلِ اخْترْ لنا منصباً

قريباً وإياكَ انْ تخرقا

فكُنّا كغُصنين من بانةٍ

رطيبين حِذْثانِ ما اورقا

وقالت لتِربٍ لها استنشديـ

ـهِ من شِعره الحسنِ المنتقى

فقلتُ أُمِرتُ بكتمانهِ

وحُذِّرتُ إن شاء أن يُسرَقا

فقالت بعيشكِ قُولي لهُ

تمنَّعْ لعلّكَ أن تنفقا

إبراهيم طوقان

****

بريد الأضاحي

أخي مصطفى:

سلام وتحية: وبعد، فقد طلبت إليَّ أن (أُتحف) جريدة الأضاحي الغراء بما (تجود) به قريحتي (الوقادة) وتدعو لي أن أكون «منارًا للعلم، وعلَماً للأدب»، ولا أنكرك ما داخلني من الزهو حين تلوت تلك العبارات شأن كل من هو حديث العهد بعرض بضاعته الأدبية على الناس، وبلغ بي الغرور حداً تخيلت معه أن الأضاحي قد صدرت بافتتاحية من قلمي (مقالة أو قصيدة) فتخاطفها الناس من أيدي الباعة وأخذوا يقرأونها بلهفة، فلما انتهوا منها هتفوا بصوت واحد: «والله كاتب! والله شاعر!» «وإذاً بي منار العلم، وعلم الأدب» ولكن سرعان ما رجعت لنفسي فقهقهت ضاحكاً، وهرعت إلى المرآة لأنظر فيها سحنتي، فإذا بصورتي تصرخ في وجهي: ويحك يا مغرور!!

لا، لا يا أخي دعني وشأني، فأنا لا أزال طالباً في المدرسة، والطلبة (كما جربت) لا يقام لعلمهم ولا لأدبهم وزن ولو جاؤا بالمعجزات، ولعلك تنكر عليَّ ذلك فإليك البيان:

نظمت قصيدة ذات يوم في الغزل (طبعاً جميلة لأنها قصيدتي)، وعزمت على نشرها في إحدى الصحف تحدثاً بنعمة الله.. فأخذت أنقلها إلى صحيفة نظيفة وأتأنق في رسم كلماتها وأحرص على ضبط إعجامها وتنقيطها كيلا تشكل كلمة منها على (صفيّف المطبعة) فيحذفها أو يحرّفها عن موضعها فيفوت القارئ عندئذ ما في القصيدة من جمال وخيال وسحر حلال... ولما فرغت من عملي الشاق طويتها وأودعتها جيبي، ثم قصدت إدارة جريدة أعرفها لكثرة ما وقفت أمام اللوحة الكبيرة المكتوب عليها بالحرف الكبير «جريدة...»، وطالما حدثت نفسي بالشهرة على حسابها...

ولما صرت عند الباب شعرت بقشعريرة تدب في جسمي فهممت بالرجوع، ولكنني تجلدت وأخذت في صعود السلم وأنا أرتب في ذهني كيف أقدم نفسي للمدير.

دخلت غرفة الإدارة فصُوِّبت إليَّ عيون ست من جهات ثلاث، فنظرت متفرساً في وجوه أصحابها وكلهم عبوس ذاهل حتى آنسني أحدهم بكلمة «تفضل»، فخطوت إليه وبادرته بتحية مختصرة ردها بإشارة من رأسه، ثم بدأت بالكلام متلعثماً:

- أقدم لك نفسي اسمي فلان....

- لنا الشرف، تفضل اجلس.

- لدي هذه وأود أن أنشرها في جريدتكم.

وكنت قد أخذت القصيدة بيدي فتناولها وكأنه لم يفهم ما اسمي لتلعثم لساني فلما نظر في أسفل الصحيفة وقرأه وقف فوقفت ومد يده فصافحني وهو يقول بدهشة أنت فلان؟! لا تؤاخذنا، ثم التفت إلى رفيقه وقال: حضرته الشاعر الذي نقلنا قصيدته الجميلة من جريدة.... فداخلني من الفرح مالا يوصف وخطوت نحو رفيقيه فصافحتهما ثم عدت إلى مقعدي وسألت صديقي :

- أي قصيدة تعني؟

- نعم، قصيدة جميلة، اذكر منها كذا!

ففارقني ما كنت أشعر به من الخجل والتهيّب، وشكرته بعبارة حسنة أُوحيت إلي.. وسبق لي فعلاً أن نشرت بعض القصائد غير أنني كنت أوصلها عن طريق البريد لا بالتسليم إلى أصحاب الجرائد يدًا بيد، ثم أخذت أصغي إليه وهو يتلو القصيدة الجديدة بإعجاب فلما أتم تلاوتها قال: ستصدر بعد غد إن شاء الله.

ولكن من غضب الله علي أنني طالب في المدرسة، والطالب كما قلت لك لا يقام لأدبه وزن لأنه فج في آرائه واختباراته، فقد أفضى بنا الحديث مع محرر تلك الجريدة إلى

السؤال عن عملي في الوقت الحاضر، ولما علم أنني لا أزال تلميذاً تغير معنى ابتسامته فجأة من الإعجاب إلى التشجيع، وتبدلت لهجة حديثه فلم يعد صديقي الأديب الذي يتحدث إلى أديب مثله بل انقلب إلى أستاذ يلقي علي دروساً في الشعر والأدب.

وعندئذ أسرعت إلى طلب الإذن بالانصراف، خرجت كاسف البال نادماً على ما فرطت في جنب كرامتي، تائباً عن الغرور بنفسي. أرأيت يا مصطفى ما قيمة تلميذ المدرسة في نظر المتقدمين في العلم والأدب؟ فرجائي إليك يا أخي أن تترك (قريحتي الوقادة) وشأنها فليست لتجود إلا بمواضيع مدرسية أقدمها لأساتذتي في صفوف الإنشاء، تلك هي «تحفي»، فأقلني أقال الله عثارك، والسلام عليك من أخيك المخلص الودود.

إبراهيم طوقان

****

والله ما نحن بمقيلي التلميذ الأديب «أو أديبنا التلميذ» بل نحن بكل حاجة إلى مثل ما ينفثه هذا القلم المتغلغل إلى صميم الأشياء، يكشف لك عن خفاياها برشاقة وبساطة فتبدو لك كما هي عارية قبيحة المنظر او جميلة رائعة. ليس الأدب أن تطير في سماء الخيال فيخيل إليك أنك تهمس في آذان الزهر من على متون السحاب الساري، ولا أن تبدو ملتفاً بشفق المساء رجلك في أصيل اليوم الشاحب ويدك في طرة الغد المقبل، وليس الأدب ان تنظم الزهر والنهر والخمر في سلك ندامى غابت الأقمار في جيوبهم فامتلأوا حسناً وجمالاً، ولا أن تؤلف بين نوافر الكلم أو تقيد أوابده.

وإنما الأدب الذي نريد هو الذي يبحث في ناحية من نواحي حياتنا الاجتماعية وينبش عن أدوائها القتالة.

أعطنا صورة حية عن مظهر من مظاهر الحياة تعرض أمامك كل يوم على ان تعطي الفضيلة حقها والرذيلة قسطها.

صَوّر لنا الكاذب تتمرّغ نفسه في حمأة السفالة، واجعل من صورته شكلاً ينفّر الناس منه ويبعدهم عنه، ثم قل ما تعتقده حقاً من غير زخرف ولا تزيين وكل ذلك بأسلوبك السهل اللذيذ:

وأنت الأديب.

ونحن نشكر أديبنا لمؤازرته، ونفتح من الأضاحي صدرًا رحباً يزدان من نثره ومن شعره.

****

نشرت في الأضاحي

١٩٢٩

نهج البلاغة

إذا أدمنت النظر في كتاب وأكثرت من قراءته أخذت تشعر به كأنه جزء منك تكاد لا تفتح صحيفة منه حتى تستعيد ذاكرتك بما فيها، فأنت وما اشتمل عليه ذلك الكتاب أشبه بصديقين حميمين لا يقع نظر أحدهما على الآخر حتى يتبينه ويقرأ في عينيه سروراً أو حزناً وطمأنينة أو ارتباكاً ، وكلما زدت معرفة بالكتاب زادك روح صاحبه علماً، وركز في مخيلتك صورة له وتنجلي لعينيك أكثر وضوحاً ما دمت ذا علاقة بالكتاب، ولعل هذه الصورة المتخيلة أصدق الصور لشخص لم تره، إذ لا يزال الأدب مرآة الأديب التي تنعكس عليها أخلاقه وميوله وطبائعه، ولو أتيح لك أن ترى ذلك الشخص لما استطعت أن تعرف نفسيته وعقليته معرفتك لهما من أدبه الذي قرأته في مؤلفاته، وهذا القول يصدق على الأديب الحقيقي، فإن كان الأدب لا يصور ناحية من نواحي الإنسانية أو علاقة من علاقاتها بهذا الكون تصويراً صادقاً ، فعبثاً يستهوي النفوس ويستفز العواطف، وعبثاً ينتظر هؤلاء الأدباء استحساناً أو إقبالاً.

وبعد فنهج البلاغة كتاب قيّم في آدابنا العربية لا تضارعه في لغته إلا لغة الوحي، وحسبك أن يكون صاحبه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أبلغ الناطقين بالضاد بعد رسول الله وأفصحهم. والكتاب يشتمل على خطبه كرم الله وجهه ورسائله وحكمه، جمعه الشريف الرضي الشاعر المشهور، وتُتداول اليوم تلك المجموعة مشروحة بقلم الأستاذ الشيخ محمد عبده. ونهج البلاغة من هذه الكتب التي هي أشبه بمجموعة صور مختلفة الأشكال والمواقف، يظهر فيها الإمام علي خاصة، وتمثل حياة العرب السياسية والاجتماعية عامة، وكأني بالإمام رضي الله عنه قد وقف نفسه على تدوين حوادث تلك الأيام فأودعها خطبه ورسائله، فجاءت تاريخاً صادقاً يوثق بمصدره ويعتمد على أخباره، وكأني بنهج البلاغة رواية وعلي بطلها، فهنالك علي الآمر الناهي والواعظ المرشد والفارس المغوار والقائد الخبير بفنون الحرب، وهنالك علي الأديب والواصف المبدع وهو لا يزداد

عن الدنيا إلا نفوراً ويولي وجهه عنها (كرم الله وجهه) ويقول: «اغربي عني يا دنيا فحبلك على غاربك، قد انسللت من مخالبك، وأفلت من حبائلك».

وكان علي شاعراً إلا انه في مواطن كثيرة من نهج البلاغة يُرى ناثراً اشعر منه ناظماً. قف مع الإمام على قبر فاطمة الزهراء وأصغ إليه يرثيها ويبث لوعته إلى أبيها النبي فيقول: «السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة إلى جوارك السريعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ورق عنها تجلدي.. أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها فأحفها السؤال، واستخبرها الحال... والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئم، فإن انصرف فلا عن ملالة، وإن أقام فلا عن سوء ظنّ بما وعد الله الصابرين».

أليس هذا القول شعراً لا ينقصه إلا الوزن والقافية؟ أما فيه من بث الشكوى وتوثّب العواطف ما يستنزف من الأعين دموعها، ويغلغل في القلوب فيصيب مواضع الأسى...؟

وهناك الخطب الحربية، وإنّ في كلماتها لصليل السيوف وهي تدير كؤوس الحتوف، أو تقصف عوالي المران في صدور الفرسان، وأي بلاغة تتوثب، بل أي جذوة تتلهب، في قوله لابنه وصاحب لوائه يوم الجمل (محمد بن الحنفية): «تزول الجبال ولا تزل، عضّ على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، ارم ببصرك أقصى القدم، وغضّ بصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه».

ولا أطيل، فما زال الكتاب أنس وحشتي، وروضة اغشاها لأُرَوّح بها عن نفسي، اقتطف من أزاهيرها الخالدة، فأنشق طيب الإمام، واجتلي روحه تسيل من كلمة عزاء ورحمة، رحم الله الإمام ورضي عنه.

متادب.

****

مقالات نُشرت في
جريدتي المعرض والقبس

٣ نيسان، ١٩٣٢

سخافات الشعر العربي

مقال انتقادي طريف وجريء معاً، لكاتب أديب أراد أن يذيله بتوقيع (ابوجعفر) وعسى أن يطلع علينا الشعراء برأيهم في هذا المقال.

أخي إبراهيم أفندي:

أهديك تحياتي وأشواقي عساك بخير، وبعد، فإن إحدى الآنسات ستُزف قريباً إلى أحد الأصدقاء، لذلك أتيت إليك بأسطري هذه طالباً منك أن تنظم لي بيتاً واحداً تهنئة بالإكليل، الجماعة من أصدقائنا المخلصين للغاية ويهمني أن أقدم لهم تهنئة لطيفة ليكون بها وقع حسن، الآنسة اسمها (.........) والعريس اسمه (......) هذا إذا أردت أن تدخل اسميهما في البيت. أشكرك سلفاً.

حاشية: الوقت قصير فأرسل التهنئة تلغرافياً ولتكن شيئاً مختصراً (كويس وابن ناس). الداعي (....).

أخذت هذه الرسالة من صديق لي، وعوضه على الله في أجرة البريد، فسوف لا أنظم لحضرته بيتاً ولا بيتين، وسوف لا أزعج مأمور التلغراف بالبرقيات الشعرية. هذا ولم أسمع ان لغة من لغات الدنيا سار شعرها في أسلاك البرق غير لغتنا العربية، ولم لا؟ وهل هنالك من عجب؟ أليست لغتنا أشرف اللغات؟ وبلاغتها أتم البلاغات؟ ألم يخترها الله لتكون لغة التفاهم بين أهل السماء؟

ليست هذه الرسالة لأُولى هذه الرسائل من نوعها، فبين أوراقي ركام من أمثالها. هناك طلبات تعزية وتبريك وتدشين مصحوبة بأسماء وأوصاف أشبه بالمانيفاتورات التجارية تبين نوع الميت وماركة القبر المسجلة وتاريخ الإصدار إلى الآخر.. وهناك بيان عن جنس المولود ومتى كان عهده بالوصول إلى جمرك الوجود.. وهناك خرائط تشرح عرض الحارة وطولها مع وصف شامل كامل لموقعها وما تشرف عليه من جهاتها الأربع.

هذه هي إحدى المهام التي تنقض ظهر الشاعر العربي في بيئته، وتقف سداً حائلاً دون وحي النفس وصفاء الضمير. وهناك سخافة التواريخ الشعرية أو ما يسمونه (حساب الجمّل) ولا أخال القارئ يجهل هذه السخافة، ألم تدخل قاعة منزل من المنازل وتجد فيها إطاراً فيه بيتان أو ثلاثة تنتهي على هذا المثال:

لما بدا بالسعد قلتُ مؤرخاً
زُفّتْ فلانةُ بالعُلى لفلانِ

ومثال آخر:

اقول بالتاريخ ابْشِرْ فقد
بنيتَ دارَ المجدِ والسؤددِ.

أظنك رأيت كثيراً من هذا الشعر، وإذا كنتَ من الواقفين على سر هذه الصناعة فلا تتعب نفسك في إخراج السنة التي (زفت فيها فلانة لفلان)، ولا تسأل متى بنيت تلك الدار، فالبيتان لي وعلى (حسابي)... وروزنامتي ليس لها علاقة بالهجري ولا بالرومي.

ثم قف عند أبواب الحمامات وسبل الماء وعرّج على المقبُرة (أطال الله بقاءك) لترى دواوين صفحاتها الأحجار مشتملة على أنفس التهاني وأشجى المراثي.

وهنالك الإعلانات وفيها من الشعر آيات بينات.. قال بعض الشعراء (يدلل) على صنف من أصناف السجاير:

إن الدخانَ مُنوّعٌ
لكنْ احسنُه (العفافْ)
ولذاك أصبح صنفُهُ
مشروبَ ربّاتِ العفافْ

«إن الدخان مُنوّعٌ»... تأمل في هذه الحكمة البالغة يا سيدي القارئ، ثم تلهّف ما شئت على هذه العبقرية التي ضاقت بها الأرض بعد تدفقها في مجاري الحمامات والتجائها إلى القبر، فذهبت تتصاعد دخاناً في أجواز الفضا... ولكن لا بأس فقد قدّم معمل السجائر لحضرة الشاعر عشرين علبة من الدخان يستعين بها على شحذ قريحته

عند النظم، وسيقوم أصفهاني آخر فيضع أغاني القرن العشرين فيروي عن فلان وفلان حكاية البيتين، ويختمها بقول: «وأمر له بألف علبة سجائر أقماعها من الذهب الخالص»...

يكلفك أحدهم بنظم هذا الشعر فيعلمك الرياء من حيث لا تدري وهو لا يدري، يطلب إليك أن تبكي في ساعات سرورك، أو أن تضحك في حين لا يجديك فيه غير الدموع، وقد يحملك إلحاحهم على رفض طلبهم بشيء من الغلظة، وقد تكون صريحاً فتعترف لهم بأنك لا تتأثر بمثل هذا الموضوع، فويل لك حينئذ مما جنيته على نفسك: فأنت صلف متكبر شاعر مدّع بلا إحساس.. ونصيحتي لك أن تكظم غيظك عند هذه الطلبات وتدلّهم على المتخصصين بهذه السخافات، وما أكثرهم، هنالك نظامون (تحت الطلب) لا أعرف عنهم أنهم خيبوا سائلاً. وماذا عليك لو حفظت في مفكرتك عدداً من أسمائهم وعناوين دواوينهم فتريح نفسك من عناء الثقلاء، وتدفعهم عنك إلى ما فيه صفاء بالك ومرضاتهم.

وبعد، فهل اتفق لك أن تسمع مقدمة بعض الشعراء لقصائدهم قبل إلقائها في محفل من المحافل، أظنك سمعت بهذه المقدمة مراراً (كلفتني لجنة هذا الاحتفال الموقرة).

ولكنك تعودت فلم تعد تنتبه إلى لفظة (كلفتني)، أليست هذه الكلمة وحدها شاهدة على قائلها (بالتكلف)؟ وهل التكلف غير ضرب من العبودية التي يضع فيها المرء القيد لنفسه بيده؟ ولكن لا، فتلك واجبات وخواطر يجب أن تراعيها وتبيع حريتك (لتمسكها)، وأخيراً لا تنس تلك العظة المدمرة للكرامة (أطعم الفم تستحي العين) فلماذا لا تكذب وتنافق لمن ملأ جوفك وجيبك...

وتعال معي نجلس في موضع نرى فيه ذلك الأشعري يهيئ نفسه (وعواطفه من فضلك) لينظم قصيدة، ها هو أخذ ديوان شاعر طويل النفس وعمد إلى قوافي إحدى مطولاته فنسخها، اسمعه كيف يردد (يشاء فناء ظباء رجاء)، اشعل الشاعر سيجارته وأخذ رشفة قهوة ثم مشى في غرفته طولاً وعرضاً، ثم وقف يستلهم المساء رافعاً بصره نحوها وهو يحك رأسه تارة ويقرض أظافره تارة أخرى. أما الموضوع فلا أثر له في قريحته الوقادة، قد يمدح، قد يهجو، قد يتغزل، لا يدري، ولكن هذه القوافي التي جمعها

جبارة تأتي بالمعجزات، لقد أوحت إليه قافية (يشاء) (يفعل ما يشاء) فيهرع إلى طاولته ويدون الفقرة، ويرشف قليلاً من القهوة فتوحي إليه الباقي (فإن الله يفعل ما يشاء) ويسحب سحبة على السيجارة وإذا بالبيت:

دعِ الدنيا يسيِّرها القضاءُ
فإن اللهَ يفعل ما يشاءُ

قُضِي الأمر وستلتحق القصيدة بباب الزهد (وقال يذم الدنيا ويتبرم بالناس) لماذا! لأن القافية أرادت ذلك، ولماذا لا تكون مشيئتها فوق كل مشيئة، وهي التي خلقت الوزن وحكمت عليه أن يبتدئ بها (أعني من الشمال إلى اليمين)، وهكذا تمت القصيدة الفريدة فتنفس الصعداء وهو يقول: لقد صدق الحطيئة حين قال: (الشعر صعب وطويل سلّمه).

ولا يصعب علينا وجود تعليل لهذه السخافة، رأى الشاعر أن القريحة لم تفض منذ شهر فخشي أن يعلوها الصدأ، وكبر عليه أن يحرم لغته وصحافتها من غوالي درره وروائع حكمته فقال (يروض القول).

وقريب من هذه السخافة ما تفعله اللفظة الواحدة لنكتة فيها ، فيروق له أن يُنزلها في بيت أو أبيات مُكنّياً أو مُورّياً. وفي ديوان صفي الدين الحلي (باب في التشبيب بغلمان مخصوصة بالأسماء والفنون والصفات)، قال في أحمد:

يا سميَّ النبيِّ في سُورة الصَفْ
فِ، ومن باسمه تُشرَّف كُتْبي.... إلخ.

وقال في إبراهيم:

يا سميَّ الذي له خبتِ النّا
رُ، وكانت له سلاماً وبَرْدا ...إلخ.

وقال في يوسف:

يا سميَّ الذي به اتُّهِمَ الذِّئْـ
ـبُ، وأفضى إليه مُلْكُ العزيزِ....إلخ.

ويتسع البيكار (كما هو منتظر) فيقول في جميع الأنبياء والمرسلين، ولا ادري كيف فاته اسم آدم وهو أبو البشر وأولهم، أفلا قال رحمه الله:

يا سـمـيَّ الذي عـصـى اللهَ في الخُلْـ
ـدِ، واغـوته زوجُـه حَـوّاءُ

غفر الله لصفي الدين جنايته على الأدب، وعفا الله عن ذلك الشاعر الذي ترسَّم خطاه فراح ينظم معاني (الحب بلسان أصحاب الحرف)..

وكنت أظن التلاعب بالحروف المهملة والمعجمة، والإتيان بالمتصل والمنفصل منه مرتَّبةً على أوضاع مختلفة، ثم المديح في قراءة البيت طرداً، والهجاء عكساً، أقول كنت أظن ذلك من اختصاص أصحاب المقامات كالحريري واليازجي (ولا ضير عليهم) فإذا بصفيّ الدين الحلّي قد بَزّهم جميعاً وجاء مجلّياً.

وهناك وأخيراً فرسان التشطير والتخميس. بلغني أن أحدهم قد شطّر ديوان ابن الفارض وخَمَّسه فلما اطلعت على عمله وجدته قد ترك التائيتين (الكبرى والصغرى) فقلت: ليته لم يتركهما فلا ريب أن القصيدتين كانتا قد شطَّرتاه وخمّستاه قبل أن ينجز ذلك فيهما. ولا أدري والله ماذا وراء التشطير والتخميس غير الحشو والتكرار والتشويه، وهل أدل على السخف من تناول القصيدة الجميلة التي أملتها العاطفة بدم الفؤاد وتمزيقها أشلاء توصل بعد ذلك إلى أطمار قذرة يرشح منها صديد التكلف؟ إن اللغة العربية لتبرأ إلى الله من سخفكم أيها المتشاعرون، وإنها لتبشركم بأن دواوينكم العفنة ستظل طعاماً للسوس يقتات بين دفاتها على نتاج قرائحكم الخاملة، ويرتع في ظلال خيالكم الموبوء إلى أن يحق عليكم القول (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)، وعندئذ تُنْسَون غير مأسوف عليكم ولا أنتم تُفتقدون.

****

القبس - ٥٣٨، ٢٣/١٠/١٩٣٤

رأي بين الآراء
ودلو بين الدلاء

لابد من أن يكون اتفق لك الجلوس منفردًا عند باب حانوت فرقبت أفواج الناس يمرون بك ذهاباً وإياباً في الشارع، ولابد أن تكون وُجدت في مقهى حاشد فأخذت تطرد وحشة الانفراد عن نفسك بتقليب الوجوه التي حولك، وأصحابها بين منهمك في اللعب أو القراءة، أو في جدال عنيف حول موضوع خطير أو سخيف! أقول، لابد من أن يكون اتفق لك ذلك يا سيدي القارئ فكان لي أن أنبهك عندئذ إلى شعور خفي هو تقلب عواطف الميل والنفور بينك وبين هؤلاء المارين، سواء عرفتهم أو لم تعرفهم، أو هؤلاء الجالسين دون أن تكون هنالك أية صلة بينك وبين أي أحد منهم.. وأعجب من ذلك بعد، أن تقيم نفسك حكماً بين هؤلاء جميعاً فتحكم بثقل الدم على هذا، وبخفة الروح على ذاك.. وتقرأ سواد الطوية أو بياضها في وجه من الوجوه، والبشر أو الفظاظة في وجه آخر، كل ذلك وأنت في مكانك تخلع ما تشاء من الصفات حسنة وسيئة على من تشاء، وكل ذلك بينك وبين نفسك لا يعارضك فيه معارض ولا يجادلك في وجهة نظرك مجادل حتى إذا جاهرت بشيء منه وأعلنت رأيك وجدت من ينكر عليك حكمك ومن يقرك عليه، وبمقدار ما يكتسب «المتهم» من أصوات الاتفاق (له أو عليه) يكون فوزه أو فشله. وإذا وضحنا هذا الراي على نور الحديث الشريف قلنا إنه بمقدار ما يكون التعارف والتناكر بين تلك الروح وبين أرواح المحكّمين فيها يكون التآلف والتنافر.

وتستطيع أن تطبق هذا (الاستعراض) على ما يمر بك من شعر ونثر في المجلات والجرائد، وأنت اليوم في طوفان زاخر منها.. فتقرأ قصيدة الشاعر ومقال الكاتب فتُنصّب نفسك قاضياً وتحكم للشاعر او عليه.. وقد يروقك المقال فتقصّه وتحتفظ به، وقد لا يروقك فتطرح الجريدة من يدك وأنت تقول: «قاتله الله ما أثقله!» وهذا الأثر الأدبي الذي حكمت له «وبخل ذوقك» فاحتفظت به، قد يكون نصيبه الحكم عليه والاطراح عند سواك، وبمقدار ما يكسب الأديب من «أصوات» الجمهور القارئ يروج أدبه ويتسع نطاق شهرته.

ولا عجب، فإن الأدب نتاج عواطف الأديب وصورة ثقافته ومرآة شمائله، وإن ما يُبغضه إلى الناس كفرد في هذا المجتمع أو يحببه إليهم خليق بأن يكون واضحاً في آثاره الأدبية.

ولا أزال أذكر يوماً نشب فيه الخلاف بيني وبين أخي حول شاعرية شوقي رحمه الله على إثر فراغنا من قراءة كتاب (الديوان) للعقاد: خرج أخي من تلك المقالات مسلوب الإيمان لا يرى لشوقي حسنة (وهذا ما يريده العقاد من قرّاء كتابه)، وخرجت أنا لا أجد في الكتاب غير التحامل والهدم عن سابق قصد وإصرار.. فلم يزدني ذلك إلا إيماناً بشوقي على إيماني، وانتصارًا له على انتصاري. وفق لي الجدال تلك الفكرة في الأدب التي قدمتها بين يدي القارئ، وأخذت الأيام تعمل في صقلها وتجلو لي صدقها حتى أصبحت عندي رأياً في الأدب يشتمل - فيما أعتقد - على كثير من الإنصاف للأدباء وآثارهم وإليك هو:

القطعة الأدبية (كائن حي) تنجذب إليه قلوب وتنفر منه أخرى، وقيمة هذه القطعة ترتفع وتهبط بكثرة ما تلاقي من المعجبين وقلتهم... وعلى هذا أرى من العبث أن تحملني على اتباع ذوقك في هذا الشعر وذاك المقال، فقد يكون ثقيلاً عندك خفيفاً ظريفاً عندي، وقد تراه ضحلاً غير مفهوم، ووراءه عندي قرار بعيد، ومعنى جليل مبين، فإذا استندت إلى شيعتك في رأيك فكن واثقاً من أن لي شيعتي في خلافه.

وبعد، فما هذه الضجة التي يثيرها خصوم «المجمع الأدبي» حوله؟ وما هذه الجعجعة التي نسمعها منهم ولا نرى معها طحناً؟ إن أعضاء «المجمع الأدبي» ليتمتعون بالأكثرية الساحقة من إعجاب جماهير القراء لآثارهم، وما من هؤلاء الأعضاء إلا كل قوي بأدبه، ممتاز بثقافته، متين بخلقه وشخصيته، وكفى بذلك ما يجذب إليه الناس ويدنيه من القلوب.

أما أنور العطار فله من الشعرية ما لو طرح للتصويت لكان فوزه بين أنصاره والمقرين بنبوغه مما يذكر بفوز هتلر الأخير في ألمانيا النازية!!

أخي أنور! قل لهؤلاء ما قاله أبو نواس لخصومه:

لو كــان لـومُكَ نـصــحــاً كنتُ اســمــعُــهُ

لكنّ لـومَكَ مــحــمــولٌ على الحَــسَــدِ

وهنيئاً لك جيش المعجبين بك، المتطلعين لنفحات شعرك، ولا قرّت عيون الحاسدين.

من «المجمع الأدبي» أبو جعفر

****

تعليقات على ما كتب إبراهيم طوقان
نشرت في جريدة فلسطين
مرتبة حسب التسلسل التاريخي

فلسطين ٢٠/٥/١٩٣٤

على حدود «الدولة النسائية»

للأديب قدري طوقان

قرأت مقال (دولة نسائية) لابن عمي إبراهيم فلم أملك نفسي من ترك النجوم وأبحاثها (والنزول) إليه من أفلاكها لأقول كلمتين: إحداهما إعجاب بظرف المقال تمنعني القرابة من بسط القول فيه، والثانية ألم قديم حرّكه عليّ بغمزة بارعة غمز بها طبقة من شبان اليوم حين قال على لسان هافاس:

«شاع في الأوساط السياسية أن الدولة النسائية ستجردُ حملة كبرى على فلسطين، واتصلنا بمصدر عليم فأكد لنا أن خطة الهجوم ستكون على القلوب أولاً لخلوها من كل وسائل الدفاع والمناعة، فإذا تم الاستيلاء على تلك المراكز قام الجيش بحركة (تطويق) لا سبيل معها إلى المقاومة، وهناك البلاء...».

وقبل التعليق على هذا القول أود أن أعلن أنني «على الحياد التام» مع الدولة النسائية، وأنني إذا كان ولابد لي من المداخلة فلن أتجاوز «الحدود». لقد ذهبت بي قراءة تلك الجملة إلى التفكير في الواقع الذي لا جدال فيه ولا هو مفتقر إلى برهان، وهو أن البرنامج الصهيوني لاستعمار فلسطين يشتمل فيما يشتمل عليه من الويلات على خطط لإفساد أخلاق النشء العربي وزلزلة عقيدته الوطنية حتى لا يتمكن من الدفاع وحتى يكون بمعزل عن الغارات الصهيونية، وهل طرد هتلر اليهود من المانيا إلا يوم انكشفت له ولأنصاره هذه الخطة اليهودية المهدمة وخشي على الشباب الألماني السقوط والانحلال؟

وها هي الأوساط الصهيونية في فلسطين عامرة بما يجذب إليها ضعاف القلوب والنفوس.

وهذا شاطئ تل ابيب وقد أقبل الصيف يسلط قواه الكهربائية وفنونه السحرية على المتخنثين من شباب العرب، مهاجماً تلك القلوب الخالية من كل وسائل الدفاع والمناعة، على حد قول إبراهيم، وستكون الوقعة سوداء، وسيكون بلاء ما بعده بلاء.

اما الشباب - ولابد من الإنصاف - فهناك طبقة منهم هزيلة الخلق ضعيفة الإيمان مخنثة العواطف. وعندي طريقة ناجحة لمعرفة هذه الطبقة وتمييزها، وهي أن ترى ميلها وذوقها في اختيار اسطوانات الغناء، هذه الطبقة لا يطربها إلا هذا الطراز من الغناء فاسمع.

يا ماما بدي عريس

بـدي عـــــــريس طـري افـنـدي

مـــا يقـــوم ابدأ من حـــدّي

مـــثل الدولاب مـــا يهـــدّي

يفـــرّحني ويدلّعني ويتـــشـــتـــشني

ولقد رايت أحد هؤلاء الشبان يبكي لسماع مخنثات محمد عبدالوهاب وأسطوانات هذا المغني في نظري - والأخيرة منها خاصة - من أخطر ما يسمعه الشبان معنى وتلحيناً، هذا شر لا أستطيع إلا أن ألقي شيئاً من التبعة فيه على الحكومة. فمن شأن إدارة المعارف في الحكومات المختلفة أن تراقب هذه الأسطوانات مراقبتها لأفلام السينما والتصاوير والكتب والمجلات الإباحية، وكما أنها لا تسمح ببيع هذه وانتشارها وتعمل المقص بالفلم قبل عرضه، فمن الواجب أن تمنع أسطوانة مثل «يا ماما بدي عريس» وتدعو بالنشرات إلى التنفير من سماع الألحان المخنثة، وعسى أن تتناول جرائدنا هذا الموضوع، فهو أوسع وأهم من أن يحيط به هذا التعليق.

نابلس

قدري حافظ طوقان

****

فلسطين ١٩٣٤/٥/٢٠

حول مقال «دولة نسائية»

أخي ابراهيم!

الدولة النسائية اعتزت بمقالتك ولا ريب، وإني لأكاد أرى ابتساماتهن تلمع على الشفاه الغالية من وراء الخدور... أما تفتح قلبك الذي ظلمه العاذلون ولاموه على الخفوق، واستقبل النور؟ أوَما سمعت همساتهنّ في عالم الغيب فعدت إلى الهوى القديم واستسلمت للماضي..؟ لا أكتمك أنني امسكت بقلبي حين رأيت دولتك النسائية، وأنت تعلم انه قلب ضعيف لا يقوى على اية مقاومة، وصممت على أن اقف بجانبك إذا تمت حركة تطويقهنّ عند زحفهنّ الأخير.

وما رأيك إذا كانت جيوش الرجال المحشودة لمحاربة النساء تحت إمرتنا؟ إننا سنقودهم إلى الهزيمة طبعاً، ويرفع كلانا راية بيضاء يطلب الانضمام إلى صفوف بنات كليوباطرة.. وسنعرض على أميرة الجيش قلبين لم يخفقا إلا للحسن والحسان فتغفر الذنب وتُلحقنا بالجيش وتعيّنك أنت مستشارًا فنياً للفرقة الزاحفة على الناصرة وكفر كنة لتحمي الرمان والغزلان، أما أنا فسأرضى برتبة شاويش في الفرقة الزاحفة على عكا من جهة البحر.. وأين أنت يا نابليون لترى كيف تُفتح حصون عكا (تلك التي أعيتك وصدّتك...) أمام العيون والسحر، ورحم الله زميلنا جميلاً فقد كان أول من تنبه إلى هذه المعدات الحربية حين قال:

بثينةُ من صنفٍ يُقلِّبنَ ايديَ الرْ
رُماة، وما يحمِلْن قوْساً ولا نَبْلا
ولكنما يظفرنَ بالصيد كلما
جلونَ الثنايا الغرَّ والأعينَ النُّجْلا

وسوف لا أطلب إلا ذلك الشخص الذي اقترح أن تُلقى الغواني في البحر، وسأتفنّن في تعذيبه تفننًا عجيباً، وسأطلب بعد التعذيب من مندوبة عكا قائدة الشمال وهي فاتنة سمراء تخجل سُمر الرماح، وأؤكد لك أنها لو اهتزت في الحجاز لاستلمت بلاد اليمن كلها، أقول سأطلب منها أن تصوّب على هذا المخلوق عينين هما من آيات الله حتى يغيّر لونه الهوى الشمالي ويرتمي صريعاً جزاء عناده وكفره ثم تكون بطون الحيتان مقره الأخير.

... تمت الغلبة ورُفعت رايات النصر على دوائر الحكومة في كل مكان وسرت في الجو نفحات الهوى وأنفاس العذارى، واجتمعت المندوبات في المؤتمر لانتخاب أركان الدولة النسائية العتيدة أطال الله أيامها، وكانت مندوبات الشمال أكثرهن قوة وفتنة، فنالت أصوات الرئاسة مندوبة عكا ونيابة الرئاسة حازتها مندوبة كفر كنا، وقد أحرزت الثقة وزارة صاحبة الدولة الرئيسة مندوبة القدس لأنها اختارت وزيراتها من جميع الأحزاب وقد جرى كل ذلك بعد الغمز واللسان وتقطيع الشَّعر.

.... الآن المجلس الحربي العالي منعقد، وتبدو على وجوه صاحباته أمارات الغضب الشديد، وُدقّ الجرس فدخلت، لأنني لا أخفي عليك الحارِس الأمين، يعني «البواب» ولا فخر، فقالت لي الرئيسة:

«ادع لنا إبراهيم طوقان لأنه متهم بجريمتين؟ الأولى: أنه وضعنا في شعب بوان حيث كنا غريبات الأوجه والألسنة وأهمل وادي العقيق في الحجاز مهوى الصبابات ومثار الذكريات، والثانية: أنه لم يضرب مثلاً إلا بتهديم كفر كنا وإبادة رمانها وغزلانها».

انتهت الرئيسة من كلامها فنظرت إلى العيون وإذا بها تبرق وترعد فوقفت أمام الباب وأعضائي ترتجف وقلت بصوت متهدج:

إبراهيم طوقان!.. تفضل يا مسكين.. أعانك الله...

أبو سلمى

****

«فلسطين»

الأحد ١٩٣٤/٧/٢٢

نظرة في صفحة الأدب

كاتب هذه السطور أديب متقاعد يرقب نتاج القرائح في الصحف والمجلات بشغف زائد، وشوق ملحّ، ويبتهج أيما ابتهاج عندما يرى لشباب فلسطين قصيدة أو مقالة، ويتحرك في قلبه ساكن العواطف، وما يدريك لعل وراء هذا القلب الذي يغالب الستين من السنين اليوم ناراً، ولعل هنالك تلك (البقية) التي عناها البهاء زهير في قوله:

عندي من الطرب القديـ ـم بقيّةٌ في الزاويه

وابن الستين (وبلّغتها) قد يثقل عليكم بالتطويل والتلطف في الدخول إلى الموضوع، ولكن هي عادتنا وعليها نشأنا، وكنا نذهب في ميادين فن البديع كل مذهب فنمعن في التورية ونُغرب في التضمين والاقتباس، وكنا نطوي وننشر ونرصّع ونطرّز ونفوّت... مالا يحسن عندكم اليوم هذا إذا لم يصبح في مجالسكم للتفكّه والمباسطة...

وبعد فقد اطلعت على «صفحة الأدب» التي حررها الأديبان طوقان وأبو سلمى في عدد الأحد الماضي وما قبله، وقرأت لهما في المرتين طرائف ومُلحاً، ولكن ذلك لم يخل من مآخذ أحببت أن أسجلها على صفحات جريدة فلسطين الغراء التي لها الفضل الأول في حركة الأدب في فلسطين بتخصيصها له مكاناً من صفحاتها، هذا وأرجو أن يكون انتقادي بريئاً محمولاً على محمله الحسن الذي قصدت إليه.

ولا بدّ من القول ابتداء أنني تمكنت من رد كل قطعة إلى كاتبها، وتوصلت بالحيلة (والكريم يُخدع يا استاذ طوقان..!) إلى أن صفحة الأدب الأولى – التي بعثت ذات الخال ترفل في سحرها وفتنتها – ليس للأستاذ طوقان فيها حرف واحد، وإنما نسبت إليه المشاركة فيها ليكون أمام الأمر الواقع فيشترك في الصفحات المقبلة وهكذا كان، فقد طلعت صفحة الأحد الماضي وفيها لطوقان تلك القطع الأربع الأولى التي جعل مسك

ختامها حديثاً لشاعر لم نسمع به هو الدكتور وجيه البارودي، وهو كما يلوح لي من جزالة أبياته ودقة تعبيره ضارب في صناعة الشعر بسهم وافر، فهل لزميله الأستاذ طوقان أن يزيدنا من نفحات هذه الشاعرية الناضجة، ويجلو لنا تلك الروح الهائمة على ضفاف العاصي؟!

أما (البرلمان النسائي) فهو لأبي سلمى صريع الغواني و(عريب) كذلك، وهاتان القطعتان هما اللتان حملتاني على الخروج من عزلتي لأقول كلمتي:

أيا أبا سلمى، انصحك ولا انتقدك وأتمنى لك التوفيق في حياتك الأدبية والغزلية، لا أزاحمك في نظرة فقد أفنت قلبي النظرات.. ولا أتصدى دونك لابتسامة فقد طالما خدعتني الابتسامات.. لا بل إن لي من جسمي المحطم وعمري المتوغل في عقود السنين ما ينبغي لك معه أن تطمئن وتأمن جانبي. ووالله لو كنت من اترابك، ولو يُردّ علي ذلك الشباب الفينان، واللمة السوداء الغدافيّة إذن لأريتك أنك مقارع خصماً عنيداً في ميدان الغزل ولكن:

الـةُ الـعــيش صــحّــةُ وشـــبــابُ

فـــإذا ولّـيـــا عـن المرء ولّـى

(البرلمان النسائي) و(عريب) قطعتان كنت أود لك الا تنشرهما، أما عريب ففيها تطرف وفيها ما تسمونه اليوم (ادباً مكشوفاً) وهو الذي كنا نسميه (إحماضاً) تفادياً من عدّه في الأدب.. واعلم حفظك الله واصلحك، أن الصحف تدخل الخدور ويتناولها الفتيات فلا ينبغي لها أن تنتقل إليهن من عريب وأترابها إلا الأدب الراقي لا مباذلها بين صواحبها.

واما (البرلمان النسائي)، فقد عجبت لك فيه كيف خرجت على عادتك من التغني بالجمال والترنم بالمحاسن، وكيف احتملت ان تقيم بين تلك المقابح التي ذكرتها من شَعر منفوش وأفواه كالكهوف وأجسام مترهلة «ووجوه يومئذ عليها غبرة. ترهقها قترة»، عجبت لك كيف أقام خيالك في قاعة برلمان العجائز وبين عجائز البرلمان إلى ان سجل وقائع تلك الجلسة الرهيبة.

لقد أخفقت في (البرلمان النسائي) ولم يؤاتك الإبداع فيه، وإذا كنت أخشى عليك شيئاً فإنما أخشى من تغلب الخنوثة على الرجولة، فعالج مواضيعك بعد اليوم - شعرًا ونثرًا - عن غير هذا المسلك، واجعل للجد من قلمك القدير نصيباً أوفى وسهماً أوفر مما أعطيته، ولا إخالك إلا منتصحاً وفاعلاً إن شاء الله، أتم الله عليك شبابك وأبقاك.

أديب متقاعد

****

متفرقات عن الشاعر
جمعتها من الصحافة الفلسطينية
وبعض قصائد له وجدتها بخط يده
بعضها بدون عنوان أو تاريخ

فلسطين - ٧ كانون ثاني، ١٩٣٣
العدد ٢٦٥ - ٢٢٢٣
ص ٥

قصيدة أرسلها الشاعر (أبو سلمى) إلى صديقه الشاعر (إبراهيم طوقان) وهو على فراش المرض.

عشت أبا جعفر

حـــالُ ابـي جـــعـــفـــرِ   فـي حـــبّـــه حـــالـي
يـجـــعـــل الامَـــــه   جـــســـراً لآمـــالِ
كـنّـا نـظـنّ الـهـــــوى   كـــمـــا يـرى الخـــالي
إذا بـه مـــــــا لا   يـــخـــطـــر فـــي بـــال

✡✡✡✡

نَـنْظم يـا صـــاحـــبـي   ذوْبَ فـــــــــؤادَيْـنـا
دمـــعـــاً وشـــعـــراً وهل   نـســـعـــد مـــا بـيـنـا
فـــيـــا عـــذارى الحِـــمى   ايـن الـهـــــوى ايـنـا؟
داويـــنـــنـــي بـــالـــذي   يُـضـنـي تـعـــاطـيـنـا

✡✡✡✡

يـا قلبُ فـــات الصِّـــبـــا   فـــابـكِ على الماضـي
قـــد ذبـتَ بـين الـرضـــا   وبـــين إعـــــراضِ
كـــــزهـرةٍ فـي الـرُبـى   ســـاعـــةَ إغـــمـــاض
تمـــوت بـــين الـــنـدى   حـــيـنـاً وإعـــراض

✡✡✡✡

عـــشـتَ ابا جـــعـــفـــرِ   لـلـحُـبّ والـشـــعـــرِ
رصّـــعـتَ أُفْـقَ الـهـــوى   والـشـــعْـــرِ بـالـزهـر
فـضَـحْـتَـه فـهْـو من   عـــطـــرٍ إلـــى عـــطـــر
والـشـــعـــرُ لـلحـبّ كـم   يـهـــتـك من سِـــتـــرِ

****

الدفاع

الأربعاء ٢٠/٦/١٩٣٤م

العدد ٤٨ ، ص ٨

قصيدة من شاعر صديق اسمه أبو يحيى إلى الشاعر إبراهيم طوقان:

وافتر إبراهيم

ليس افـــتـــتـــاني بـالطيــــو

رِ تــهــبُّ تـشـــــدو فــي البُـكـورْ

شـــدوًا يـشــعـــشـع فـي نـفـــو

سِ ذوي الـصـــبـــابـاتِ الـســـرور

أو بـــالـــريـــاض يمـــيـــس فـــي

جَـنَبــــاتـهـــا زَهـرُ الـزهـور

فـــتـــضـــوع ريّـاهـا مُـــعَطّـ

ـطَرةً فـــتـنـتـــعـش الـصـــدور

أو بــالجـــــــداول وهْـي تجْــ

ـري مِـــشـــيـــةَ الـرجلِ الـوقـــور

يـنـســـاب مـــا بين الخـــمـــا

ئلِ مـــاؤهـا عـــذبَ الخـــريـر

بـاشـــــدٌ مـنـه بـالمـعِـيْ

يِ لَـوْذعـيٍّ مُـــســـتـنـيـــر

إنْ خـــاض في بحـــر الـبـــيـــا

نِ، ارتـدّ بـالـدُّرّ الـنـضـــيـــر

أو جـــال فـي نـظـم الـقَـــريـ

ـضِ ، اتـى بمـا يُـعـــيـي جـــريـر

أو قـــــــام يـخـطـب فـي الـنـوا
دي الحَـــفْلَ يمتلك الشـــعـــور

أو راح يســـتــدعي الصـــخـــو
رَ تفـــجَــرتْ منهـــا النُّهـــور

لـــو ان لــيـلَ الحـــــــــادثـا
تِ عـــدا بشـــرٍّ مـــســـتطيـــر

وانــتــــــاب كـلَّ الـنـاسِ فـي اذْ
لِهْــمـــامِــهِ الأمـــرُ العــســيـــر

وغـــدَوْا حـــيـــارى ليس فـــيـــهم
مَن يـرى كـــيـــف المصــــيـــر

وافـــــتـــــرُ إبـراهـيـمُ بَـيْـ
ـنَ الـنـاسِ كـــالبـــدر المنيـــر

لانجــــابتِ الـظـلـمــــاتُ وانْـ
ـفَـــتــحتْ مـــغــــاليقُ الأمـــور

انـــا لـــم ازل فـــي الـــنُّـظْـم يـــا
اســتــاذُ ذا بـاعٍ قــصـــيـــر

«أبو يحيى»

****

وحـــــيـــــاة مـن رقّـــةٍ وســــلامِ

خـلـصـتْ مـن شــــوائـب الاكـــــدارِ

طار فـيـهـا شـعـرُ الـتـهـاني مع الـبَـرْ

قِ فـــيـــا طيبَ هذه الأخــــبـــار

غــيــرَ اني ســـمــعتُ من الْسُنِ الوا

شينَ قـــولاً وهُنّ غـــيـــرُ قِـــصـــار

ان برقـــيـــةً اتتكم حـــديـثـــاً

بجـــوابٍ في غـــاية الاخـــتـــصـــار

اصـــحـــيحَ ابا الولـيــدِ وحقٌ؟

زعـــمُــهم ان نَعـــدّه خُنْفُـــشـــاري!!!

****

باقة أخبار
عن شاعر الوطن
إبراهيم طوقان

٢٤/٨/١٩٣٤ - ألف باء

تكريم شاعري فلسطين

(في الكلية العلمية الوطنية)

اغتنم أعضاء المجمع الأدبي فرصة وجود شاعري فلسطين النابغتين الأستاذين إبراهيم طوقان وعبدالكريم الكرمي في الربوع الشامية، فأبوا إلا إظهار عواطف هذه الربوع نحو أبناء الربوع الشقيقة، فوجهوا دعوة للأدباء والوجوه والأعيان، لتكريم ضيفينا العزيزين وذلك في الساعة السادسة من مساء يوم أمس.

وما أزفت الساعة المعينة حتى دلف المدعوون جماعات وأفراداً إلى الكلية العلمية العائدية، واحتل كل منهم مكانه المعد له.

وفي الساعة السادسة والنصف اكتمل عدد المدعوين وكان بينهم سعادة رئيس بلدية نابلس الأستاذ سليمان بك طوقان المصطاف في لبنان، فصعد حضرة الأستاذ المربي الكبير الدكتور منيف بك العائدي منبر الخطابة وافتتح الحفلة بكلمة موجزة، ثم أعقبه الدكتور منير العجلاني، وأعلن على الجمع انتساب المحتفى بهما إلى المجمع الأدبي، وترك الكلام إلى الشاعرين أنور العطار وجميل سلطان حيث أخذ كل منهما على عاتقه تقديم واحد من المكرّمين.

وقف الشاعر الأديب السيد أنور العطار خطيباً وألقى كلمة مطولة فنّد بها روح الأستاذ طوقان الشاعرية وأتى على قسم من أدبه الجم، ومن ثم أعقبه الأستاذ السيد جميل سلطان وعرّف عن أدب وشاعرية الشاعر الخفيف الروح السيد عبدالكريم الكرمي.

وما كاد السيد جميل سلطان ينتهي من خطابه، حتى تقدم الدكتور السيد العجلاني وطلب من الشاعر الفذ الأستاذ إبراهيم طوقان إلقاء كلمة على الجمهور، فصعد السيد طوقان المنبر وألقى كلمة تتناسب مع المقام، ثم ألقى قطعتين من نظمه، الأولى قصيدة

(الشهيد) والثانية قصيدة (الفدائي)، فقوطعتا بكثير من التصفيق ونالتا استحسان الجميع. ثم صعد المنبر بين عاصفة من التصفيق الشاعر اللبق السيد الكرمي (أبو سلمى) وأتى على ذكر اخيه الأديب الكبير المرحوم أحمد شاكر الكرمي، من أنه أحب دمشق، ودمشق أحبته، وأبت عليه إلا أن يبقى لها فكان ما أرادته الفيحاء. ثم أعلن الدكتور السيد العجلاني ختام الحفلة بعد أن قدم شكر المجمع الأدبي لحضرة الدكتور العائدي لتقديمه كليته إلى أعضاء المجمع لإقامة الحفلة بها، وشكر الحاضرين على تشريفهم الحفلة.

****

حفلة تكريم الشاعرين طوقان والكرمي

لئن جزأت السياسة سورية فالأدب وحّدها

كنا أشرنا إلى الحفلة التي أقامتها إدارة الكلية العلمية الوطنية بالاشتراك مع المجمع الأدبي في دمشق لتكريم شاعري فلسطين الأستاذ طوقان والأستاذ الكرمي لما خُصًا به من شاعرية فياضة وفكرة ملهمة، وفي الموعد المضروب أخذ المدعوون يتوافدون إلى دار الكلية العلمية.

افتتاح الحفلة:

وفي الساعة السادسة وقف الدكتور منيف بك العائدي عميد الكلية العلمية، فألقى كلمة طيبة رحب فيها بالمدعوين وبالشباب العربي في مختلف الأقطار وبالشاعرين المحتفى بهما وبالمجمع الأدبي الذي أخذ على عاتقه تعزيز الثقافة العربية في الديار السورية.

كلمة العجلاني:

ثم وقف الدكتور منير بك العجلاني وأعلن انتساب الشاعرين طوقان والكرمي إلى المجمع الأدبي وأنهما سيمثلانه في الديار الفلسطينية، وتناول في حديث ما للمحتفى بهما من مكانة عالية في الشعر العربي الحديث، وقال إنهما بانضمامهما للمجمع قد جعلا دمشق عاصمة أدبية لسورية وفلسطين فالسياسة جزأتهما والأدب وحدهما.

خطاب العطار:

ثم وقف الأستاذ أنور العطار وألقى كلمة نشرناها في مكان آخر من هذا العدد.

كلمة الأستاذ سلطان:

ثم وقف الأستاذ جميل سلطان والقى كلمة يراها القارئ في الصفحة السادسة من هذا العدد.

قصيدة الأستاذ طوقان:

وبعد ذلك وقف الشاعر الأستاذ إبراهيم طوقان والقى كلمة قصيرة ثم انشد قصيدتين رائعتين استعيدت بعض أبياتهما بالتصفيق والاستحسان، وقد نشرناهما في مكان آخر من هذا العدد.

كلمة الكرمي:

ثم وقف بعده الأستاذ عبدالكريم الكرمي (أبو سلمى)، والقى كلمة طيبة عاطرة مع أبيات قالها في دمشق ومغانيها استعيدت أبياتها، وهي منشورة في مكان آخر من هذا العدد، ثم انفض المدعوون معجبين بروعة الحفلة.

****

الدفاع

الأحد ٩/٢/١٩٤١م ، العدد ١٩٥، ص ٤

ورد هذا الخبر في جريدة الدفاع عن شاعري فلسطين العظيمين: إبراهيم طوقان وأبي سلمى

«محاضرة»

ألقى الأستاذان إبراهيم طوقان «وأبو سلمى» في نادي الشبيبة الأرثوذكسية بيافا مساء أمس محاضرة أدبية طريفة موضوعها: (الحب والغزل عند شعراء بني امية) فاستلبا الألباب برقة موضوعهما وطرافته وبإجادتهما إجادة قوية ممتعة.

****

من الأستاذ طوقان

أرغب في أن يعلم قراء الدفاع الأغر – والنابلسيون منهم خاصة – الا علاقة لي مباشرة أو غير مباشرة بما ينشره مراسلها النابلسي، كما أنني لا اطلاع لي على شيء مما يبلغه لها من حوادث المدينة وما يعلقه من رأي او اقتراح على أخبارها، فهي على مسؤوليته، وتفضلوا بقبول الاحترام.

نابلس

إبراهيم طوقان

الدفاع: ونحن نعزز قول الأخ إبراهيم بأن المراسلات لا تتصل به، وأن الدفاع تعتز به نصيراً كريماً ومعيناً بالكلمات الأدبية التي يرسلها من حين لآخر، أما الرسائل المحلية فيرسلها مراسل خاص.

****

كلمات في إبراهيم
ومقالات تتناول شعره

الدفاع: عدد ٢٤ ، صفحة ٥

الأربعاء ٥/٢٣

حديث الشباب

إلى الشاعر الأستاذ إبراهيم طوقان

كاتب هذه الكلمة محب لقريضك، معجب به، وإعجابه يكون على أشده ساعة إذ يجيء هذا القريض وطنياً قوياً جياش الروح، مفرطاً في العنف والقوة والإبداع، وقد كان يقرأ لك (الساعات الثلاث) فكأنه امام وحي علوي، لا أمام أبيات من الشعر فاض بها خيال لسان بعيد الأفق والمرامي، لماذا إذن هذا الاتجاه يا إبراهيم؟؟؟؟ إن أكثر الناس إشفاقاً منه لهم أولئك الذين عرفوا مبلغ الإبداع في قصيدتك، حتى ليكون هذا القصيد صوتاً داوياً يستفز النائمين - وهم كثر يا أيها الشاعر - إلى اليقظة والعمل والجهاد.

قصيدة ترسلها الشاعرية الممتازة، الشاعرية الرحيمة بصاحبها، الرحيمة بوطنها، الرحيمة بأهليها، قصيدة من هذا الطراز تفعل اكثر مما تفعله ما تراه كل يوم من مقالات، ورواح ومجيء، وأخذ وردّ، وقصيدة مثل هذه تستطيع قيثارتك أن ترسلها فيحفظها كل فتى عربي في هذه البلاد، يرتل أبياتها في ظلام الليل وفي شعاع القمر، في الغروب وفي السَّحَر، في المنزل وفي الحقل وراء المحراث، في السير وفي النزهة على مرابع الوطن الغالي.

إبراهيم: أن لنا أن نتخلص من عبء هذه الأغاني الرخيصة، اغاني الشفق والنسيم، أغاني العبث والهوى، لماذا؟؟

لأن الأمة تسير إلى الفناء يا إبراهيم ليس إلا، فحَريّ بالميت المسافر أن ينشد انشودة استقبال الموت في قوة، لا أن ينشد انشودة الضعف في استقبال الحلم والخيال والصور الخوادع، أرني امة بين الأمم يهبط خلقها إلى درجة أن تسير عمياء، ثم لا تعلم من ذلك إلا انها تسير إلى «زفة»، هذا تغافل أو هو الغفلة عينها، لا ترموا الذين يناشدونكم الواجب وشعوركم العالي - أيها الشعراء - بأنه أجوف لا قلب له، قد يكون، إذ تصدع

هذا القلب من هول الزلازل التي عصفت بالوطن الحبيب، قد يكون إذ ذابت حشاشة هذا القلب بكاء على المآسي التي نشهدها كل يوم من قبل الإنكليز والصهيونيين، قد يكون إذ القلب في شاغل عن ليلى والرباب بالوطن الذبيح المعذب.

سماعاً إبراهيم... شاعريتك هذه الفياضة الا حبستها على وصف الألم الذي يعانيه الحبيب الأكبر، الوطن، واي شاعر أحَنّ على الوطن من الذي حباه الوطن بالقوة الشعرية الممتازة؟؟

اي شاعر احنى على الحبيب الأكبر من الذي رتّل «الساعات الثلاث» فأبكى وأوجع، وأغضب وأحقد، وقال للقتلة:

ساءت عاقبة الظالمين.

الوسط يا إبراهيم، يرجوك هذا الضعيف أن تغيره، وهو يرجو «قدري» أن ينصره في ذلك، وسلام محب معجب.

اسم الكاتب (إبراهيم)

ملاحظة للمؤلف: كلمة (الوسط) تعني هنا (البيئة) كما هو واضح.

****

أشـواك وأزهـار

عنق كل أديب، والذي يعزينا – إن كان هناك عزاء – أن أشعاره كلها تقريباً محفوظة ومنظمة، لا ينقصها إلا التعليق والتحليل، وإلا سنوح الفرصة للطبع، حتى يسمع الزمن خفق قلب الشاعر وتخفَّ الحياة لأغانيه، والحياة كالمرأة تسمع رنين المال أكثر من خفق القلب، وتُسحَر ببريق الذهب أكثر من بريق العينين لكنها بعد غياب الشاعر وراء الأفق يستفيق قلب الحياة كما يستفيق قلب المرأة، فتناجي قلب الشاعر وتستمع إلى خفقهِ من وراء الغيب، وإلى أغانيه من خلف السحب فتهمي دمعة غالية هي أجمل رثاء للشاعر الغائب. وشعر إبراهيم الذي تغنى بالحب والوطن رسم الابتسامة على كل شفة، سيخلق ديوانه بعد غيابه الطويل في كل عين دمعة كانت غالية هي عزاء الشاعر.

والشاعر الذي يضع من شبابه وقلبه في شعره لا يعيش طويلاً وكذلك كان إبراهيم، لقد تنبأ بأنه سيودع هذه الدنيا وهو لم يتجاوز الأربعين، قال:

يلذُّ لي يا عينُ أنْ تسهدي
وتشتري الصفوَ بطيب الكرى
لي رقدةٌ طويلة في غدٍ
لله ما أعمقها في الثرى
ألم تَرَيْ طيرَ الصِّبا في يدي
أخشى من الغفلة أن ينفرا
طال جناحاه وقد يهتدي
إلى أعالي دوحه مُبْكِرا

....

أرى الثلاثين ستعدو بيَه
مغيرةً أفراسُها في الركابْ

وبعـــد عـــشـــرٍ يلتـــوي عُـــوديه
ويـنضب الـزيتُ ويخـــبـــو الشـــهـــاب

والتوى العود ونضب الزيت وهو لم يبلغ الأربعين، ولكن الشهاب، هذا الشهاب الذي لم تحمل يد في فلسطين مثله منذ مئات السنين، يضيء في كل أفق وفي كل قلب وفيٍّ نبيل.

والكلام عن إبراهيم لن ينتهي. كان الأخطل الصغير كلما رأى إبراهيم سأله عني وكلما رآني سألني عنه لأنه اعتاد أن لا يرانا إلا معاً.

ولما حلّت الفاجعة ورآني بعد ذلك وحيداً، التفت إلي واضطرب السؤال على شفتيه وأخيراً قال وشفتاه ترتجفان: أين إبراهيم! لقد احترق قلبي.

«أبو سلمى»

ملاحظة المؤلف: لم نجد نسخة أو صورة الصفحة الأولى، بداية هذا المقال، ونورد تتمته رغم أنه مبتور.

****

٤ آب، ١٩٣٣

الدفاع/ العدد ٣٢٢

صور

إبراهيم طوقان

شاعر الأوطان والتين والرمان إبراهيم بن عبدالفتاح طوقان، بشاشة منتشرة في سماء فلسطين من كفر كنة إلى البلد الأمين:

هل كـــفـــركنة مــــرجعٌ لي ذكـــرُها
مـــا فـــاتني من عنفـــوان شـــبـــابي
أم في صــــبـــاياها وفي رُمّـــانـهـــا
مــــا يبــــعث المدفـــونَ من آرابي

عذب النغمات ساحر الرنات، تقسَّمَ بين هوى دفين ووطن حزين، وإذا هاجته الذكرى تكلمت العاطفة وأصغت القلوب:

وا حـنـيـنـي إلـى ديـاركِ والـرمّــــــــا
نُ دانٍ يُـــظِــلّ أهـــلَ الـــديـــارِ

ثم تستبد الذكريات وما أكثرها فيتكلم الدمع، والدمع أفصح لسان، وإذا رأيت الدموع تترقرق في حنايا السطور فاعلم أن القوة في الشعر والعاطفة بلغت حد الكمال في الشاعر.

يتلمس من مسارح الظباء في كل يوم هوى جديداً، وفي كل «مشروع» هوى يتطلب لغة أهله، فهو حجة اللسان الألماني في حلقة لا يملك فيها لساناً غير لسان أتراب (مارلين ديتريش)، وقاموس اللغة الإسبانية إذا تعرض لنفحات غيد أشبيلية.

افـــدي بروحي غـــيـــدَ اشـــبـــيـلـيــةْ
وإنْ انقْنَ القلبَ صـــابَ الـعـــذابْ

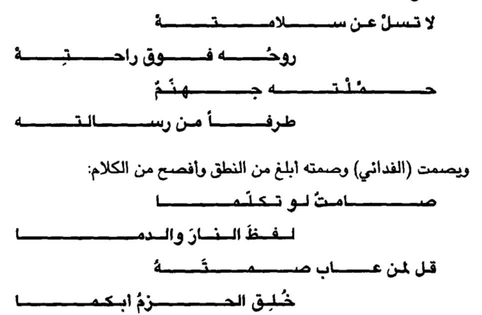
ومرجع اللغة الإفرنسية إذا خطرت في طريقه إحدى بنات (السين)، واللغة الإنكليزية لسان مدرسي يسيّره كما يريد الهيام والسلام.

ومن هذا المجموع تتألف شتى الأنغام كما يريدها العباس بن الأحنف، ولكنها أنغام عاطفة ضحضاحة، أما الأنغام التي تنفث حنيناً وتبعث أنيناً فتلك أوجدها الهوى الأول، وأحببْ بالهوى الأول، وهو الشغف الجامح الذي مكّنه من ذؤابة شعر الوجد فأرسله مقطعات هي خلاصة حبه وذوب قلبه تلمع على صفحات الأفق في أسمى مكان، ولم يبق له منه إلا (صندوق) الهوى المنزوي في غرفته كصندوق العجائب، وإلا قوله: (كان يا ما كان).

هذه حياة عاطفية ذات ألوان عديدة، لو وزعت على أشخاص لأخرجت منهم أصحاب مرح وفتنة وأولي شوق وأمل.

☼☼☼☼

وهناك حياة عاطفية ثانية هي الوطنية الثائرة التي تلهب جوانح إبراهيم فتدوي الصيحة ويندلع اللهيب:



لا تسلْ عن سلامته

روحُه فوق راحتِه

حمّلته جهنّمُ

طرفاً من رسالته

ويصمت (الفدائي) وصمته ابلغ من النطق وأفصح من الكلام:

صامتٌ لو تكلّما

لفظَ النارَ والدما

قل لمن عاب صمتَهُ

خُلِق الحزمُ ابكما

وتترنح الشهداء على الأعواد في يوم الثلاثاء الحمراء فلا نجد شاعراً يطبع يوم الخلود في سجل تاريخ فلسطين غير إبراهيم:

لما تَعــــرّضَ نجـــمُكَ المنحـــوسُ
وترنَّحت بـعُـــرى الحـــبـــالِ رؤوسُ
نـاح الأذانُ واعــــــول الـنـاقــــوسُ
فـــالليلُ اكـــدرُ والنهـــارُ عَـــبـــوسُ

فهذه الشاعرية القوية التي تنطق في شعر إبراهيم، وتلك الديباجة المشرقة التي تزينه، كل ذلك جعله يخفت الأنوار من وهاجةٍ وباهتة لشعراء وأدعياء ويتمتع بلقب شاعر فلسطين.

والمرح الفاتن والخلق النبيل من مميزات الشاعر، وإنك إذا اجتمعت إلى إبراهيم وجدته قصيدة شادية، مقاطعها ضحكات عريضة، أوزانها ابتسامات حلوة، فتتحقق المرح الراقص رقصات الأحلام في ليالي الشباب، وإذا اتصلت به واشتدت العلاقة عرفت حسن الخلق وطيب النفس، وهما خلق ونفس الشاعر كل الشاعر فتنعم بالإخلاص والإخاء.

أما لطافة (النكتة) وعذوبة (الحديث) وخفة (الظل)، فجميع هذه على هامش الشخصية ذات التعاجيب شخصية شاعر فلسطين وشاعر (الرمان والتين)!.

اسم كاتب المقال «عجيب».

****

إبراهيم طوقان شاعر الحب والثورة

التاريخ... تاريخ أي أمة سجل حافل.. يوثق وقائعها: حضارة وتراثاً... وقائع تضعها أسماء تظل خالدة ماثلة لأجيال وأجيال.. وعلى درب مسيرة الحضارة الفلسطينية.. ثمة أعلام.. وأعلام خلدها التاريخ كمشاعل تنير الدرب نحو المستقبل المأمول.. إنها أعلام لا تنسى رغم الرحيل.

الشاعر إبراهيم طوقان من أبرز الشعراء الذين التزموا بقضية وطنهم أمثال زملائه الشعراء: عبدالرحيم محمود، وعبدالكريم الكرمي «أبو سلمى» وبرهان الدين العبوشي، وغيرهم ممن عاشوا في تلك الفترة من تاريخ النضال الفلسطيني.

وقد كُتب عن شاعرنا مئات المقالات والدراسات المتفرقة التي تبحث في شعره وحياته موزعة على صفحات الصحف والمجلات.. بالإضافة إلى العديد من الكتب.. أهمها كتاب «أخي ابراهيم» بقلم شقيقته الشاعرة المعروفة فدوى طوقان.. وقد صدر هذا الكتاب عن سلسلة الثقافة العامة، التي كانت تصدرها المكتبة العصرية في يافا سنة ١٩٤٦.

وقد تناولت فيه سيرة حياة شقيقها الشاعر إبراهيم الذي اختطفه الموت وهو في ريعان الشباب وقمة العطاء.. ونشر هذا الكتاب بعد وفاته بخمس سنوات، تخليداً لذكراه وأدبه.

ويعتبر هذا الكتاب من الدراسات القليلة النادرة التي تحدثت بتوسع عن حياته ومسيرته الشعرية، وسجلت ايضاً أدق التفاصيل عن أخباره وشخصيته.. وكذلك تحدثت عن طفولته وصباه وشبابه.. وعن عبقريته المبكرة، وارتياده عالم الشعر ونجاحه فيه.. وعن الأشخاص الذين ساهموا في توجيهه وصقل موهبته الشعرية.. إذ إنه من أهم المراجع التي لا غنى عنها لأي باحث أو كاتب، حيث كتب بأسلوب أدبي مشوق، تجلت فيه عاطفة الأخوة ورقة المشاعر.

وافتتحت الشاعرة الكتاب بقصيدة عنوانها «إبراهيم» هذا نصها:

اي لحـــون وعن ســـمع الزمنْ
بعـثـتـهـا من نبضات الفـؤادْ
اودعـتـهـا الروحَ تناجي الوطنْ
فـيـهـا، فـتـهـتـزّ الربى والوهاد
ثم ترامـيـتَ صـريعَ الوهن
مـخـضّبَ الجـرحِ، سليبَ الضـمـاد
وامـتـنـع الشـدة، كـأن لم يكن
وجـذوةُ القلبِ اسـتـحـالت رمـاد

وتم تثبيت أهم ما جاء في هذا الكتاب في الديوان الذي حمل اسم «ديوان ابراهيم طوقان»، وخاصة الطبعة الصادرة سنة ١٩٨٤م عن دار المسيرة ببيروت الذي أشرف على طبعه شقيقه أحمد. وقد اعتمدنا في هذا الدراسة على كتاب «أخي إبراهيم» و«ديوان إبراهيم طوقان».

****

سيرة حياة:

ولد شاعرنا في مدينة «نابلس» سنة ١٩٠٥ إبان الحكم التركي للبلاد العربية ومن ضمنها فلسطين، من عائلة عريقة وغنية.. وقد عاش في بيئة محافظة.. وتلقى تعليمه الابتدائي في «المدرسة الرشادية الغربية» التي تميزت عن المدارس الأخرى بأنها «كانت تنهج في تعليم اللغة العربية نهجاً حديثاً لم يكن مألوفاً في مدارس نابلس في العهد التركي، وذلك بفضل بعض المدرسين النابلسيين الذين تخرجوا من الأزهر، وتأثروا في مصر بالحركة الشعرية والأدبية التي كان يرفع لواءها شوقي وحافظ «وغيرهما من شعراء مصر وأدبائها» ومكث بها أربع سنوات، انتقل بعدها إلى مدرسة المطران في القدس وكان الأستاذ نخلة زريق معلم اللغة العربية من أساتذته الذين تركوا أثراً عميقاً في نفسه، وحببه في قراءة الشعر وكنوز الأدب العربي.. وفي هذه الفترة حاول شاعرنا أن يقول الشعر، ولكنه لم يوفق في ذلك لعدم اطلاعه على علم العروض بعد.. وقد انتهى من تحصيله في مدرسة المطران سنة ١٩٢٢ – ١٩٢٣.

في الجامعة:

ثم انتقل إلى الجامعة الأميركية في بيروت لمتابعة دراسته العليا.. حيث بدأ يعيش في جو جديد، وفي مدينة جعلته يميل إلى الشعر بقوة، وينظم أجمل القصائد.. تقول فدوى: «في هذه الجامعة، يعرفه شقيقه أحمد بأحد أصدقائه من الطلاب، وهو (سعيد تقي الدين)، وسعيد من أولئك الذين يتذوقون الشعر، ويميزون بين صحيحه وزائفه تمييزاً صائباً، فيلمح هذا في شعر إبراهيم بارقات وصوراً شعرية، تلوح من هنا وتستتر هناك، وتساند أحمد وصديقه سعيد، وبدأا يوجهان إبراهيم التوجيه الصحيح في عوالم الشعر ودنياواته الرحيبة الجميلة».

وتقول أيضاً: «ولقد كان من أكبر الأسباب التي أعانته على أن يقول الشعر فيجيده بالقياس إلى صغر سنه، هو كثرة حفظه للشعر المنتخب، واحتفاله الكبير بالقرآن الكريم، فقد كان كثير التلاوة له، عميق النظر فيه، وأما ذلك الاحتفال منه بكتاب الله فإنه يرجع

بدواعيه وأسبابه إلى بيئة في البيت، يُعنى أصحابها بتنشئة أطفالهم على تلاوته والتشبع بروحه، ولم ينفك إبراهيم منذ صغره يقرأ القرآن ويطيل التأمل فيه لا يعوقه عنه عائق ولا يصرفه عنه تقلبه في مختلف معاهد العلم الأجنبية».

ملائكة الرحمة:

وفي عامه الدراسي الثاني في الجامعة، كانت شاعريته قد بدأت تتفتح، وتمتلئ لتنبثق عن معينها، بعد أن أخذت عدتها من الصناعة الدقيقة صناعة الشعر.

كانت قصيدة «ملائكة الرحمة» التي نظمها الشاعر في الممرضات، أول قصيدة لفتت الأنظار إليه في سوريا، وقد نظم هذه القصيدة سنة ١٩٢٤، إثر مرضه ونشرها في جريدة «المعرض» التي كانت تصدر يومئذ في بيروت، ونُشرت هذه القصيدة في أكثر من مجلة منها مجلة «سركيس» التي علقت عليها بقولها: «ولعله من أول من نظم شعراً عربياً في هذا الموضوع»، وكذلك مجلة «التمدن» في الأرجنتين التي علقت على القصيدة بقولها: «لو كان كل ما ينظمه شعراؤنا في هذا الباب من هذا النوع، لكان الشعر العربي في درجة عالية من القوة والفتوة».

ومن أبيات هذه القصيدة:

بيضُ الحمائمِ حسبهُنَّه
إني أردّد سجعهُنَّه
رمزُ السلامةِ والودا
عةِ منذ بدء الخلقِ هنَّه
في كل روضٍ فوق دا
نيةِ القطوفِ لهنّ أنّه
ويملنَ والأغصانَ ما
خطَرَ النسيمُ بروضهنَّه
فإذا صلاهنّ الهَجيـ
ـرُ هبَبْنَ نحو غديرهنَّه

وتعلق شقيقته فدوى على هذه القصيدة فتقول:

«اما هذه القصيدة فهي وإن تكن قد قيلت في موضوع المرضات، غير أن قسماً كبيراً منها كان في وصف الحمام، تلك الطيور الوديعة، التي كان يغرم بها إبراهيم، ويعنى باقتنائها وتربيتها، «أيام صباه».

وفي سنة ١٩٢٥ نشرت له جريدة «الشورى» التي كانت تصدر في مصر نشيداً وطنياً لتحية المجاهد عبدالكريم الريفي، فلما اطلع الشاعر خير الدين الزركلي على النشيد قال: «إن صدق ظني، فإن صاحب هذا النشيد سيكون شاعر فلسطين».

وفي الجامعة نظم شاعرنا عدة قصائد في الغزل، بعد أن غزا الحب قلبه، وألهمه قول أحلى الأشعار التي سجل بها مشاعره وعواطفه الجياشة، منها قصيدة «في المكتبة»:

وغـــريـرةٍ في المكتـــبـــه
بجــمــالهــا مُــتَنقّــبَــةْ
ابصــرتُهــا عند الصــبــا
حِ الغضِّ تُشــبــه كــوكــبــه
جلستْ لتــقــرأَ او لتكــ
ـتُبَ مــا المعلّمُ رتّبــه
فــدنوتُ اســتــرق الخطى
حــتى جلستُ بمقــربه
ونهــيتُ قلبي عن خــفــو
قٍ فــاضحٍ فــتــجنّبَــه

****

قصيدة الشهيد

وقد نظم شاعرنا العديد من القصائد الوطنية، التي تركت آثارها في نفوس أبناء فلسطين، وفتحت عيونهم على حقائق كثيرة، وشحنتهم بالعزم والقوة للوقوف في وجه الغزاة والتصدي لهم بكل ما ملكت ايديهم ، ونقدم هنا هذه الأبيات من قصيدة (الشهيد)، وهي القصيدة الأولى في ديوان إبراهيم طوقان، نظمها في الذكرى السنوية الرابعة لرحيل الشهداء الثلاثة:



عبس الخطبُ فابتَسمْ
وطغى الهولُ فاقتَحَمْ

رابطَ الجاشِ والنهى
ثابتَ القلبِ والقدم

لم يُبالِ الأذى ولم
يثنِهِ طارئُ الألم

نفسُهُ طوعُ هِمّةٍ
وجمتْ دونها الهمم

سار في منهج العلى
يطرق الخلدَ منزلا

لا يبالي مكبّلا
ناله ام مُجَدّلا

فهْو رهنٌ بما عزمْ



ربّما غاله الردى
وَهْو في السجن مرتهَنْ
لم يشيَّع بدمعةٍ
من حبيبٍ ولا سكن
ربّما أدرج الثُّرا
بَ سليباً من الكفن
لستَ تدري بطاحُها
غيَّبَتْه امِ القُنَن
لا تقلْ اين جسمُه
واسمُه في فم الزمن

وهكذا كان شاعرنا، جذوة متقدة تشتعل بالثورة والغضب من خلال كلمات وحروف قصائده التي ظلت خالدة على مر الزمن!.

وفي سنة ١٩٣٠، سافر شاعرنا إلى بيروت ليدِّرس في الجامعة الأميركية.. تلك الجامعة التي تَخرّج منها، واحبها، لأنها شهدت بدايات موهبته الشعرية.. وبيروت، المدينة الرائعة الممتدة على شاطئ البحر كان له فيها ذكريات جميلة، ارتسمت في ذاكرته، وخلدها في شعره:

أوّلُ عهدي بفنون الهوى
بيروتُ، انعِمْ بالهوى الأولِ

وفي نهاية العام الدراسي الثاني قدم شاعرنا استقالته من الجامعة، عاد بعدها إلى فلسطين ليعمل في مهنة التعليم في المدرسة الرشيدية في القدس.

ومن جديد، أحس بالضيق والملل من هذه المهنة، وقد يكون لمرضه الذي بدأ يشتد مع الأيام أحد الأسباب الرئيسة لذلك، فقد كان يعاني من «صمم في أذنه وقرحة في معدته، ثم

استعداد في أمعائه لأنواع الالتهابات»، وقد دخل المستشفى أكثر من مرة، وأجريت له اكثر من عملية.. ومن شدة ما لاقى من إجهاد في التكلم ومشقة في مقارعة الطلاب، دفعه ذلك إلى نظم قصيدة بعنوان «الشاعر المعلم» يرد بها على قصيدة الشاعر الكبير احمد شوقي حول المعلم حيث يقول فيها:

«شوقي» يقول وما درى بمصيبتي
«قُمْ للمعلّم وَفّهِ التبجيلا»
اقعدْ، فديتُكَ هل يكون مبجّلاً
من كان للنشء الصغارِ خليلا!
ويكاد يفلقني الأميرُ بقوله:
«كاد المعلّمُ أن يكونَ رسولا»
لو جرّبَ التعليمَ شوقي ساعةً
لقضى الحياةَ شقاوةً وخمولا

وترك التعليم في المدرسة الرشيدية، وعاد إلى نابلس ليعمل موظفاً في دائرة البلدية.. حيث كان في هذه الفترة يوالي نشر قصائده الوطنية في جريدة «الدفاع» التي كانت منبراً حراً لكل الأقلام النزيهة المخلصة.

سنواته الأخيرة:

وفي سنة ١٩٣٦ تم تأسيس الإذاعة الفلسطينية، واختير ليكون مراقباً للقسم العربي فيها.. حيث قدم عبر الأثير الأحاديث الأدبية الشيقة، والمناظرات الأدبية المتنوعة يشترك فيها مع بعض الأدباء.. وقد عانى كثيراً من خلال عمله بالإذاعة بسبب إخلاصة لرسالته التي نذر نفسه لها، واضطر إلى الاستقالة بعد أربع سنوات من العمل، وفي الثاني من ايار عام ١٩٤١م، رحل عن هذه الدنيا بعد أن أنهكه المرض وسلب منه الصحة والعافية، وهو في عز الشباب! ودُفن في مسقط رأسه نابلس مأسوفاً عليه، ومودّعاً بدموع حَرّى.. وقد رثاه رفاقه ومعارفه من الشعراء والأدباء، وقيلت عنه

مئات الكلمات التي خلدت ذكراه.. فها هو الشاعر عبدالكريم الكرمي «أبو سلمى» يلقي قصيدة رثاء في «حفلة أربعين رفيق العمر إبراهيم طوقان» حملت عنوان: «يا أخي».

نقتطف منها هذه الأبيات:

كـــيف أبكي وكـــيف يبكي قـــصـــيـــدي

ومـــضـى الـيـــومَ طارفي وتـلـيـــدي

ايْ أخي والـحـــيـــاةُ بـعـــدكَ قـــفـــرٌ

والـفـــضـــاءُ الرحـــيب دارُ الحـــديـدِ

الـلـظـى ملء خـــاطـري وفـــؤادي

وإهـابـي والـعـــيشُ غـــيـــرُ رغـــيـــد

أيـن تمـضـي؟.. لمـن تـركـتَ الـقـــوافـي

والمروءاتُ خـــافـــقـــاتُ الـبـنـود

****

المكشوف في ٢٤ شباط، ١٩٤٧

العدد ٨٤

فضيحة (النشيد القومي) للأخطل الصغير

أسئلة (٨) أجوبة

إن «عصبي» جريدة «بيروت» الغراء - أو الأستاذ عبدالله مشنوق - إنساني كبير يلتمس الأعذار للذين لا يلتمسونها لأنفسهم، فيسمي السرقات الأدبية توارد خواطر، حتى لو كانت هذه السرقات فاضحة، كالسرقة الشعرية الجديدة التي أقدم عليها الأخطل الصغير وظفر من أجلها بتهنئة وزارية!

كتب الأستاذ مشنوق في جريدة «بيروت» الغراء بعنوان «توارد خواطر عجيب!» الفقرات التالية:

«... لعل أجمل ما عثرت عليه من توارد في خواطر الأدباء، هذا الشبه العجيب بين نشيد لبنان الجديد الذي نظمه شاعر العرب الأكبر الأستاذ بشارة الخوري وهنأه عليه حضرة وزير التربية، ونشيد «موطني» لشاعر فلسطين الأستاذ إبراهيم طوقان.

قال الأخطل الصغير:

لبنان، لبنان ... إلخ...

الجـــمـــالُ رصَّـــعـــا

بــازاهــيـــر رُبــاكْ

والجـــلالُ تُـوِّجـــا

بمــصــابــيـح هــداكْ

والـيـــراعُ والحـــســـامْ

في الملمّـــات الجـــســـامْ

كـــلَّ آن، كـــلَّ آنْ

وقال شاعر فلسطين:

موطني!

الجلالُ والجمال والسناء والبهاء في رباكْ!

والحياةُ والنجاةُ والهناء والرجاء في هواكْ!

الحسامُ واليراع لا الكلام والنزاع رمزنا ..... إلخ

اما مقطع «كل آن، كل آن» ففيه توارد خواطر غريب بين الأخطل والأستاذ عمر فروخ الذي يقول في قصيدة «سفينة الحيوانات» على لسان الدجاجة:

تعطي البيضَ للإنسانْ

كل آن كل آنْ!

☆☆☆☆

انا أربأ بشاعر العرب الأكبر أن يلتجئ إلى أمثال هذه السرقات! وأعتقد أن القضية توارد خواطر بسيط! - عصبي».

انتهت نكرزة الأستاذ مشنوق، ومنها يتضح - بالرغم من اعتقاد صاحبها الساذج - أن الأخطل الصغير لا يزال يعيش في شعره على حساب غيره. وكان قبل سنة ١٩٣٧ يختار ضحاياه بين شعراء الفرنسيس أمثال موسه، وشاتو بريان، ورولينا كما كشف عن ذلك الشاعر إلياس أبو شبكة في سلسلة من المقالات الطنانة نشرتها له الزميلة «العاصفة» منذ ثلاث سنوات، فما باله اليوم يتحول عن هذا الصراط المستقيم؟ هل نسي اللغة الفرنسوية وأعوزه ترجمان، أم تراه اعتقد أن بات من الخير أن يذكر الناس بأنه شاعر مولد؟ أم شاب وما تاب؟.

ومتى عرف الأخطل الصغير أن الأستاذ عبدالله مشنوق كان لا يزال يؤمن بشاعريته أدرك الخسارة الكبيرة التي تناله من افتضاح أمره في هذا النشيد القومي!.

وعلى ذكر «القومي» نطرح أسئلة تتطلب أجوبة:

١ – ما هو راي إبراهيم طوقان بهذه السرقة؟

٢ – ماذا حل بالنشيد الوطني الذي نظمه رشيد نخلة والذي اختارته لجنة خاصة من بين مئات الأناشيد ومنها نشيد للأخطل الصغير نفسه؟.

٣ – ما راي رشيد بك نخلة في هذا الاعتداء الصريح على نشيده؟

٤ – ما الفرق بين الوطني والقومي؟

٥ – هل كان للجنةٍ مؤلفةٍ بمرسوم «لإعادة النظر في الكتب المدرسية» أن تتمنى على وزير التربية الوطنية ما تمنت عليه؟.

٦ – ما قيمة راي هذه اللجنة في موضوع يخرج عن دائرة صلاحيتها.. واختصاصها؟.

٧ – ما هو العقاب الذي يستحقه «عصبي» من أجل هذه الفضيحة التي كان الأخطل الصغير ينتظر صدورها عن كل الناس، إلا عن الأستاذ عبدالله مشنوق؟

٨ – ما هو، أخيراً، شعور الأخطل الصغير قبيل ذهابه إلى بغداد للاشتراك في تكريم الزهاوي أمام هذه الفضيحة الجديدة يغسله رشاشها من راسه إلى أخمص قدميه؟

ف.ح

****

البلاغ

١٢ شعبان، سنة ١٣٥٤هـ

٩ نوفمبر، سنة ١٩٣٥م.

الأدب

في الشرق العربي

من شـعـراء فلسطين المشـهـورين (إبراهيم طوقـان) وهو من أبناء نابلس ومن كرام أسرها، وأكثر شعره في الغزل والوطنيات، وله شعر كثير في الهجاء والمجون، ولكنه ينظم هذا على سبيل المداعبة والتفكه ولا ينشره، وهذا الضرب من الشعر تتناقله الألسنة في المجالس، ويذيع بين الناس، كما يذيع الشعر في البادية بالرواية ولا يحس له احد الماً لأن المعروف أن الغرض منه هو الفكاهة ليس إلا.

وإلى القراء مثالين من شعر هذا الشاعر:

١ - صورتها المكبرة:

برّح بي الشوقُ فلمّا طغى
فزعتُ للرسم فكبُرتُهُ
وما شفى داءً، ولكنّما
قلبي شكا البعدَ فعَلّلْتُه
ولم أجد في الرسم اخلاقَها
جرّبتُها حيناً وجرّبتُه
ظلّ وقد ناجيته باسماً
ولم يمانع حين قبّلْتُه

منتظري في غرفتي دهرَهُ
جودُ بخيلٍ ما تعوّدته

عرفتُ للرسّام إبداعَهُ
وعدتُ للرسم فأنكرته

قد فاته ذلُّ تمنيّتُهُ
فيها ومَطلٌ كم تذوقته

لو جاءني الرسام بالمشتهى
....

٢ - في رثاء الكاظمي:

سلْ جنّةَ الشعرِ ما الوى بجنتها
حتى خلَتْ من ظلال الحسن والطيبِ

ثم يقول:

أبا المكارمِ قم في الحفل مرتجلاً
مهذّباتكَ لم تُصقَل بتهذيب

واضرمِ النارَ إن القوم هامدةٌ
قلوبُهم، ذَلَّ قلبٌ غيرُ مشبوب

وانفخْ إباءكَ في آنافهم غضباً
فقد تُحرك أصنامَ المحاريب

تمكّن الذلُّ من قومي فلا عجبٌ
الأ يبالوا بتقريعٍ وتأنيب

ما أشرفَ العذرَ لو أنَّ الوغى نثرتْ
أشلاءهم بين مطعونٍ ومضروب

لكنْ دهتْهم أساليبُ العداة وهم
ساهون لاهون عن تلك الأساليب

ويقنعون بمبذولٍ يلوّحه
مستعمروهم بتبعيدٍ وتقريب
كانهم لم يشيدوا مجدَ اولهم
على السيوف واطراف الأنابيب
يا رائداً كل ارضٍ اهلُها عربٌ
يجتازها نِضوُ تصعيدٍ وتصويب
ومنشداً عندهم علماً ومعرفةً
بحالهم بين إدلاجٍ وتاويب
هل جئتَ منهم اناساً عيشُهم رغدٌ ؟
ام هل نزلتَ بقُطرٍ غيرِ منكوب ؟
ام ايّ راعٍ بلا ذئب يجاوره
إن لم تجد راعياً شراً من الذيب ؟

☼☼☼☼

ابا المكارمِ اشرفْ من عُلاكَ وقلْ
ارى فلسطينَ ام دنيا الأعاجيب
وانظرْ إلينا وسرِّح في الحمى بصراً
عن الهُدى لم يكن يوماً بمحجوب
تجدْ قوياً رعى وغْدَ الدخيلِ ولم
يكن لنا منه إلا وعدُ عرقوب
ومرّ سبعٌ وعشرٌ في البلاد له
وحكمُه مزجُ ترهيبٍ بترغيب
قد تنتهي هذه الدنيا وفي يده
مصيرُنا رهنُ تدريبٍ وتجريب
حالٌ ارى شرُّها في الناس منتشراً
وخيرُها للمطايا والمحاسيب

☼☼☼☼

هل في فلسطين بعد البؤس من دعةٍ
أم للزمان ابتسامٌ بعد تقطيب
كم حقّق العزمُ والإعجال من أملٍ
وخاب قصدٌ بإمهالٍ وتقليب

☆☆☆☆

ويرى القارئ من هذين المثالين أن الشاعر يجري على عرق عربي صميم، وإن كان قد تعلم في الجامعة الأميركية في بيروت، ولكنه لا يقلد في أغراضه ومعانيه، وإنما يقول بوحي من شعوره الخاص. ويلاحظ أن القوم في فلسطين يعنون بتتبع الحركة الأدبية في الغرب، ولكن الخطر السياسي الذي يهددهم يحملهم على الحرص الشديد على صبغتهم العربية، ويحميهم - في فاتحة نهضتهم الأدبية - من أن تجرفهم الثقافة الغربية وتنسيهم أصولهم.

إبراهيم المازني

****

جريدة القبس

٢٢ آب، ١٩٣٤

«طـوقــان»

طوقان شاعر موهوب رقيق الحس مشبوب العاطفة، خصب الأخيلة، خيّر الصور، يمتاز أسلوبه بالصفاء والعمق، فاللفظ حلو رشيق، والفكرة عميقة مختمرة، تكشف لك كلما رجعت إليها صورة جديدة، ويستهويك اللفظ فتستعيده فيترك في نفسك من الأنغام الساحرة شبيه ما يتركه غناء البلبل إذا طاف بالورد.

وهو في نفسه قصة شعرية محزنة تشبه في حبها الخائب قصة الشاعر الفرنسي الخالد «موسه»، فلقد أحب وهو يدرس في الجامعة الأميركية في بيروت فتاة فلسطينية كانت هناك، وعلقها وعلقته، وأخذ يستلهم روحها اشعاره الشجية البارعة، ويصوغ من جمالها عالمه المسحور الموشّى بما في ألف ليلة وليلة من صور وألوان. ثم عاد إلى نابلس بعد أن أحرز على الشهادة العالية في قسم الآداب، وعادت هي إلى بلدها، فلم يمض قليل حتى زُوّجت من قريب لها فأوجع الشاعر هذا النبأ، وأشجاه ان يُستلب منه هذا الحلم الفاتن الذي نضّره وزينه وخلع عليه أحلى الأماني، فتصدّع قلبه وانجرح وتَمشّى إليه الألم يحز في نفسه حزاً، وتفتحت شاعريته كما تتفتح أزرار الورد في حقول الربيع فتترع الأجواء عبقاً وعطراً.

وأبت روحه الشاعرة إلا ان تمتد بألمها وتباهي بانكسارها تلقاء حب خائب وهدى غير موفق، فعاش بالمنى واقتات بالذكرى، وغنى فسكب نفسه في اغانيه:

اولُ عـــهـــدي بفنون الهـــوى
بيـــروتُ، انعِمْ بالهـــوى الأولِ

مـــــــددتُ، لمـا قـلـتُ قـلـبـي ارتـوى
يـدي، فـــــــرنَّـه عـن المـنـهـل
بـيـــروتُ، لو شـــئتُ دفـــعتُ الـهـــوى
طوعـــاً، ولـم اهـجـــركِ فـــالـويـلُ لي

أي رفيقي طوقان! إنك مثل الشاعر فوزي المعلوف الذي يقول فيه (فرنسيسكو فيلا سباسا) كبير شعراء الإسبان في هذا الجيل: «إنه استطاع بفن عجيب أن يعتقل في قفص ابياته الذهبي، الطائر العربي النادر، هو طائر ذو ريش من المخمل الناعم الأسحم ومنقار من الصوان، وعينين من العقيق، وقد فقأ مقلتيه كما تُفقأ مقلتا البلبل ليزداد شجوه شجواً وترديده عذوبة».

أي رفيقي طوقان! غنّ وليبارك الله لك في الحانك الشجية، واترك الألم يُنقِّ النفس ويُصفِّ الروح ويأخذ بها إلى معارج المثل العليا، أما كان «موسه» يقول:

«لن يـجـعـلنا عظمـاء غـيـر الألم العظيم»..

وهذا شوقي الخالد يقول:

تَفـــرّدتُ بـالألـم الـعـــبـــقـــريِّ
وانـبـغُ مـــا فـي الحــيـــاة الألـمْ

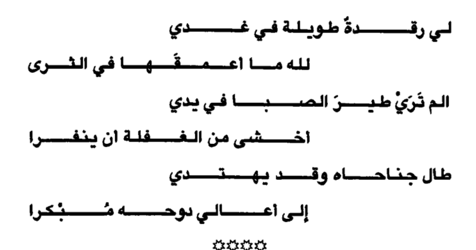
فعش للحب واسلم للهوى الستَ القائل:

انـا ابـنُ زيدونَ وتـصـــبـــو لِيَـــه
ولأدةٌ فـي دمـــهـــا والإهـابْ

✿✿✿✿

ولمن هذه الأنة الستَ صاحبها:

يـلـذّ لـي يـا عـينُ ان تـســـهـــدي
وتـشـــتــري الـصـــفـــوَ بطيب الكرى


لي رقدةٌ طويلة في غدي
لله ما اعمقَها في الثرى
الم تَرَيْ طيرَ الصبا في يدي
اخشى من الغفلة ان ينفرا
طال جناحاه وقد يهتدي
إلى أعالي دوحه مُبْكرا

☆☆☆☆

هذا طوقان المحب، يعطيك الذ ما تنصت إليه الأذن، وأعذب ما ينطق به اللسان، وأفتن ما يتحدث به القلب. فما الشعر عنده إلا ما قادك إلى غرقه المستحب، وسبحه المستطاب.

وهو من أصحاب الأدب الذاتي يسكب نفسه في أشعاره، ويفيض على صوره الجمال والحياة، تراه في كل أثر من آثاره صورة حية ناطقة. يستطيع طوقان أن ينقل الناس في سهولة ويسر إلى عالمه، والنقل صفة من صفات العبقري، فهو وحده قادر أن ينقل الناس إلى عالمه ويشاركهم في نوازعه كلها حتى يشقوا بما يشقى به وينعموا بما ينعم.

☆☆☆☆

وطوقان شاعر مصور، وصوره تتكلم، فهي تشبه ربيعية البحتري تختال وتزهو حتى يخيل إليك انها تريد أن تتكلم.

فإذا أردت أن تتحق صدق ما أقول، وتعلم كيف يستطيع الشاعر أن يُنطق الحروف، فاستمع إلى طوقان يصف الديك الحبشي وهو يُذبح ويأبى إلا أن يتعلق بالحياة، فهو يفر من الموت ليقع في الموت، قلت: إن طوقان يمتاز بعمق الفكرة وبعد النظر وما أعمقه في قصيدته «الحبشي الذبيح»:

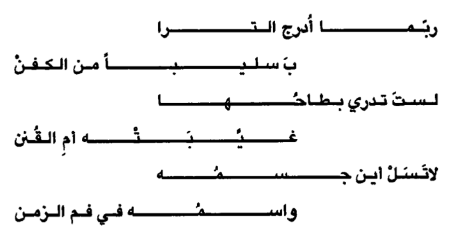
برقتْ له مسنونةٌ تتلهَّبُ
امضى من القدر المتاحِ واغلبُ
حزّتْ فلا خدُّ الحديدِ مخضّبٌ
بدمٍ ولا نحرُ الذبيحِ مخضّب
وجرى يصيح مصفّقاً حيناً فلا
بصرٌ يزوغ ولا خطىً تتنكّب
حتى غلَتْ بي ريبةٌ فسالتُهم:
خانَ السلاحُ أم المنيّةُ تكذب؟
قالوا: حلاوةُ روحه رقصتْ بهِ
فاجبتُهم: ما كلُّ رقصٍ يُطرب
هيهات دونَكَهُ قضى فإذا بهِ
صَعِقٌ يُشرِّق تارةً ويغرِّب
وإذا به يزورُّ مختلفَ الخطى
وزكيّةٌ موتورةٌ تتصبَّب
يعدو فيجذبه العياءُ فيرتمي
ويكاد يظفر بالحياة فتهرب
متدفقٌ بدمائه مُتقلِّبٌ
متعلّقٌ بذِمائه مُتوثّب
اعَذابُه يُدعَى حلاوةَ روحه؟
كم منطقٍ فيه الحقيقةُ تُقلَب
إن الحلاوةَ في فمٍ مُتلمِّظٍ
شَرَهاً ليشربَ ما الضحيةُ تسكب
هي فرحةُ العيدِ التي قامت على
الم الحياةِ، وكلُّ عيدٍ طيِّب

✡✡✡✡

ومن أشعار طوقان الرائعة الفذة قصيدته اللاهبة الطافحة بالحماس «الثلاثاء الحمراء» وهي من شعر الإيمان، يصف فيها مصارع الأبطال الثلاثة في فلسطين وقد نفذ بهم حكم الإعدام في ثلاث ساعات متوالية، فصور الشاعر هذه الساعات الثلاث أصدق تصوير، وقد قسم قصيدته البارعة ثلاثة أقسام، صور في القسم الأول اليوم الرهيب الذي صُلّب فيه أبطال فلسطين الثلاثة، وصور في القسم الثاني الساعات الثلاث تتكلم كل واحدة عن صاحبها، ثم صور في القسم الثالث الخاتمة.

ولست أقول في قصيدته «الثلاثاء الحمراء» إلا ما قاله فيها الشاعر الملهم بشارة الخوري: «إننا لنقرأ هذه القطع الذائبة للشاعر طوقان فنتخيّله قد استُشهد ثلاث مرات مع كل شهيد مرة، أفلا ترى هذه الأجزاء المتقطعة من نفسه، والخيالات السوداء التي تطوف في كل بيت من قصائده كما تطوف الأحلام السكرى برؤوس الذين قُرِئت على مسامعهم الأحكام بقتلهم».

وتستمعون الآن يا سادتي إلى طوقان وهو يصف الشهيد المجهول الذي يستشهد معه كثير من الأبرار:


ربّما أُدرج الترا
بَ سليباً من الكفنْ
لستَ تدري بطاحُها
غيَّبتْه أمِ القُنن
لاتَسَلْ اين جسمُه
واسمُه في فم الزمن

ثم يصور نفسه الذائبة الهائجة:

تلتقي في مزاجها
بالأعاصير والحُممْ



تجـمع الهـائجَ الخِضَمْ

ـمَ إلى الراسخ الأشم

وَهْي من عنصر الوفا

ءِ، ومن جوهر الكرم

ومن الحقّ جذوةٌ

لفْحُها حرُّ الأمم

أو يصف الفدائي الذي يكاد يشتعل دماً وناراً:

يرقب الساعةَ التي

بعدها هولُ ساعتِهْ

بين جنبيه خافقٌ

يتلظَّى بغايته

من رأى فحمةَ الدجى

أُضرمتْ من شرارته

حمَّلَتْه جهنّمٌ

طرفاً من رسالته

أجل! سترون يا سادتي كيف يقدر طوقان أن ينقل الناس إلى عالمه الذي صاغه خياله، فإذا هو حقيقة ماثلة تموج فيه الحياة وليس مجرد ألفاظ براقة، فما أصدق «فيكتور هيجو» حيث يقول: «إن الكلمة كائن حي».

نجتمع الليلة يا سادتي لنكرّم شاعرين لامعين استطاعا بما أوتياه من عبقرية خيرة وأدب مبدع، أن يستوليا على مقدرات الأدب في فلسطين الحبيبة، وهما لا يزالان في موجة الشباب.

إننا لنكرم الليلة شاعرين ملهمين ولدا للشعر، وعاشا للشعر، وقد ألفت بين قلبيهما محبة الأدب، فما طوقان والكرمي إلا روح واحدة يتقاسمها جسدان.

ولست أقول فيهما إلا ما قاله «المسور بن عبدالملك» في «جميل بثينة» و«كثير عزة»: (ما ضر من يروي شعر جميل وكثير الا تكون عنده مغنيتان مطربتان)».

أنور العطار

من المجمع الأدبي

****

من القلب

ذكرى إبراهيم:

مضيت إبراهيم، ولم تمض وغبت ولم تغب، مضيت بالجسم الناحل الضعيف، وخلفت الروح العظيمة الكبيرة، غبت عن العين وأنت ساكن في كل قلب.

يقولون إن حفلات التأبين تخليد الذكرى وأنت خالد ولو تعمّد الناس نسيانك. وهل يموت الشاعر الأديب بعد أن بثّ الأثير نفثاته، وسطّر الخلود بليغ أياته. خضت يا إبراهيم بحور الشعر وغصت فيها مفتشاً عن اللآلئ المكنونة، وخرجت إلى الملأ تنثر عليهم من تلك اللآلئ ما أغنيت به أفئدتهم، وأشبعت به رغباتهم، وما أردت على ذلك أجراً، وطبيعة الشاعر أن يكون كريماً، وهل هناك أكرم ممن يجود بنفسه على الآخرين وليس لَهُ من وراء ذلك إلا النشوة بلذة الكرم والعطاء.

كنت وفياً يا إبراهيم لأصحابك وعارفيك ولا إخالهم إلا كذلك بعد غيابك الطويل، وأول بادرة من ذلك هو الحفل الجامع الشامل الذي أقيم في بلدك نابلس أمس، فلمسنا فيه الشعور بفداحة الخسارة وعظم المصيبة، وود كل من حضر لو أفصح عن مكنون صدره وعميق تأثره، وما عسى ذلك أن ينفع إذا لم تُجمع دررك، وتنتظم لآليك ثم تُنشر على الملأ يتحلّون بها ويزين الأدب فرائدها، وما ذلك على أصحابك بعزيز.

****

الشاعر الذي قضى..

إلى روح إبراهيم طوقان

بقلم الأديب الأستاذ «البدوي الملثم».

ننشر فيما يلي الكلمة التي أرسلها الأستاذ «البدوي الملثم» من شرق الأردن إلى لجنة الاحتفال بأربعين المرحوم إبراهيم طوقان بنابلس:

كما تمر النسمة الغادية العاطرة! أو نغمة الغناء العذبة! وكما ينطلق لحن الموسيقى الجميل! هكذا انطلق شاعر فلسطين الملهم إبراهيم طوقان إلى جنة الخلد، ماخطاً من أنفه عالماً طائشاً جانباً تفيض معاطسه باروداً وشروراً! هازجاً بالشعر لغة السماء! مردداً في عروجه إلى الملأ العلوي على مسمع كل عابر نشيد صنوه شاعر الخلود المرحوم (فوزي المعلوف) أمسية امتطى طيارة حملته فوق أجواء البرازيل مخاطباً جماعة الطير بقوله:

لا تخـــــافي يا طيـــــرُ مـــــا أنا إلا

شـــاعـــرٌ تطرب الطيـــورُ لشـــعـــرِهْ

زاركِ اليـــوم َمـــتـــعـــبـــاً ينشـــد الرا

حـــــةَ في هداة السكونِ وســـــحـــــره

فَـــــرّ عن أرضـــــه فـــــراركِ عنهـــــا

من أذى أهـلـهـــــــا وتـنـكـيـلِ دهـره

كان أول من نقل إلى مسمعي اسم الشاعر المعطار الذي نجتمع اليوم لإحياء أربعينه عدد من مجلة (التمدن) الأرجنتينية لمنشئها الخطيب اللبيب حبيب إسطفان، وقد نشر في صدره قصيدة نظمها شاعرنا الفقيد في المستشفى عنوانها (ملائكة الرحمة!) ضمنها

عبير امتنانه للممرضات اللواتي قمن على خدمته خلال مرضه، وقد وشحها الأستاذ إسطفان بتوطئة رائعة قال فيها:

«والقصيدة في رأينا من ألطف ما وصلت إليه قرائح الشعراء في هذا الباب، فهي من السهل الممتنع في رقة معانيها ولطف قافيتها وسمو خيالها وجمال ما فيها من الوصف، ولو كان كل ما ينظمه شعراؤنا في هذا الباب من هذا النوع لكان الشعر العربي في درجة عالية من القوة والفتوة».

قرأت كلمة العلامة العربي حبيب إسطفان، فأيقنت أن العربي الألمعي إسطفاناً لا يصرف مثل هذا القول جزافاً إلا لشاعر توسم فيه النجابة والنبوغ، فتطلعت نفسي منذ ذلك اليوم إلى هذا الشاعر الموهوب، ورحت من توي ألحظ روائعه بعين الاهتمام، فكنت أزداد إعجاباً بما تتفتق عنه المخيلة الطوفانية المرعة من نفثات مجنحة، ما زالت أنفاسها مرفّةً فوق خمائل بيروت وندوات أدبها المعطرة التي كانت شغوفة بما ينتج خيال هذا الشاعر المبدع من دعابات وطرائف كان من شأنها أن رفعت أسهماً! وأنزلت أسهماً، فأقبلت صحافة بيروت على نشر روائع (أبي جعفر)، وراحت صحف المجموعة العربية تنقل عنها كل ما تحمله ريشة إبراهيم القديرة من أصباغ وصور حية.

من الناس - كما يقرر ذلك نقادة الأدب العربي الأستاذ ميخائيل نعيمة - من إذا جالستهم ساعة مللتهم وضرعت إلى ربك ألا يجمعك بهم ثانية، ومنهم من تجالسهم دقيقة فتود لو تجالسهم دهراً.

(والشاعر) كما يحلو لميخائيل نعيمة أن يعرفه في موضوع آخر:

نبي وفيلسوف ومصور وموسيقي وكاهن

نبي: لأنه يرى بعينه الروحية مالا يراه بشر!

ومصور: لأنه يقدر أن يسكب ما يراه ويسمعه في قوالب جميلة من صور الكلام.

وموسيقي: لأنه يسمع أصواتاً موزونة حيث لا نسمع نحن سوى هدير وجعجعة! والعالم عنده كله ليس سوى آلة موسيقية تنقر على أوتارها أصابع الجمال.

وكاهن: لأنه يخدم إلهاً هو الحقيقة والجمال ويظهر له هذا الإله في أزياء مختلفة، لكنه يعرفه أينما رآه، ويقدم له تسابيح حيثما أحست روحه بوجوده.

وإنك لواجد هذه الخصائص شائعة بارزة في شعر فقيد الأدب العربي المرحوم إبراهيم طوقان الذي جاءت وفاته خسارة فادحة لدولة الشعر، ولو رحت تلتمس هذه الخصائص في شعر إبراهيم لوجدتها شائعة في سائر منظومه، ودونك الأبيات التالية التي تشير إلى براعة إبراهيم (المصور):

برّح بي الشوقُ فلما طغى
فزعتُ للرسم فكبَّرتُهُ
وما شفى داءً ولكنما
قلبي شكا البعدَ فعلّلتُه
ولم أجد في الرسم أخلاقها
جرّبتُها حيناً وجرّبتُه

ونَفّسْ عنك بوارح هذه الحياة المستهترة في نظرك إلى هذه اللوحة الشعرية الرائعة ذات الطيوف والاظلال:

يا - فوزُ - ويلي منكِ يا قاسيه
عذّبتِني ظلماً كفى ما بيَهْ
أراكِ في اليوم ثلاثاً ولا
أنال إلا النظرةَ الجافيه

واللهِ لو تدرين مـــا قـــصتَــتي

مـــا كنتِ عن حـــالي إذن راضـيــه

بل كنتِ لي عـــونــاً على غـــربتي

وكنتِ لي راحــــمـــةً أســـيـــه

مـــــرضتِ اياــمـــاً ولم تطلعي

ظللتُ فــيــهــا مــهــجـتي دامــيــه

اســال عنكِ الناسَ مُــســتــخــبِــراً

ولهـــانَ ادعـــو لكِ بالعـــافــيــه

حــــتى إذا ابللتِ يا منيــــتي

خــــفَّفَ عني اللهُ بلوائـيــــه

بُشـــراكَ يا قلبي فــقــد اصــبــحتْ

تغـــدو إلى ملعــــبـــهـــا ثانيــه

ودونك إبراهيم (الفيلسوف) في أبياته الرائعة:

يلذّ لي يا عينُ أن تســــهـــــدي

وتشـــتـــري الصـــفــوَ بطيب الكرى

لي رقـــــدةٌ طويلـة في غــــدِ

لله مـــا اعـــمـــقَــهـــا في الثـــرى!

الم تَرَيْ طيـــرَ الصِّـــبـــا في يدي

اخـــشى مع الغـــفلة أن ينفـــرا

طال جناحــــاه وقـــد يهـــتـــدي

إلى اعـــالي دوحــــه مُـــبكِرا

وأما إبراهيم (الكاهن) فتراه متزمّلاً بمسوح العابد المتبتل في موشحه (نشيد الحجاز!) وقد استهله بقوله:

بلادَ الحجازِ إليكِ هفا
فؤادي وهامَ بحبِّ النبي
ويا حبّذا زمزمٌ والصفا
ويا طيبَ ذاك الثرى الطيّبِ

والصورة التالية تطالعك بإبراهيم الموسيقي:

حسبتُ أن الشبابا
وليَّ حميداً وغابا
وما ظننتُ فؤادي
إلا اهتدى وانابا
هيهاتَ لم يُرضِ قلبي
من الهوى ما اصابا
يا نظرةً لم أُردها
ساقت إليَّ عذابا
لم أدرِ أن الزوايا
يا قلبُ فيها خبايا...

يا إخوان إبراهيم الملهوفين:

بربكم المتعالي القدير لا تقولوا إن (إبراهيم) قد مات! بل ثقوا أن الشاعر هو آية من آيات الإبداع حلّ في العالم فلم يسعه هذا العالم، ولم تملأ فراغ نفسه النبيلة أمجاد هذا الكون الزائل، فطار إلى عالم سامٍ حيث يرتل تناغيم الخلود التي طالما أسمعنا قوافيها العذبة على قيثارة شعره الحالم.

إن ذكرى هذا الشاعر الألمعي الذي فقدناه لتظل محلقة فوق (نابلس).

****

فلسطين - الأحد ١٩٤٢/٥/٣م صفحة ٢

عام مضى على وفاة شاعر فلسطين الكبير وبلبلها الغريد

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

(أبو جعفر)

بقلم: راضي عبدالهادي

أَوَ تدري كيف كان؟؟؟

زنبقة من زنابق الوادي هبت عليها نسمات الفجر الندية، فتفتحت أكمامها، وعبق عبيرها، فإذا بها تملأ القلوب بهجة، والنفوس فتناً وسحراً.

بلبل من بلابل الروض ما ترك غصناً من أغصان الأراك إلا شدا عليه، أو فنناً من افنان الدوح إلاّ غرّد في ظله، حتى لقد كادت موسيقاه تطغى على ما في الروض من جمال وما فيه من روعة.

ولكن الزنبقة الجميلة الحمراء قد ذوت ونضب فيها ماء الحياة، وحولت أوراقها اليانعة الخلابة إلى قطع يابسة من الهشيم، تقع العين عليها فترتد موجعة كئيبة.

ولكن البلبل الصداح سقط صريعاً بين الأغصان وسقطت معه قيثارته، وتقطعت اوتارها، فإذا بالموسيقى الشجية تصمت إلى الأبد، وإذا الروض الضاحك يغدو كئيباً، وإذا الزهر الباسم يتساقط أسىً وحسرة، ولكن ... للبلبل موسيقى أبدية تتأثر بها العواطف، ذلك كل ما تركه الشاعر:

عطرٌ خالد، وموسيقى أبدية، ونور أخاذ.

للذين أحبهم وأحبوه.

والذين فهمهم وفهموه.

والذين أخلصهم وده واخلصوه.

فيا وطن الفقيد الغالي ... أعرفت مَنْ فقدت؟؟

ويا أيها الوطن العزيز ... أعلمت من احتضنت؟؟

إنه الشاعر ... إنه إبراهيم طوقان الذي كان يسعد لسعادتك، ويبتهج لابتهاجك ويأسى لأساك.

إنَّه الشاعر: الذي كان ينتزع قصيدة من عصارة كبده ونوب إحساسه ليصف أمسك ويتحدث عن غدك.

إنه الشاعر: الذي كان يسكب دموعه تأسية للبؤساء وإشفاقاً على المعوزين والضعفاء.

إنه الشاعر: الذي لم يعرف للغرور معنى، ولم يدرك للأنانية كنهاً، فعاش لغيره ومات في سبيل غيره.

واليوم:

ينطوي عام على وفاته، وحزننا عليه عبقري، وسيتجدد هذا الحزن، كلما قال الوطن ... أين الشاعر؟؟

فلا يسمع جواباً لقوله الحزين.

«راضي عبدالهادي»

****

صوت من القبر

إبراهيم طوقان شاعر فلسطين ينادي بني قومه.

مهداة إلى ولديه (جعفر) و(عريب)

- علي حيدر الركابي -

رحم الله الصديق العزيز (إبراهيم طوقان) وطيب ثراه، فلقد كان شاعراً فلسطينياً من فحول شعراء العرب في هذا العصر، ولا نبالغ إذا قلنا بأنه في برهة قصيرة استطاع أن يحتل مكان الصدارة ولا سيما في الشعر الوطني والشعر الوجداني، وهو لو لم يتوفّه الله في ربيع عمره عام ١٩٤١ لجاء زمان رأيناه فيه سيد شعراء العرب بلا منازع.

سجل (طوقان) في شعر سلس ومثير مختلف الأحداث التي مرت بالعرب وبصورة خاصة ما مر بوطنه الأصغر فلسطين، ولعل القراء يذكرون قصيدته الرائعة في رثاء المغفور له فيصل الكبير ومطلعها:

ما الذي أعددتِ من طيب القرى
يا فلسطينُ لضيفٍ مُعجلِ

الذي أشار فيه إلى مرور جثمانه الطاهر بحيفا.

ومما يدل على عظمة شعر (طوقان) وعمق تفكيره أن ما نظمه عن حوادث فلسطين منذ عام ١٩٢٦ ما يزال يرتدي طابع الجدة، ويشعر القارئ أنه إنما هدف إلى وصف الحالة الراهنة في تلك البقعة المعذبة من أرض الوطن العربي الأكبر، وهذا ما دعانا إلى انتقاء بعض المقطوعات من شعره الوطني لنعيد نشرها في الظرف الحاضر لعلها تنجح في إزالة الغشاوة عن بعض العيون، وإذكاء النار في بعض النفوس.

****

الثلاثاء الحمراء

في صباح يوم الثلاثاء ١٧ حزيران عام ١٩٣٠ أعدمت السلطة البريطانية في فلسطين ثلاثة من مجاهدي العرب هم الشهداء ساكنو الجنان: (فؤاد حجازي) و(محمد جمجوم) و(عطا الزير)، وقد تم الإعدام رغم كل المحاولات التي بذلها العرب بين التكبير على المآذن وقرع النواقيس في الكنائس فقال (طوقان) مخاطباً ذلك اليوم الأسود:

لما تَعرّضَ نجمُكَ المنحوسُ
وترنّحتْ بعُرى الحبالِ رؤوسُ
ناح الأذانُ واعول الناقوسُ
فالليلُ اكدر والنهار عَبوس
طفقتْ تثور وعواطفُ وعواصفُ
والموت حيناً طائف أو خاطفُ
والمعولُ الابديُّ يمعن في الثرى
ليردّهم في قلبها المتحجّرِ

وبعد ذلك أراد الشاعر أن يؤكد هول ذلك اليوم فقارنه بجميع أيام الظلم السالفة فلم يجد بينها ما يحاكيه:

يومٌ اطلّ على العصور الخاليه
ودعا «امرٌ على الورى امثاليه»
فاجابه يومٌ: «اجلْ انا راويه
لمحاكم التفتيش تلك الباغيه
ولقد شهدتُ عجائبا وغرائبا
لكنّ فيكَ مصائبا ونوائبا
لم القَ اشباهاً لها في جورها
فاسألْ سوايَ وكم بها من منكر

☆☆☆☆

وإذا بيـــــومٍ حـــــالكِ الجلبـــــابِ

مُـــتــــرنّحٍ من نشـــوة الأوصــــابِ

فـــاجـــاب «كـــلا، دون مـــا بكَ مـــا بي

انا في ربى «عـــاليـــهِ» ضـــاع شـــبـــابي

وشهدتُ للسفّاح ما   ابكى دما

ويلٌ له مـــا اظلمـــا   لكنّمـــا

لم الق مـــــثلك طالـعـــاً في روعــــة

فـــاذهبْ لعلكَ انتَ يومُ المحـــشـــرِ»

✡✡✡✡

(اليــــومُ) تنكره الليـــالي الغـــابره

وتـظلّ تـرمـــقـــه بـعـينٍ حـــائرةْ

عـــجـــبـــاً لأحكام القـضـــاء الجــائره

فـــاخـــفُـــهـــا امـــثـــالُ ظلمٍ ســائره

وطنٌ يسير إلى الفناءْ   بلا رجاءْ

والـداءُ لـيـس لـه دواءْ   إلا الإبـاءْ

إن الإبـاءَ مـنـاعـــةٌ إن تشـــتــــملْ

نفسٌ عليـــه تَمُتْ ولـمّـــا تُقـــهـــرِ

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف الساعات الثلاث الرهيبة التي نفذ فيها حكم الإعدام بالشهداء الثلاثة، حيث خصصت لكل منهم ساعة، وكان المقرر أن يعدم (جمجوم) في الساعة الثانية بعد (حجازي)، ولكنه حطم قيده وزاحم رفيقه على الدور الأول ففاز به.

وأخيراً ينهي القصيدة بهذه الخاتمة الفريدة في قوتها وعاطفتها:

اجـــــســـــادُهـم فـي تـربـةِ الأوطـانِ

ارواحُـــــهـم فـي جنّـة الـرضـــــوانِ

وهناك لا شكوى من الطغيانِ

وهناك فيضُ العفوِ والغفران

لا ترجُ عفواً من سواهْ هو الإلهْ

وهو الذي ملكتْ يداه كلَّ جاهْ

جبروته فوق الذين يغرُّهم

جبروتُهم في برِّهمْ والابحرِ

الشهيد:

لا نخالنا مبالغين إذا قلنا بأن قصيدة طوقان في وصف الشهيد وتخليده من أرفع ما وصل إليه الشعر العربي الحديث في هذا الباب، فهي غنية في روحها، غنية في ديباجتها، وغنية – اخيراً – عن التعليق:

عبسَ الخطبُ فابتسَمْ

وطغى الهولُ فاقتحَمْ

رابطَ الجاشِ والنُّهى

ثابتَ القلبِ والقدم

لم يبالِ الأذى ولم

يثنِه طارئُ الألم

نفسُه طوعُ همَّةٍ

وجَمَتْ دونها الهمم

تلتقي في مزاجها

بالأعاصير والحُمم

تجمع الهائجَ الخضمْ

مَ إلى الراسخ الأشم

وَهْي من عنصر الفدا

ءِ ومن جوهر الكرم

ومن الحقّ جنوةٌ
لفحُها حَرّز الأمم

✡✡✡✡

سار في منهج العلا
يطرق الخلدَ منزلا
لا يبالي، مكبَّلا
ناله أم مُجَدَّلا
فهو رهنٌ بما عزم

✡✡✡✡

ربّما غاله الردى
وهو بالسجن مُرتهَنْ
لم يُشيَّع بدمعةٍ
من حبيبٍ ولا سكن
ربّما أدرج الثّرا
بَ سليباً من الكفن
لست تدري بطاحُها
غيَّبتْه أم القُنن
لا تقل أين جسمُهُ
واسمُه في فم الزمن
إنه كوكبُ الهدى
لاح في غيهب المحن
ارسلَ النورَ في العيو
نِ فما تعرف الوسن
ورمى النارَ في القلو
بِ، فما تعرف الضغن

✡✡✡✡

ايُّ وجـهٍ تـهـلّـلا
يـرِدُ الموتَ مُـقـبِـلا
صـعّـد الروحَ مُـرسِـلا
لحـنَـه يُـنـشـد المـلا:
انـا لـلّـه والـوطـنْ

الاتحاد:

تحت هذا العنوان نستطيع أن نثبت بعض الأبيات المنتخبة من قصائد مختلفة دعا فيها (طوقان) بني قومه إلى نبذ الشقاق والوقوف صفاً واحداً في وجه الأعداء، وهي لعمر الحق دعوة ما تزال محتاجة إلى من يسمعها لا بين عرب فلسطين فحسب، بل في كل حي من أحياء العرب:

وطني، اخـاف عليك قـومـاً اصـبـحـوا
يتـسـاطـون: منِ الزعـيـمُ الأليقُ
واللـهِ لا يُرجى الخـلاصُ وامـرُكم
فـوضى، وشـملُ العـاملين مُـمـزَّقُ

✡✡✡✡

مـا لكم بعـضُكم يُمـزّق بعـضـاً
افـرغـتـم من العـدوّ اللدودِ؟
اذهبـوا في البـلاد طولاً وعـرضـاً
وانظروا مـا لخـصـمكم من جـهـود
كل هذا اسـتـفـاده بين فـوضى
وشـقـاقٍ وذلّة وهُـجـود
واشـتـغـالٍ بالتـرّهات وحبّ الذْ
ذاتِ عن نافعٍ عـمـيمٍ مـجـيـد

إن قــلــبــي لــبــــــــــــــلادي

لا لحــــــــزبٍ او زعــــــــيـمِ

غـــــايـتـي خـــــدمـــــةُ قـــــومـي

بـشــــقــــائي او نـعـــيـــــمـي

خصوم البلاد:

ويجيد شاعرنا أيما إجادة في وصف أعداء العرب من بريطانيين ويهود وتنبيه بني وطنه إلى حقيقتهم والأخطار الكبيرة الكامنة فيهم:

ارى عـــــدداً في الـشــــؤم لا كـــثـــلاثةٍ

وعـــشــــرٍ، ولكن فــاقـــه في المصـــائبِ

هـو (الألفُ) لـم تـعــرف فلسطينُ ضــربـةً

اشـــــدَّ وانكى منه يومــــاً لـضـــارب

يـهـــاجــــر (الـفٌ) ثم (الفٌ) مُــــهــرِّباً

ويـدخل الـفٌ ســــائـمــــاً غـــيــــرَ آيب

و(الـفُ) جــــوازٍ ثـم (الفُ) وســـــيـلةٍ

لتـســهـيل مــا يلقَـوْنه من مــصــاعب

وفي الـبـــحـــــر (الافٌ) كـــانَ عـــبــابَهُ

وامـــــواجَـــه مــــشــحـــونةٌ بـالمراكب

وكأني بإبراهيم وقد نهض من مرقده يرسلها اليوم صيحة مدوية من الأعماق لعلها تحرك ساكناً وتوقظ مواتاً:

امــــــامكَ ايهــــــا الـعـــــــربيُ يـومٌ

تشـــــيب لـهـــولـه ســــودُ الـنـواصي

وانتَ كـمـا عـهـدْتُكَ لا تبـالي
بغـيـر مظاهر العـبثِ الرُخـاص
مـصـيـرُكَ بات يلمـسـه الأداني
وسـار حـديثُـه بين الأقـاصي
فـلا رحبُ القـصـورِ غـداً ببـاقٍ
لسـاكنهـا ولا ضـيقُ الخِـصـاص
لنا خـصـمـان: ذو حَـولٍ وطَولٍ
وآخـرُ ذو احـتـيـالٍ واقـتناص
تـواصَـوْا بـينـهـم فـاتـى وبـالاً
وإذلالاً لـنـا ذاك الـتـواصـي
مـنـاهـجُ لـلإبـادة واضـحـاتٌ
وبالحُـسنى تُنفَّـذ.. والرصـاص

ولإبراهيم طوقان قصيدة كبيرة عصماء عنوانها (تفاؤل وألم) سنجعلها موضوعاً لمقال خاص إن شاء الله.

رحم الله هذا الفتى العربي الراقد في التربة الطيبة المخضبة بدم الأبطال من أبناء العروبة الأشاوس الذين تحصنوا بجبل (نابلس) الأشم، وألقوا على الأجيال العربية القادمة مثلاً أعلى في التضحية والجهاد.

****

٢٦ أكتوبر ١٩٣٠ — بيروت — الجامعة الاميركية

أختي العزيزة، المجتهدة النشيطة فدوى دام نشاطها

سلام وتحية وقبلات اشتياق. بعد أمس أخذت تحريرك الجميل

سررت به جداً ولا سيما عندما أكدتِ لي فيه أنك تكتبين بدون

مساعدة أحد. وسررت جداً فوق ذلك بنشاطك واجتهادك

ومواظبتك على الدروس والحفظ.

وأنا في شغل مستمر متعب. كنت اصلح دفاتر الانشاء

منذ ثلاثة ايام

للتحرير وعددها مئة واربعون دفتراً متأملاً ما أكبر هذه الكمية.

ثم تفكري بصعوبة هذا العمل ومشقته عندما يكون أكثر التلاميذ

ضعافاً. كانت اعلى علامة ثمانية وثمانين من مئة وأقل علامة

ستة وعشرين. ان الذين اخذوا هذه العلامة الاخيرة [illegible].

وسأكتب لك بعض جمل منهم لتصلحيها أنتِ وترسليها الي في

التحرير القادم، (الجملة الآتية لفتاة اسمها كُزين نَشأت)

«ولما ذهب نابليون الى مصر أمر أن لجنة من الافرنسيين

تذهب وترى ارض السويس لأن يجب حفر قناط هناك»

وكتب احد التلاميذ هذه الجملة: «إن الأخوان رايت [illegible]

[illegible] اخترعا اول بالون الذي طير للعالم! فكانا اول

تجربة التي جربها الناس في الطيران»

صلحي هاتين الجملتين وارسليهما الي في التحرير القادم.

يوجد في تحريرك هذا غلطات بسيطة وهي اخف من غلطات

التحرير السابق. فانتبهي لتصليحها الآن:

قلتِ: "ولكن طالما يوجد من يساعدني فانا بدون شك... الخ"

(طالما) لا تدخل على الفعل المضارع بل على الفعل الماضي، فالاضبط

الصفحة الأولى من إحدى رسائل الشاعر إلى شقيقته فدوى مؤرخة في ٢٦ من أكتوبر ١٩٣٠

الفهـــرس

****







مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

2002